البلاغة العربية

أسسها وعلومها وفنونها

الدكتور

هاني فلاح العلي



البلاغة العربية

أسسها وعلومها وفنونها

البلاغة العربية

أسسها وعلومها وفنونها

الدكتور

هاني فلاح العلي

الطبعة العربية
2015م



دار امجد للنشر والتوزيع

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2014/6/2799)

414
العلي، هاني فلاح
البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها/هاني فالح العلي.-
عمان: دار امجد للنشر والتوزيع، 2014
( )ص.
ر.إ.: 2014/6/2799
الواصفات: /البلاغة العربية// اللغة العربية//

ردمك ISBN:978-9957-5896- 08



دار أمجد للنشر والتوزيع

جوال :
٠٠٩٦٢٧٩٦٩١٤٦٣٢
٠٠٩٦٢٧٩٩٢٩١٧٠٢
٠٠٩٦٢٧٩٦٨٠٢٦٧٠

هاتف :٤٦٥٢٢٧٢ ٠٠٩٦٢٦
فاكس:٤٦٥٣٣٧٢ ٠٠٩٦٢٦

dar.almajd@hotmail.com
dar.amjad2014dp@yahoo.com

عمان - الأردن - وسط البلد- مجمع الفحيص - الطابق الثالث

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين الذي أتقن كلّ شيءٍ صنعاً، وفطر النفوس على حبّ الجمال، وزيّن ما خلَقَ بزيناتٍ روائعَ تميلُ إليها النفوس، وتأنَسُ بها وترتاح إليها، و هي تدلُّ على إبداع خالقها وإرادته الحكيمة، في كلّ ما خلق من ظواهر وبواطن. هو الذي أنزل كتابَهُ القرآن معجزاً، وآيةً عظيمةً تدلُّ علَيْه، ومن إعجازه ما فيه من جمالٍ بيانيّ وبلاغةٍ رائعة لا ترقى إلى مِثْلها بلاغَةُ جميع البلغاء، ولا فصاحة جميعِ الفصحاء.

والصلاة والسلام على رسُولِنا محمّدٍ خاتم النبيّين والمرسلين، وإمامهم، مَنْ خَصَّه الله بالدّينِ الخاتم، والكتاب الخاتم المعجز، فأنزلَهُ عليه مُتكَفِّلاً بحفظهِ مِنَ التغيير والتبديل والزيادة والنقصان، بقَصْدٍ أو نسيان، فهيّأ له من وسائلِ الحفظِ ما جَعَلَهُ باقياً كما أَنْزَلَهُ في السُّطُور والصُّدور وأدواتِ التسجيل الصوتي.

وبعدُ:

فخدمةً للقرآن كتاب الله المجيد، وحرصاً على إبراز بعض جوانب إعجازه البيانيّ، اجتهد علماء المسلمين بحثاً، وتَنْقِيباً واستخراجاً، حتَّى وَضَعُوا علوم البلاغة الثلاثة: "المعاني - والبيان - والبديع" وما يزال الباحثُون يَبْحَثُون ويستَخْرِجون ويكْتَشِفُون مِن عناصر إعجاز القرآن البياني ما لم يكتشِفْهُ السّابقون.

علىٰ أنّ كتاب الله عزّ وجلّ أوسَعُ من أن يُحْصِيَ كُلَّ عناصرِ إعجازه البياني الباحثون والمستخرجون والمكتشفون، مهما اجتهدوا ونقَّبُوا، لأنّ كثيراً من عناصر الجمالِ تُدْرَكُ بالحسّ الجماليّ ولا يُسْتطاعُ تحديدُها والتعبيرُ عنها ولا اكتشافُ عناصِرِها.

وسيظهر في كلّ عَصْرٍ من جوانب إعجاز القرآن البياني روائع ما توصَّلَ السّابقون إلىٰ اكْتشافها واستخراجها، فَهُو كتاب لا تفنىٰ عجائبُهُ، ولا يَخْلَقُ عَلىٰ كثْرةِ الرَّدّ، كَما جاء وصفُهُ في كلام الرسول صلىٰ الله عليه وسلم.

وقد فتح الله عليّ بجملة طرائف ولطائف هي من عناصر إعجاز القرآن البياني، أردتُ أن أضيفها إلىٰ علوم البلاغة التي استقرّت منذ قرون علىٰ هَيْكلٍ لمْ يَدْخُلْهُ من الإضافات والتعديلات إلاَّ القليل، وبعضُ التطبيقات من الأمثلة. وفتح الله علىٰ غيري من الباحثين متناثرات تَتّصِل بموضوع إعجاز القرآن البياني، ويَحْسُنُ أن تُضافَ إلىٰ علوم البلاغة، كظاهرة التصوير الفنّي الّتي اهتدىٰ إليها المرحوم "سيّد قطب" وكالْبُحوث الطيّبة حول القصّة القرآنيّة الّتي نجدها لدىٰ عدد من الباحثين المعاصرين.

الغرض من دراسة علوم البلاغة والأدب

البلاغة بفنونها الثلاثة "المعاني - البيان - البديع" وسائر الفنون الأدبية التي نبَّه عليها أدباء العرب، وكذلك سائر المذاهب الأدبيّة المستوردة من الشعوب غير العربيّةِ ليست إلاَّ بحوثاً وتتبُّعاتٍ لاكتشاف عناصر الجمال الادبيّ في الكلام، ومحاولات لتحديد معالمها، ووضع بعض قواعدها، دُون أن تستطيع كلُّ هذه البحوثِ والدّراساتِ جَمْع كلِّ عناصر الجمال الأدبِيِّ في الكلام، أو استقصاءها، واكتشاف كلّ وجوهها.

فالجمال كثيراً ما يتذوّقه الحسّ الظاهر والشعور الباطن، دون أن يستطيع الفكر تحديد كلّ العناصر التي امتلكت استحسانه وإعجابه، وإنْ عرف منها الشيء الكثير، واستطاع أن يُفْرِزَه ويُحَدّد معالمه.

إنّ آفاق الجمال أوسع من أنْ تُحَدَّدَ أو تُحْصَرَ بأُطُرِ مقاييس، ولكن يمكن اكْتشَافُ بَعْضِ عناصرِ الجمال، وكُلِّيّاتِه العامّة، وطائفةٍ مِنْ ملامحه.

والْغَرَضُ من عرض الباحثين لفنون البلاغة وعلومها، وللمذاهب الأدبيّة المختلفة، وللأمثلة الأدبيّة الراقية المقرونةِ بالتحليل الأدبي والبلاغي، تَرْبيةُ القدرة على الإِحساس بعناصر الجمال الأدبيِّ في الكلام ا لأدبيّ الرفيع، وتربية القدرة على فهم النصوص الجميلة الراقية، والقدرة على محاكاة بعضها في إنشاء الكلام، والقدرة على الإِبداع والابتكار لدى الذين يملكون في فطرهم الاستعداد لشيء من ذلك. وليس الغرض من دراسة هذه الفنون والعلوم والمذاهب والنصوص، الجمودَ في

قوالِبِ ما اسْتُخْرِجَ من العناصر الجمالية، وما وُضع من قواعد، دون اكتساب الإِحساس المرهف بمواطن الجمال، لتقديم الأفكار، وصياغة الكلام صياغةً أدبيّة بليغة.

فَمَع ضرورة التَّسلّح بهذه الدراسة، والاطلاع الواسع على النصوص الأدبيّة الجميلة الراقية، ودراستها دراسةً تَحليليَّةً تكشفُ من جوانب الجمال والإِبداع فيها على مقدار اسْتِطَاعَةِ المُحَلّل، لا يصِحُّ بحالٍ من الأحوال الجمود عندها دون محاولات الابتكار والإِبداع والتجديد، بشرط أَنْ يكون ذلك الابتكار قادراً على انتزاع إعجاب ذوي الإحساس المرهف، والذَّوْق الرَّفيع في إدراك الكلام الأدبيِّ الجميل البليغ.

هذه الحقيقة لا بُدَّ من ملاحظتها دواماً لدى أَيّةِ دراسَةٍ بلاغيّةٍ وأدبيّة، ولدى إنشاء أي نصٍّ أدبيّ جديد.

ومن الخير دواماً لكلّ كاتب أو مُنْشِئٍ أو شاعرٍ أن يَحْذَرَ منْ أنْ يضَعَ الصورة الأدبيَّةَ الّتي دَرَسَها بلاغيّاً أو أدبيّاً، وينشِئَ كلامَهُ على قَالَبِها، فإذا فَعل ذلِكَ أَفْسَدَ كلامه، وشوّه روح القاعدة البلاغيّة أو الأدبيّة، وإن التزم بصورتها.
إنّ تربية الذوق والملكة البيانيّة، مع تلقائيّة الأداء التعبيريّ لدى إنشاء الكلام كتابةً أو ارتجالاً، عند منْ يَمْلك الاستعداد لأن يكون أديباً بليغاً، هي الكفيلة بتفجير الإِبداع المطلوب في الأدب، بشرط عدم الخروج عن ضوابط قواعد اللّغة وأصول البيان.

ومن جيّد ما قرأت في التعريف بخير الكلام، قول "خالد بن صَفْوان" وهو من

فصحاء العرب المشهورين، كان يجالس عُمَر بن عبدالعزيز، وهشام بن عبدالملك، توفي نحو (133 هجرية):

"خَيْرُ الكلام مَا طَرُفَتْ مَعَانيه"، وشَرُفَتْ مَبَانِيه، والْتَذَّه آذان سَامِعِيه". عن لسان العرب في مادة "طرف".

نظرات تحليليّة حول الغرض من الكلام

الغرض من الكلام التعبيرُ عمّا في الفكر ومشاعر النفس وأحاسيسها بألفاظٍ دالّةٍ على ما يريد المتكلّم التعبير عنه.

والكلماتُ رموزٌ اصطلاحيَّةٌ في الأوضاع اللُّغويّةِ الأولى، وفي الاستعمالات اللاّحقة للأَوْضَاعِ اللّغوية والناجمة عن اسْتِخْدام الناس لمختلف الأساليب والحِيَلِ الكلامية الْقَائِمةِ على التوسُّع في دلالاتِ الألفاظ، والانتقال بِها منَ الحَسّيَّاتِ إلى ما وراءَها، حتّى العقليَّات المجرّدة.

فمن أمثلة ذلك الحسيّات:

التّضرُّعُ: كان بمعنى خَفْضِ رَأْس الرّضِيع من صغار البهائم كَحَمَلٍ أو عِجْلٍ أَوْ سَخْلَةٍ، ونحو ذلك، ليَرْضَعَ مِنْ ضَرْعِ أُمِّه، فصار في التوسُّع اللُّغَوِيّ بمعنى الذُّلّ والانْكِسار، ونَزَلت التعاليمُ الرَّبَّانِيَّةُ المبيِّنَةُ للصُّوَرِ المُثْلَى من دَرجاتِ العبادةِ لله تباركَ وتَعالَى، فَعَلَّمَتْنَا أَنَّ أَمْثَلَ الْعِبَادَةِ لله عزّ وجلّ ما كانَ بتَضَرُّعٍ له، أي: بذُلٍّ وانْكِسَارٍ اسْتِجْدَاءً لِرَحْمَتِهِ وَحَنَانِهِ، ويُعَبَّرُ عن حالَةِ الذّلِّ والانكسارِ في النفس بالركوعِ والسُّجُودِ لله جلَّ وعَلاَ.

ومن الأَمثلة في العقليّات:

الحدّ - والحُدود: فَأَصلُ الحدِّ في اللّغةِ الحاجزُ بَيْنَ شيئَيْنِ مادّيّيْنِ مُدْرَكَيْنِ بالحِسِّ الظّاهر، كالأعلام والْفَوَاصِلِ الّتِي تُوضع في نَحْو آخِرِ الأَرْضِ الّتِي يملكُها إِنْسَانٌ

ما، لتُبيِّنَ انْتِهاءَها وانْفِصَالَهَا عَنْ غَيْرِها من ممتلَكَات الآخَرينَ. ثُمَّ صَارَ تَوَسُّعٌ في كلمة "الحدّ" وجمعها "الحدود" فصارت تدلُّ على ما يفصل المعانِيَ الفكريَّةَ بعْضَها عن بعض، من بيانٍ جامعٍ لكُلِّ عَنَاصِرِ المحدود، مانعٍ من دُخولِ غَيْرِهِ فيه.

وبالحدودِ البيانيّة تُحْمَى المعاني من أنْ يتداخل بعضُهَا في بَعْضٍ، أو يختلط بَعْضُها ببعض.

وتُسْتَخْدَمُ في الكلام الأشباهُ والنَّظَائِرُ، ودَلالاَتُ اللَّوازِم الكفريّةِ، لإِفْهَامِ الآخَرِينَ ما يُريدُ ذو الكلام التَّعْبِير عنْه، كَمَا هو في ذهْنِهِ، أَوْ في مَشَاعِرِ نَفْسِهِ، أَوْ فِي إحْسَاسَاتِهِ الجَسَدِيّة، أو الوجْدَانِيَّةِ الباطنة.

فلدَينا إذَنْ كلماتٌ مُفْرَدة، وجُمَلٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ كلماتٍ، وجَمِيعُها ذَواتُ أَلْفَاظٍ وَذَوَاتُ دَلالاتٍ، وَأَلْفَاظُهَا ذَواتُ حُروفٍ مجتمعة تَنْطِقُ بِهَا الأدواتُ النَّاطِقَةُ، وهِيَ تُصْدُرُ بأصْواتٍ فتَقْرَعُ آذان السامِعينَ بمختلِفِ أشْكالِهَا وصُوَرِها. وأصواتُ الحروفِ الَّتِي تُرَكَّبُ منْها الكلماتُ لها نَغَماتٌ وحُدودٌ مختلفات، فمنها ما يقْرَع السّمْعَ برِقَّةٍ ولينٍ فيستَحْليه، ومنْها ما يقرعُ السَّمْعَ بغلظةٍ وخُشُونَةٍ فَيَمُجُّهُ كَارهاً له، ومنْها ما ينْفِرُ منه السّمْعُ وتتقَزّزُ منْهُ النفس، سواءٌ أكان ذلك من الكلمة الواحدة مُفْرَدً، أَمْ من اجْتِماع عدَّةِ كَلِماتٍ أحدثَ اجتماعُها ما لم يكُنْ عِنْدَ انْفرادِ كلٍّ منها.

وَكلُّ أمّةٍ تَضَع ما تَلَقَّتْ منْ كلمات أجدادها، وما تُضِيفُ من كلماتٍ تضَعُها لتُعَبِّر بها

عن أفكارٍ ومشاعرَ وأحاسيسَ قامَتْ في أنفسها، مَوْضِعَ التجربة، لاختبارِ مدىٰ لينِها وسُهولَةِ النُّطْقِ بها، أو مَدىٰ التَّأْثيرِ النَّفْسِيِّ لدىٰ النطق بها في أَنْفُسِ السَّامعين، ولاخْتبار مَدَىٰ استحسان الأسماع لها، أو استقباحها، واستغلاظها، والنُّفْرَة منها، وتَقَزُّز النفس لدىٰ سماعها.

وخلال التجارب الطويلة تشيعُ غالباً الكلماتُ الَّتي تَوَاضَعَ مُعْظَمُ النَّاسِ علىٰ قبولها واسْتِحْسَانِها، لأداءِ المعاني الَّتِي يُعبَّرُ بها عَنْهَا، مع ملاحظة الشُّعور بالتَّلاؤُم بينَ اللَّفظِ والمعنىٰ في كثيرٍ من الكلمات، في المجتمع البشري الذي درجَتْ علىٰ ألسنة أفرادِه.

وتُعْزَلُ في الغالبِ الكلماتُ القاسية الصعبة، والكلماتُ المستقبحة المستغلظة، والتي تتقزّزُ مِنْها النفوس، إلاَّ ما كانَ منها مقصوداً لِبَيَانِ قُبْحِ المعنَىٰ أو ما كان منها مقصوداً للشتائم، ونحو ذلك.

ويَنْتَقِي أصحابُ الأَذواقِ الرَّفيعَة منَ الكلمات أَلْيَنها في النُّطْقِ، وأَحْلاها في الأسماع، أَوْ أوفَقَهَا وأَكْثَرها مُلاءَمَةً للمعاني الّتي تدلُّ عَلَيْهَا، ويَخُصُّونَ بها أقوالهم ذوات الشأن، من خُطَبٍ، ورسائل، ومقالات، وشِعْر، وقصّة وغير ذلك من موضوعات الكلام المحرّر المنتقىٰ، الذي صار يُسَمَّىٰ فيما بَعْدُ "أدباً" لأنَّه في الكلام يُشْبهُ أدبَ السلوك في الأعمال.

وتظلُّ كلماتٌ مستقبحاتٌ شائعاتٌ، لدىٰ من لهم هوىً في أن يستخدموا ألفاظاً قاسيةً خشنةً، تنفرُ منها الأسماع، إذْ يرَوْنَهَا نافعةً لهم في إزعاج الآخرين بها، أو لفت

أَنظارِ الناس إليهم عن طريقها، كما يفعلون مثل ذلك في ألبستِهِمْ، وما يحملون من أسلحةٍ مستهجنة، وما يمارسون من حَرَكاتٍ وأعمال، إلى غير ذلك من أُمُورٍ يبتَعِدُ عَنْها المُتأدِّبُونَ من الناسِ بالآداب الحسنة، وذوو الأذواق الرفيعة، والسلوك الجميل الفاضِلِ بيْنَ الناس.

وقد تتدخَّلُ عوامل أخرى في بقاء كلماتٍ صعبةٍ ثقيلةٍ في النُّطْقِ ضمْن الكلام الدارج المستعمل في اللّغة، وهذه العوامل يصْعُبُ تحديدها، وتبقَى هذهِ الكلماتُ حَيَّةً في الاستعمال بحُكْمِ الإِلْفِ والتقليدِ والمحافظة على المواريثِ اللُّغَويّة. ومن هذهِ العوامل تفاخُرُ الأُمَّةِ بقُدْرَةِ أَلْسنَتِها على الانفرادِ بالنطق ببعض الحروف أو الكلمات، ومنها المحافظةُ على إحْدَى الصفاتِ القوميَّةِ للأُمَّة.

وتَظَلُّ كلماتٌ يسْهُلُ نُطْقُها على النّاس بالتداول في تَعاملاتِهِمُ اليوميّة، ولو لم تكُنْ راقيةَ النغمات في تركيب حروفها، ولا عذْبةً في الأسماع، ولكنْ بقيتْ في التداوُلِ بتأثير العادة، والحاجة إلى تداوُلها اليوميّ في تَعَامُلاتِ النّاس. وهذه الكلماتُ يبتَعِدُ عَنْها أدباءُ الْقَومِ وشُعَراؤُهم وخُطباؤهم وكُتّابُهم لدى إنشاء كلامهم المجوّدِ المُحَسَّنِ الذي يحرصُونَ على أنْ يكون له شأنٌ بينهم. فظهر بسبب ذلك صنف من الكلمات ضِمْنَ اللُّغَةِ الواحدة، يوصَفُ بأنّه فصيحٌ، وصنْفٌ آخَرُ يوصَفُ بأنَّهُ غيرُ فصِيح.

ثُمَّ لدى تركيب الكلمات في الجُمَلِ التي تدلُّ على المعاني الَّتِي يرادُ تعريفُ المخاطبين بها، قد ينشَأُ من التركيب قساوةٌ أو صعوبةٌ في النُّطقِ، أو استقباح واستغلاظٌ ونُفْرَةٌ

منّهُ في الأسماع، فلا يكون الكلام في هيئته التركيبيَّةِ فصيحاً، على الرغم من فصاحة مفرداته قبل اجتماعها في هذه الهيئةِ التركيبيَّةِ الخاصّة.

فظهر بسبب ذلك ما يُسَمَّىٰ به الكلامُ المركّبُ فصِيحاً أَوْ غَيْرَ فصيح.

لذلك نلاحظ أنَّ من يختار لكلامه مفرداتٍ فصحيةً، وينظمها في كلامه نظماً ملائماً فصيحاً، معت التزامه بضوابط قواعد اللّغة وأحكام أهل اللّسان النحويَّةِ والصرفية، فإنّه يصِحُّ أنْ يُسَمَّة ناطقاً فصيحاً.

فصارت الفصاحة بهذا التحليل وصفاً للكلمة، وللكلامِ، وللمتكلّم.

* فيقال: كلمة فصيحة، ويُقَابلها: كلمة غير فصيحة.

* ويقال: كلامٌ فَصيحٌ، ويُقابله كلامٌ غيْرُ فصيح.

* ويقال: متكلّمٌ فصيح، ويُقابله: متكلّم غير فصيح.

وتختلف الأمم في أوضاعها اللغويّة، وفي أساليب كلامها، وتعبيراتها، وفي أذواقها، ومَا يلين من الكلمات والحروف في ألسنتها، وما يصْعُب ولا يلين عليها، وما هو مستنكر مستهجَنٌ في أسماعها، وما هو مألوفٌ محبَّبٌ أو مقّبولٌ لديها، وهذه ظواهر فطرة الله للناس، كما قال الله عزّ وجل في سورة (الروم):

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الروم: ٢٢

أمّا دلالات الألفاظ على المعاني المرادة، فتتعرّض لأحوال:

(1) إمَّا أنْ تكون قاصرة الدلالة غير وافية بتأدية المعنى المراد.

(2) وإمَّا أن تكون وافية الدلالة بشرط وجود مُسَاعِدٍ لها من عبقريّة المتلقّي أو ذكائه المتفوّق، فإن لم يكن المتلقّي كذلك كانتِ الدلالة قاصرةً بالنسبة إليه.

(3) وإمَّا أنْ تكون وافية الدلالة لدى الإنسان المتوسّط الذّكاء. فإن كان المتلقي دون ذلك كانت الدلالة قاصرةً بالنسبة إليه، وإنْ كان المتلقّي فوق ذلك رأى فيه زيادةً مُمِلَّة.

(4) وإمَّا أن تكون وافية الدلالة لدى الإنسان الذي هو دون متوسّط الذكاء. فإنْ كان المتلقّي فوق ذلك كان الكلام بالنسبة إليه مُمِلاًّ مطوّلاً، و لا سيما بالنسبة إلى متفوّق الذكاء.

(5) وتتعرَّض أيضاً دلالاتُ الألفاظ على المعاني المرادة لأحْوالٍ أخرى، في الموضوعات التي يُراد توصيلُ مضامينها إلى المتلقي، أو إقناعه بها، إلى ما يقتضي البسط، أو التوسُّطَ بين الْبَسْطِ والإيجاز، أو الإيجاز. أو يقضتي الابتعاد عن التوجيه المباشر، بدرجةٍ أو أكْثَرَ بِحَسَبِ ذكاء المخاطَبِ أو المتلَقِّي، فَيُبْلِغُ إليه المعاني الَّتِي يريدُ تعريفَهُ بها إبلاغاً حسناً.

فما يطابق حالَ المخاطب أو المتلقّي من الكلام مع فصاحة مفرادته، وفصاحة جُمَلِهِ المركَّبةِ هو الكلام البليغ.

والمتكلّم الذي يكون كلامه من هذا القبيل يقال له: متكلّمٌ بليغ.
ويرتقي الكلام البليغ بأساليبه في سُلَّمٍ ذي درجات متفاوتاتٍ فيكونُ بعضُه أبلغ من بعض، ضمْنَ الطبقة التي هو منها، والملائمة للْمُتَلَقِّي الذي يُراد إبلاغ المعاني المراد توصيلها إليه، مزيَّنَةً بزيناتها التي تُعْجبُهُ وتُمْتِعُه، وتهُزُّ مَشَاعِرَه، وتَسْتَأْثِرُ بجوانِب فكرِهِ ونفسه من الداخِلِ والخارجِ.

فيختلف الإِعجابُ بالكلام من كلامٍ بليغٍ إلى كلامٍ بليغٍ آخَرَ، بحَسَبِ نِسْبَةِ ما فيه من مرضياتٍ للفكر والمشاعِرِ والأحاسيس.

وهنا تبرز بلاغةُ الكلام، ومستوياتُ درجات هذه البلاغَةِ صعوداً ونزولاً.
ولا يكون الكلامُ بليغاً في اللِّسَانِ العربيّ لدى علماء البلاغة، ما لم يكن مع تأثيره في المخاطب بِهِ تأثيراً بالغاً، كلاماً فصيحاً في مفرداته وجمله.

أسس البلاغة العالية والأدب الرفيع وشرحها في ثلاثة فصول

باستطاعة الباحث المتفكر اكتشاف أنّ مقادير الارتقاء في درجات سلّم البلاغة العالية والأدب الرفيع في اللّسان العربي تعتمد على نصيب الكلام من عناصر الأسس الثلاثة التالية:

الأساس الأول: الجمالُ المؤثر في النفس الإِنسانية، المفروطة على الميل إلى الأشياء الجميلة، وحُبّها، والارتياح لها، والتأثّر بها، والانفعال السّارّ بمؤثراتها.

الأساس الثاني: كون الكلام في مفرداته وجُمَلِهِ فصيحاً وفْقَ ضوابط وقواعد ومنهج اللّسان العربي، ولا يخلو هذا الأساس من مؤثرات جماليّة أيضاً.

الأساس الثالث: كون الكلام بليغاً، أي: مطابقاً لمقتضَىٰ حال المخاطب به فرداً كان أو جماعة، وبالغاً التأثير المرجوَّ في نفسه، ولا يخلو هذا أيضاً من مؤثراتٍ جمالية.
ولشرح هذه الأسس الثلاثة يتطلَّبُ الْبَحْثُ المتأنِّ عقْدَ ثلاثةَ فصول: الفصل الأول: الجمال في الكلام.

الجمال في الكلام

حبُّ الجمال

حبُّ الجمال فطرةٌ في النفس الإنسانية، فهي بقوة فطرية قاسرة تميل إليه، وتنجذب نحوه، وليس بمستطاع النفوس أنْ تغيِّر فطرها التي فطرها البارئ المصوِّر عليها.

والجمال شيء يصعب تحديده، ولكن باستطاعة النفوس أنْ تحسّ به وتتذوّقه متى أدركته، وعندئذٍ تميل إليه وتَنْجَذِب نحوه، وتأنس به، وترتاح إليه، وتَسْعَدُ بالاستمتاع بلذّة إحساس المشاعر به ولو تخيُّلاً، ويتفاوت النّاس في قدراتهم على تذوُّق الجمال والإحساس بدقائقه كشأن تفاوتهم في سائر قدراتهم المادّية والمعنوية: مثل القوى الجسمية، وقدرات الذكاء، وقوى الإبصار والسمع والشمّ والذوق واللّمس.

والجمال يكون في كل المجالات التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة، حتى مجالات الأفكار، والتخيّلات، والوجدانيّات، والطباع، والأخلاق، وأنواع السلوك الإرادي النفسي والظاهر.

ففي ساحة المرئيات تشاهد الأبصار مرئيات جميلة تتفاوت فيما تحظى به من نسب الجمال تفاوتاً كبيراً، وتشاهد مرئيات قبيحة تتفاوت فيما لديها من نسب القبح تفاوتاً كبيراً وتشاهد وسطاً فاتراً لا يجذب بجمال، ولا ينفِّر بقبحٍ. وفي ساحة الأصوات يسمع السامعون أصواتاً جميلة تتفاوت فيما تحظى به من نسب الجمال تفاوتاً كبيراً،

ويسمعون أصواتاً قبيحة تتفاوت فيها لديها من نسب القبح تفاوتاً كبيراً، وتسمع أصواتاً فاترة لا تجذب بجمال ولا تُنَفِّر بقبحٍ.

ونظير ذلك في ساحة الروائح، وفي ساحة الطعوم، وفي ساحة الملموسات التي فيها ناعم وخشن، وصلب وليّن، وقاسٍ وَلَدْن، وحارٌّ وبارد.

وفي المشاعر الوجدانيّة ندرك أنَّ لدينا مشاعر وجدانية جميلة لذيذة، كمشاعر الحبّ، ومشاعر الإحساس بفعل الخير، ومشاعر الأُبُوَّة والأمومة، والشعور بطمأنينة القلب، وبالأمن. وندرك أنَّ لدينا مشاعر وجدانية قبيحة نتألّم بها، كالشعور بالذّلة والصّغار، وكالحقد، والحسد، وكالشعور بالخوف والقلق. وندرك أنّ لدينا مشاعر وجدانيّة فاترة لا تُحدِث لذّة نفسية ولا تُحدِث ألماً، كمشاعر الانتماء إلى أسرة مغمورة ليس لها مجد يُحدث في النفس لذّة الافتخار، وليس لها فضائح وقبائح تُحدِث في النّفس ألم الصَّغار.

وفي الساحة الفكرية نُدرك أفكاراً جميلة حلوة، وأفكاراً قبيحة مرّة، وأفكاراً فاترة لا تُحدِث انفعال استحسان ولا انفعال استقباح. إنّ الفكرة الذكيّة المبتكرة فكرة جميلة، وإنّ الفكرة الغبيّة المستنكرة فكرة قبيحة، وإنّ الفكرة العاديّة المكرّرة دون غرض فنّي أدبي فكرة فاترة تمرُّ دون أنْ تثير أي انفعال، وكذلك الفكرة الغامضة التي لا يستطيع من تُعرض عليه أنْ يُدركها. ويمرُّ في أذهاننا شريط أفكار طويل فلا يُحدث فينا أيّ انفعال من لذّة أو ألم، إنّها أفكار فاترة، وربّ فكرة تمرّ فتثير إعجاباً وانفعالاً عظيماً نحوها، وقد تمرُّ فكرة فتتقزّز النفس منها وتصرفها بسرعة وتتجاوزها.

وفي ساحة التخيّل تمرُّ أخيلة جميلة حلوة لذيذة، وتَمُرُّ أخلية قبيحة كريهة، وتمرُّ أخيلة في شريط طويل، فلا تُحدث أيّ انفعال.

وفي ساحة التعبير البياني عن الأفكار والمطالب والتخيّلات والمشاعر النفسيّة والوجدانيّة تُوجَد تعبيرات بديعة جميلة جذّابة، تتملّك المشاعر، وتؤثّر في القلوب، وتتفاوت فيما بينها بما تحظَىٰ به من نِسَب الجمال تفاوتاً كبيراً. وتوجد تعبيرات قبيحةٌ منفِّرة، وهذه تتفاوت فيما بينها بما فيها من نِسَب القبح تفاوتاً كبيراً، وتُوجَد تعبيرات فاترة تمرُّ دون أنْ تُحدث في النفوس أيّ انفعال محبوب أو مكروه.

مجالات الجمال

من المعلوم لدىٰ ذواقي الجمال أنّ الزينة من الجمال، وأنَّ كثيراً من المقاصد والمطالب إذا قُدِّمت إلينا مغلّفة بزيناتها أو مقرونة بزيناتِها كنّا أكثر قبولاً لها، وانسجاماً معها، لأنَّ جمال الزينة قد جذبنا إليها، وأقتنع عواطفنا وانفعالاتنا بقبولها، ولنحظَىٰ بلذّة الاستمتاع بالجمال، فتتحقّق من وراء ذلك المقاصد الأساسيّة والمطالب. وهذه الحقيقة تشمل الأفكار، فإذا قُدّمت بعض الأفكار المقصودة وما اشتملت عليه من مطالب اعتقادٍ أو عمل ممتزجةً أو مقرونة بزينات جميلة فكرية أو لفظية كانت النفوس أكثر انجذاباً إليها، وقبولاً لها، ثمّ تمسكاً بها أو عملاً بما طلب فيها. إنَّ شأن الأفكار كشأن المآكل والمشارب والأدوية، وسائر المطالب والحاجات، فمنها ما هو حلو بطبعه، ومنها ما هو حامض، ومنها ما هو مرّ، ومنها ما هو ليّن، ومنها ما

هو قاسٍ، ومنها ما هو ناعم، ومنها ما هو خشن، ومنها ما هو مُهَوِّع مثيرٌ للغثيان، ومنها ما هو محرّك للشهوة مثير لِلُّعاب.

حتى الطيِّبات من المآكل والمشارب وغيرها يزيدها حسناً وجمالاً وتطريةً وتحريكاً لشهوات النفوس نَحْوَها إذا قُدّمت في أطباق جميلة نفيسة، وعلى مائدة جميلة أنيقة، وفي أيدٍ نظيفة رشيقة حلوة لِخَدَم مكتملي الأناقة حِسَان، وفي مكان منظّم مليء بالأشياء الحسَنة الجميلة، من منظور ومسموع ومشموم وملموس ونحو ذلك. فالفكرة المرّة قد تحتاج غلافاً حلواً جميلاً يزيِّنها حتى يبتلعها مَنْ توجّه له. والفكرة الشديدة الحموضة قد تحتاج مخالطاً يعدِّل حموضتها حتى يستسيغها من توجّه له.

والفكرة القاسية بطبعها قد تحتاج أسلوباً يليِّنها ويعدِّل قساوتها.

والكفرة الخشنة بطبعها قد تحتاج أسلوباً ناعماً يغلِّفها ويهوِّن ابتلاعها.

وكما أنَّ الحسِّيّات الجسدية يحتاج كثير منها إلى ما يجمّله ويحسِّنه ويزيِّنه للنفوس حتى تستسيغه، كذلك الأفكار التي نريد تقديمها إلى الآخرين قد يحتاج كثير منها إلى ما يجمِّله ويحسِّنه ويزيِّنه للنفوس حتى تستسيغه، وهذا التجميل والتزيين والتحسين هو من عناصر الأدب الرفيع لا محالة.

ولكنْ ليس من الضروري لكلّ فكرة مقصودة بالذّات أنْ تُصنَع لها مزِّينات جماليّة لا يكون الكلام ذا أدب رفيع إلاّ بها. فكثير من الأفكار جمالُها ذاتِيّ، وإذا قُدِّمت مجرّدة

من كل الزينات والأصباغ والألوان في أحوال ملائمة لهذا التقديم كانت أرفع أدباً، وكانت النفوس أكثر تقبُّلاً واستساغةً لها، فهي تزدردها او ترتشفها بشهوة بالغة.

وهذا نظير تقديم سيِّد المائدة العظيم لضيفه العزيز قطعة مقشّرة من الفاكهة، أو قطعة منتقاة من أطيب اللحم، مجرّدة من أيَّة زينات موافقة أو مغلّفة لها. وقد يكون من رفيع الأدب تقديم الفكرة المرّة من غير تغليف ولا تحلية لتقديمها لمن يحسن إذاقته مرارتها، كأنْ يكون عدوّاً مجاهراً بعداوته مواجهاً بشتائمه، وفي بعض الحالات التربويّة نلاحظ أنّه كما يحسن الضرب يحسن ما هو نظيره من الكلام.

حول تعريف الجمال

والجمال في الوجود مع إدراك النّاس له وإحساسهم بكثير من صوره، دقيق العناصر متشابكها فهو شيء يصعب جدّاً تحديده، ويَصّعب قِياسُه، ولا تنحصر ألوانه. وبما أنّ الأدب لون من الجمال، فهو إذن تنطبق عليه قواعد الجمال العامّة. إنّ من الجمال أحياناً أنْ تتصنّع الحسناء، ومن الجمال أحياناً أنْ لا تتصنّع، بل أنْ تظهر على طبيعتها. ومن الجمال أحياناً أنْ تلبس الثياب الجميلة الساترة لكثير من مفاتن جسمها بطرائق خاصّة، ومِنَ الجمال أحياناً أنْ تلمح ببعض مفاتن جسمها إلماحاً ثمّ تسترها، ومن الجمال أحياناً أنْ تتعرى على طبيعتها من غير ابتذال ثمّ تعود إلى سواترها.

ومِنْ أبدَعِ صُوَرِ الجمال التنويع فيه والتنقّل من لون إلىٰ لون آخر منه، أمّا الثبات والتكرار للصورة الواحدة في كل الأوقات فهو مُمِلٌّ للنفوس مهما كانت هذه الصورة جميلة.

باستثناء تكرار المقاطع في بعض ألوان صُوَر الجمال، كشجرة الورد علىٰ رأس كل زاوية عند منعطف الطريق، أو علىٰ رأس كلّ مسافة، لتكون بمثابة الدلالة. وكذلك حال الأفكار وأساليب عرضها الأدبي، ومثل شجرة الورد المتكرّرة علىٰ رأس كل مسافة أو علىٰ الزوايا، آية: {فَبِأَيِّ آلاۤءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} في سورة الرحمن عروس القرآن. لكنّها صورة قدّمت لوناً من ألوان الجمال الأدبي ومثالاً من أمثلته، قلَّما يوجد في سائر القرآن نظير مطابق لها، بل فيه ألوان أخرىٰ.

ومع وجود قسم من الجمال لا يختلف اثنان في استحسانه، وقدر من القبح لا يختلف اثنان في استهجانه، فكم توجد أوساط مشتبهات تختلف فيها أذواق النّاس، وتختلف وجهات أنظارهم إليها.

فما يستحسنه بعض النَّاس منها قد لا يراه غيرهم حسناً، وما يستقبحه بعض النّاس منها قد لا يراه غيرهم قبيحاً، وتتدخّل النظرات الذاتيّة الشخصية في قسم المشتبهات بشكل واسع، ويصعب فيها تحديد النظرة الموضوعية.

ويخضع الأدب لهذا القانون العام.

فقد يُرْضِي كلام ممدوحاً مغروراً بنفسه بحبّ المديح، فيراه أدباً رفيعاً مستحسناً، لكنّه في الوقت نفسه يُسْخِط حاسداً له، فيراه تزلّفاً تافهاً، وأسلوباً في المدح سخيفاً مستهجناً، ويسمعه فريق ثالث فلا يرىٰ فيه ما يحرّك النفس بإعجاب ولا ما يحرِّك النَّفس بتقزّز واستجان.

وقد تُرْضِي تعبيرات حبٍّ معشوقة، فتراها أدباً رفيعاً مستحسناً، فتحفظها وترويها بإعجاب، لكن هذه التعبيرات قد أسخطت في الوقت نفسه أترابها، فرأينها تعبيرات سخيفةً مبتذلة. ثمّ يسمعها حياديّون فلا يرون فيها رأيَ المعشوقة المعجَبَة، ولا رأي أترابها الساخطات، بل يرون فيها أدباً عاديّاً.

وهكذا تختلف وجهات أنظار النّاس إلى هذه الأوساط المشتبهات، التي لم يتمحّص فيها الجمال، ولم يتمحّض فيها القبح، وتتدخّل عوامل نفسيّة في الاستحسان، أو في عدم الاستحسان، وربّما تتدخّل عوامل أخرىٰ تتّصل بمدىٰ القدرة علىٰ الإحساس بالجمال، أو بمَدَىٰ الخبرة بفنونه وألوانه وأشكاله ونسبته، أو بمَدَىٰ دقّة الملاحظة التي قد تَقَعُ علىٰ النّقص فتقف عنده، وتجسّمه حتىٰ يملأ الساحة، أو تَقَعُ علىٰ لمحة جماليّة فتقف عندها مُعَجْبَةً وتعظّمها، ويتدخّل الوهم في مدّها حتىٰ تملأ كل الساحة. وهكذا.

عوامل اختلاف نظرات الناس إلى الجمال

لدى تحليل العوامل التي تجعل النّاس يختلفون في نظراتهم الجماليّة إلى الأشياء اختلافاً كبيراً، حتى إنَّ الشيء الواحد قد يستحسنه فريق، وقد يستقبحه فريق آخر، ويجعله فاتراً واقفاً على الحياد فريق ثالث، والمستحسنون له قد يتفاوتون في درجة استحسانه، والمستقبحون له قد يتفاوتون في درجة استقباحه. لدى هذا التحليل نلاحظ العوامل التالية:

العامل الأول: التلاؤم أو عدم التلاؤم بين أجهزة الإِحساس في الإِنسان والأشياء التي يُدْرِكها ويُحِس بها.

والأمزجة والأذواق البشريّة تختلف في هذا اختلافاً فطريّاً لا يُنْكَر، وبسبب هذا العامل قد تختلف أحكامهم في هذا المجال.

العامل الثاني: تدخُّل أهواء أو مصالح شخصيّة مرافقة.

وبسبب هذه الأهواء أو المصالح تختلف وجهة نظر أصحابها عن وجهات أنظار الآخرين الذي ليس لهم أمثال هذه الأهواء أو المصالح.

الجمال آثروه تلقائياً على غيره، وحَكَمُوا بأنّه أحسن وأجمل، وربّما لم يكن كذلك في حقيقة الأمر.

العامل الرابع: مؤثِّرات البيئة، فقد تتواضع بيئة على استحسان لون جمالي، وربّما كان عاديّاً جدّاً و ابتدائياً من سلّم الارتقاء الجمالي، إلاّ أنّ تأثير البيئة يجعل الناشئين فيها

يقتبسون منها الأذواق الجماليّة، فيتأثّرون بأحكامها الناقصة، أو أحكامها التي لا تَنِمُّ عن ذوق رفيع، وكذلك البيئات الراقية تمنح الناشئين فيها أذواقاً رفيعة، والبيئات تتفاوت تفاوتاً كبيراً في هذا المجال.

العامل الخامس: مدى القدرة على تصيّد نقاط الجمال والإغضاء عمّا سواها، وجعله أرضية لا تثير الانتباه. وقد يكون العكس، فتكون القدرة النقدية ذاتَ إحساس مفرط تجاه تصيّد نقاط النقص أو القبح فقط، أمّا سواها فتُغضي عنه، وتجعله أرضيّة غَيْرَ مُثِيرة للانتباه.

وبسبب هذا العامل بشَطْرَيْهِ وتفاوت نسبة كل منهما في النَّاس تظهر أحكام متباينة أو متخالفة.

العامل السادس: سعة التجارب وضيقها في اكتساب ذوق الإِحساس بالجمال، وتفاوت نسبه.

فذو الخبرات الطويلة الباحثة والناقدة يكون أقدر على تذوُّق الجَمال، وإدّراك درجاته المتفاوتات، من الإِنسان العاديّ غير ذي الخبرة، أو السائر في طريق البحث والنقد، ولم تكتمل بَعْدُ لديه القدرة على تَذوُّق الفروق الجمالية.

عناصر الكمال والجمال الأدبي

لا بُدَّ أوّلاً من توافر الأركان الأساسية للكلام البليغ، وهي:

(1) مطابقته لمقتضىٰ حال المخاطب به.

(2) التزامه بقواعد اللّغة وضوابطها في مفرداتها وتراكيب جملها.

(3) خلُوّه من التعقيد اللّفظي، والتعقيد المعنوي.

وبعد توافر هذه الأركان الأساسيّة توجد عناصر كثيرة تُكْسِبُ الكلام ارتقاءً أدبيّاً وتُعْطيه جمالاً وإبداعاً، ورونقاً وحياةً، وقدرةً علىٰ التأثير والهيمنة علىٰ النفوس والأفكار والقلوب.

وبمقدار ما يُمَكِنُ أن يجتمع في الكلام من هذه العناصر، متلائمةً غير متنافرة، متوائمة غير متشاكسة، مُتَحابّة غير متباغضة، مطابقةً لمقتضىٰ حال المخاطب، يكون تسامي الكلام في سلّم الكمال الأدبي الرفيع، الّذي يحتلُّ قمّته لدىٰ التحليل المِجْهَريّ الدقيق كلام الله المعجز، ثمّ يأتي من دونه كلامُ الناس، مع المسافات الشاسعات بينه وبين قمّة كلام الناس.

وكما نقتبس عناصر الجمال والكمال من لوحات الطبيعة التي خلقها الله، فنعمل الأعمال الفنيّة الرفيعة بمحاكاة الفنون المختلفة فيها ضمن قدراتنا البشريّة، ونتتلمذ علىٰ الأمثلة الجمالية الكمالية التي تقدّمها لنا، فنكتسب منها الذوق، وفنون الصنعة الرائعة، بأشكالها وألوانها وأنغامها وملامسها وأنظمتها وحركتها وحياتها وعواطفها ولذّاتها وآلامها وذكرياتها وتحسّراتها وآمالها ومخاوفها، إلىٰ سائر الظواهر الطبيعية في كل جامد متحركٍ ونام وحيّ.

كذلك يقتبس أهل البصيرة عناصر الجمال والكمال الأدبي من اللّوحات البيانيّة البديعة المنزّلة من لَدُنْ حكيم عليم، والتي نتدبّر ما نتدبّر منها في كتاب الله المجيد على مقدار قدراتنا البشريّة.

وهذا التدبّر الواعي يحتاج إلى بصيرة نفّاذة لمّاحة، وصبر طويل، ومعالجات متكرّرات، ومعرفة بما توصّل إليه المتدبَّرون السابقون، وبحث مستمر لاستنباطات جديدة، ثم تكون أنصبه الباحثين بعد كل ذلك على مقدار مواهبهم، لا على مقدار البحر المحيط الذي يغترفون منه، ويغوصون في أعماقه، ليستخرجوا من روائعه وبدائعه.

الكلام ولفظ المعنى:

ومن الْبَدَهِيّاَت الأساسيّة أنّ الكلام ذا الدلالة اللّغوية إنّما هو لفظ ومعنى.

* أمّا اللفظ، فينحلّ إلى قسمين:

✓ مفرد.

✓ مركب.

أمّا المفرد في المنظار الأدبي، فيمكن أنْ نقسِّمه إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: اللّيّن السهل، وتتفاوت في ذوق الأديب درجات هذا القسم، فمن هُلاميّ رجراج، مثل الكلمات الخفيفة التي يستطيع الأطفال الصغار المبتدئون بالنطق أن ينطقوا بها صحيحة سليمة، وهي غالباً تتألّف من الحروف الشفويّة

والصوتية، ثم الحروف اللّثويّة والصوتيّة، مثل: "بابا – ماما – دادا – لولو" وتتدرّج النسبة ارتقاء، مع المحافظة على صفة اللّين والسهولة، ولكن بالنسبة إلى نطق الكبار العادّيين، مثل: "نَسْمَة – بَسْمَة – رَنَا – دَنَا – وَهَى – وَشَى" ومن السهل اللّين في القرآن قول الله تعالى في سورة (الرحمن): ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢﴾ الرحمن: ١ - ١٢

القسم الثاني: القويّ الجزل، وتتفاوت في ذوق الفصيح ذي الحسِّ المرهف درجات هذا القسم.

ومن أمثلة القوي الجزل المفردات التالية من سورة (الشمس): "ضُحاها – جَلاّها – يَغْشاها – طَحَاها – بِطَغْواها – إذا انْبَعَثَ أشْقَاها – فَعَقَروها – فَدَمْدَم عليهم – عُقْباها".

القسم الثالث: الحُوشِيُّ الغريب، وتتفاوت درجات هذا القسم. والحوشي الغريب ما قلّ في العرب استعماله، لثقله على الألسنة، حتى يكاد بعضه يُهمل في الاستعمال عند معظم العرب، مثل المفردات التالية:

الحَنْطَبَة: بمعنى الشجاعة.

والحَيْزَبُون، والشَّهْرَبَة: بمعنى المرأة العجوز.

طَخَا الليل: بمعنى أظلم.

تَطَشَّى المريض: بمعنى برىء.

النُّقَاخ: وهو الضرب على الرأس بشيء صلب.

الهَبَيَّخَة: وهي الجارية باللّغة الحِمْيَرِيَّة.

الهَبَيَّخُ: وهو الرجل الأحمق، والوادي العظيم، والنهر العظيم.

القُدْمُوس والقُدْمُوسَة: وهي الصخرة العظيمة.

العَقَنْقَسُ والعَفَنْقَس: هو السيِّء الخلق.

القسم الرابع: الصعب الجموح، وتتفاوت درجات هذا القسم. ومن الصعب الجموح ماهو حوشي غريب، ولكن ليس كل صعب جموح كذلك، فقد لانت في ألسنة العرب كلمات صعاب، وبقيت مستعملة دارجة بيْن أُدبائهم إلاَّ أنّها صعبة على الألسنة لها جُموح ونفور، مثل الكلمات التالية:

غَضَنْفر: من أسماء الأسد.

مُسْتَشْزِر: أي مفتول.

عَقْعَقٌ: اسم لطير.

والأديب رفيع الأدب، مرهف الحسّ في ذوق الكلمات، يختار في كلامه من القسمين الأوّلين:

* اللّين السهل.

* والقوي الجزل.

ويضع ما يختار في موضعه مراعياً حال المخاطب وما يسرُّه من المفردات، وما يلائم ذوقه، ولغة قومه.

ويحسن به أنْ يختار لبعض الموضوعات مفرداتٍ ذاتَ جَرْس موسيقي وإيقاعٍ رشيق. ويختار أيضاً من الكلمات ما يلائم المعنىٰ من لين وسهولة أو قوّة وجزالة. ويختار أيضاً من الكلمات ما هو أليق بالمناسبة، وبالموضوعات العام للكلام، وأكثر ملاءمة لهما.

ويبتعد عن الحوشي الغريب، إلاَّ في مجال التعليم، أو لنُكَتٍ أدبيّة خاصّة. ويجعل الصعب الجموح مقصوراً علىٰ مواطن خاصّة تستدعي النُكتةُ الأدبيّة اختيار بعض منها، مثل كلمة: (ضِيزَىٰ) في وصف القسمة الجائزة غير العادلة، لما لهذه الكلمة بحروفها وصيغتها من إيحاءات تلائم التشنيع علىٰ القسمة الجائرة.

والدُّعاة إلىٰ الله مطالبون بالتزام هذا المنهج الأدبي في دعوتهم.

وأمّا المركب في المنظار الأدبي: فَلَه تقسيمات من ثلاث جهات:

1- جهة السبك.

2- جهة الكثافة.

3- جهة تواصل الجمل بأدوات الربط أو تفاصلها.

أوّلاً- فمن جهة السبك:

ينقسم اللّفظ المركّب إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل: المتلائم المتناسق، المتوائم السهل حَسَنُ السّبك.

القسم الثاني: المتنافر الصعب العَسِر النطق.

القسم الثالث: سيِّىء السَّبك ضعيف الإِنشاء.

القسم الرابع: معقَّد الترابط صعب الفهم.

والأديب البليغ رفيع الذوق، ذو الحسّ المرهف، المتمرّس بصناعة القول الرفيع، يحاول أنّ يكون كلامه سليماً من أنّ يكون سيِّىء السبك، ضعيف الإِنشاء، ومن أنّ يكون معقّد الترابط صعب الفهم.

ويتحرّىٰ أنّ يكون كلامه من القسم الأوّل (المتلائم المتناسق المتوائم السهل حَسَن السبك).

ويبتعد جَهْدَ مستطاعه عمّا هو متنافرٌ صعب عَسر النطق، ويُولِي عناية للعناصر الجماليّة التالية:

(1) صياغة الجملة صياغة فنّية سَهْلَة الفهم، لا توقع فكر المخاطب بارتباك في ربط مفردات الجملة، ولا تُكَلِّفه مشقّة، حتىٰ يفهم المراد منها.

(2) رصْف الجمل رصْفاً يثير الاستحسان والإِعجاب لدىٰ المخاطب. وقد يحتاج هذا إلىٰ التفنُّن في الجُمل، ما بين متوازنات طولاً وقصراً أحياناً. وبين طويلة ومثل نصفها أو ثلثها أحياناً أخرىٰ، وبين ترك التوازن ليذهب الكلام مناسباً. وقد يحسن التكرير في بعض هذه العمليّات. ولا ضابط لَمواطن الجمال فيها إِلاَّ الحسّ المرهف الذوّاق للجمال الأدبي.

(3) وقد يَجْمُلُ بعض السجع غير المتكلَّف ولا المتصنَّع، بشرط عدم الالتزام به في كل الكلام.

(4) المحسِّنات البديعية اللّفظية التي تأتي مناسبة محبّبة غير متكلّفة ولا متصنّعة.

(5) فنون الشعر الذي له تأثير في أساليبه وموسيقاه علىٰ مشاغر كثير من النّاس.

ورجال الدّعوة إلىٰ الله مطالبون بالعناية بهذه العناصر الجمالية الأدبيّة في دعوتهم، إذا خَطبوا، أو حاضروا، أو تحدّثوا، أو كتبوا، أو نظّموا شعراً، أو ألّفوا مؤلفات علميّة، أو توجيهيّة، أو أدبيّة. وأنْ يُسَخِّروا أدبهم في خدمة الدّعوة إلىٰ الله.

ثانياً – ومن جهة الكثافة:

ينقسم الكلام إلى ثلاث مراتب، تُعرف عند علماء البلاغة بالإيجاز، والمساواة، والإِطناب، كما سيأتي بيانها إن شاء الله في علم المعاني.

ولكلّ من هذه المراتب درجات متفاوتات.

وأشرح الكثافة في بناء الكلام وأشرح مستوياتها في تحليل أدبي فكري، فأقول:

تخضع التعبيرات الكلاميّة عن المراد لِنِسَب متفاوتة من الكثافة.

فمِنَ الكلام ما هو شديد الكثافة، وقد تشتدّ فيه حتّىٰ يكون بمثابة قطعة من الصخر، لا تُعرف عناصرها حتىٰ تُكسر وتُطحن، وتُفرَّق الأجزاء عن بعضها، وتحلّل بوسائط.

وبعض متون العلم المكثّفة المختصرة هي من هذا القبيل، وقلّما يسلم التكثيف الشديد في الكلام من الإِخلال في الدلالة علىٰ المراد.

وفهم المكثّف من الكلام يحتاج إلىٰ ملكات ذهنيّة عالية، أو إلىٰ تدريب ممارسة طويلة، وتعلّم علىٰ أيدي أهل العلم.

وتخفّ الكثافة ببسط الكلام وتمديده، ويتدرّج ذلك في سلَّم كثير الدرجات، ولكنْ ليس لدينا ميزان نزن به كثافة الكلام، شبيه بميزان الكثافة الذي توزن به السوائل، فالمرجع في تحديد الكثافة أذواق العلماء والأُدباء، وملاحظة سهولة استساغة الكلام من قبل العامّة أو عدم ذلك.

وباستطاعتنا أنْ نقسِّم مستويات الكثافة في الكلام إلى ثلاث مراتب، ولكلٍّ من هذه المراتب الثلاث درجات متفاوتات.

المرتبة الأولى:

هي مرتبة الكلام الموجز المختصر. ولهذه المرتبة عدّة درجات ما بين شديد الكثافة، أي شديد الإيجاز والاختصار حتى مستوى الرمزيّة، وما بين كثافة يتحمّل الإنسان العادي فهمها ولكن بشيء من الممارسة والتدرّب والتأمّل. وعنوان هذه المرتبة عند علماء البلاغة: (الإيجاز). وتستخدم هذه المرتبة لدى اختبارات الذكاء، ولدى مخاطبة الأذكياء وكبار القوم و أمرائهم، بشرط أنْ يكون المخاطب بها قادراً على فهم المراد ولو بتأمُّل يسير، وبالنسبة إلى أحوال هؤلاء تداول الأُدباء قديماً عبارة (البلاغة الإيجاز).

وتستخدم هذه المرتبة في الخلاصات العلمية التي يعدّها طلاّب العلم للحفظ، وتَذَكُّرِ المسائل العلمية بها.

المرتبة الثانية:

هي مرتبة الكلام الذي هو متوسط البسط، وضابطه فيما أرى أن يكون لكلّ فكرة يراد الدلالة عليها لفظ يدل عليها، أو صيغة تدلُّ عليها، أو تركيب خاصٌّ يدل عليها، بشرط أن يكون المخاطب عارفاً بذلك ويفهمه دون كلٍّ ذهنيّ، ودون حاجة إلى تأمّل طويل.

وقد يبدو أنّ هذه المرتبة ليس فيها درجات متفاوتات، إلاّ أنّني أرى خلاف ذلك، فلها فيما أرى درجات، وتختلف هذه الدرجات وتتفاوت، باختلاف أحوال المخاطبين وتفاوتهم في قدراتهم على الفهم، واستيعاب دلالات الكلام، وفي معرفة دلالات الصِّيَغ والتراكيب، وفي التمرّس بمتابعة فهم المعاني من الكلام. فمتوسّط البسط من الكلام بالنسبة إلى المتبدئ ليس هو كذلك بالنسبة إلى الذي تقدّم أشواطاً في معرفة دلالات الكلام وفهمها. وكبار القرّاء لهم متوسط يناسبهم، والأذكياء لهم متوسط يناسبهم، والأطفال لهم متوسط يناسبهم.

فيدخل في تحديد نسبة التوسّط اعتبار حال المخاطب.

وعنوان هذه المرتبة عند علماء البلاغة (المساواة) ولكن ربّما كان تحديدي لها يختلف مع تحديد علماء البلاغة.

ويحسن استخدام هذه المرتبة في معظم الأحوال، ولا سيّما لدى كتابة صكوك العقود والمعاهدات، وكتابة المواد القانونيّة، وكتابة متون العلوم، والتعريف بالمبادئ في نصوص معدّة للحفظ والتداول بين النّاس، ومن ذلك كثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، مثل قوله:

"اجتنبوا السبع الموبقات".

قالوا: يا رسول الله وما هنّ؟.

قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النّفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقَذْف المُحْصنات المؤمنات الغافلات". رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة

المرتبة الثالثة:

هي مرتبة الكلام المبسوط، والكلام المبسوط هو ما لو حذف منه شيءٌ بالنسبة إلى حال المخاطب به لفهم المراد فهماً تامّاً، دون كدٍّ ذهني، ولا تأمّل طويل، ولَمَا حدث لديه أيّ ارتباك فكريّ أو غموض، ولَمَا نقص لديه من الفهم شيءٌ. والكلام المبسوط له حدود دنيا، يمثّلها ما زاد على نسبة التوسّط ولو قليلاً، ثم تزداد درجات البسط كلّما زاد بسط الكلام، ولا حدّ لأكثرها، وباستطاعة الثّرثار أنْ يَمُدَّ كلاماً تكفي صفحة واحدة لفهم المراد منه فهماً كاملاً تامّاً، دون إرباك ولا كدّ للذهن ولا تأمّل طويل، فيؤلّفَ كتاباً من مئات الصفحات ثم لا يخرج قارئها بأكثر ممّا فهمه قارئ الصفحة الواحدة، ونلاحظ أمثلة كثيرة لهذه الثرثرات في كُتب الشيوعيّين، وكُتب الّذين نَسَجُوا على منوالهم، و الغرض من الثرثرة تغطية عيوب المضامين الفكريّة، والإيهام والتعمية على الغوغائيين من المراهقين والمراهقات في أعمارهم أو في أفكارهم، ولا سيّما إذا اقترنت هذه الثرثرات بعبارات غامضات ومصطلحات تُوهِمُ أنّ وراءها فلسفة وعلماً عظيماً.

وعنوان هذه المرتبة عند علماء البلاغة: (الإِطناب). إذا كانت الزيادة في الألفاظ ذات فائدة، وإلاّ كانت الزيادة من قبيل الإسهاب والتطويل.

وقد يحسن استخدام ما يدخل في هذه المرتبة من الكلام في دروس التعليم، وفي مجالس الوعظ العامّة، وفي الخطب التي تُلقىٰ علىٰ جماهير، وفي بعض مجالس المؤانسة والمحادثة، وفي إلقاء القصص أو كتابتها، ولكنْ يشترط في ذلك أنّ لا يصل المتكلّم بالمخاطبين أو بالقرّاء إلىٰ مستوىٰ السأم و المَلَل، فبعد السأم والملل يكون الضجر، ثم النفور، وعندئذٍ يثمر الكلام عكس المقصود منه، ويشترط أيضاً أنّ يكون بسط الكلام عن طريق الاستطرادات الخارجة عن أصل موضوع الكلام، ومعلوم أنّ الاستطرادات تجرّها أدنىٰ مناسبة.

ومن جهة تواصل الجُمل بأدوات الربط وتفاصلها:

فقد حرّر علماء ضوابط ذلك في مبحث "الفصل والوصل" كما سيأتي بيانه في علم المعاني إن شاء الله تحريراً كاملاً فيما أرىٰ الآن، إلاّ أنّ ضوابطهم تحتاج إلىٰ تطبيقات واسعات علىٰ الأمثلة، لتدريب المهتمّين بفنون الأدب وصناعة الكلام. فعلىٰ رجال الدّعوة إلىٰ الله أنّ يكونوا علىٰ بصيرة بمحاسن الفصل والوصل بيْن الجمل في الكلام، حتّىٰ يكون كلامهم أرفع أدباً، وأعظم تأثيراً. وأعظم معلِّم لمحاسن الفصل والوصل بيْن الجمل كِتاب الله ثم أقوال الرسول صلىٰ الله عليه وسلم.

وأمّا المعنىٰ فالنظر إليه يكون من جهات ثلاث:

الجهة الأولىٰ: جهة كوْن المعنىٰ له لفظ لغوي موضوع أو مستعمل في عُرْف النّاس أو في مصطلحاتهم للدّلالة عليه، أو ليس له لفظ يدلّ عليه.

الجهة الثانية: جهة الدّلالة على المعنى عن طريق الأسلوب الكلامي المباشر، أو عن طريق الأسلوب الكلام غير المباشر.

الجهة الثالثة: جهة المعاني أنفسها وقيمها الفكريّة والجماليّة.

والبحث العلمي الشامل المتّزن يأخذ بأيدينا إلى النّظر الثاقب في المعاني من هذه الجهات الثلاث.

وبنظرة عَجّلى وبحث أوّليّ متواضع أعقد لكل جهة من هذه الجهات الثلاث مقولة خاصّة بها.

اوّلاً – مقولة الجهة الأولى حول المعنى:

وهي كون المعنى له لفظ يدلّ عليه أو ليس له لفظ يدلّ عليه.

إنّ المعاني التي يمكن أنْ يحيط بها علم الإنسان، أو يصل إليها إدراكُه الذهني، أو تخيُّلاته، تنقسم إلى قسيمن:

القسم الأول: هي المعاني التي لها ألفاظ لغويّة تدلّ عليها.

القسم الثاني: هي المعاني التي ليس لها ألفاظ لغويّة تدلّ عليها.

- ✓ مثل بعض الوجدانيّات والمشاعر النفسيّة التي لا يجد الشاعر بها ألفاظاً تدلّ عليها.
- ✓ ومثل بعض المركبات التخيّلية التي ليس لها أمثلة في الواقع.

✓ ومثل الغيبيّات التي لم يصل إلى حسّ النّاس أيّة صفة من صفاتها، ولكنْ أدركوا بعض آثارها، كالجاذبيّة قبل أنْ يتنبّه العلماء إليها ويضعوا لها اسماً.

✓ ومثل كثير من عناصر الأرض ونباتها وحشراتها وأجزاء الأجسام المركّبة التي لم يحدّد النّاس بَعْدُ أسماءَ لها.

✓ ومثل كثير من الطعوم والروائح التي لا تُحْصَر فروعها، وإنْ عرفت أصولها، وكذلك الأصوات وما بينها من فروق وما لأصول أنغامها من فروع.

✓ ومثل كثير من الأعمال ذات الحركات المركّبة المتداخلة التي صار النّاس يشاهدونها بعد اختراع الآلات واكتشاف الطاقات.

وكلّنا نلاحظ أنّه كلّما وضح في أذهان النّاس معنىً من هذه المعاني، وصاروا بحاجة إلى تداوله والتعبير عنه بدأوا يضعون لفظاً منقولاً أو مرتجلاً يدلّ عليه، ومع تداول هذا اللّفظ مشيراً إلى المعنى الذي وُضِع له يغدو رمزاً معروفاً، فكُلما ذُكِرَ اللّفظ ربط به الذّهن معناه، مستخرجاً له من خزائن المعاني عنده، ووضعه في ساحة التصوّر الحاضر.

وتعجُّ كتب العلوم بالألفاظ المستحدثَة التي هي من هذا القبيل، وتُعْرَف بالمصطلحات العلميّة.

وتتزايد في تداول النّاس ضمن لغاتهم الدّارِجات ألفاظ تدلُّ على معانٍ لم يكنْ لها من قبل ألفاظ تدلُّ عليها، لأنَّ هذه المعاني لم تكن موضوعة من قبل موضع التداول العام، إذْ لم تكنْ الحاجة ماسّة إلى تداولها بين النّاس.

وفي المقابل تموت ألفاظ دالّة على معانٍ لأنّ هذه المعاني لم تعد الحاجة ماسّة إلى تداولها، كأسماء بعض الأدوات التي أهمل النّاس استعمالها.

ومِنَ المُلاحظ أنَّ اللّغات يسرق بعضها من بعض مَعَانِيَ وألفاظاً فتغدو متداولة في غير مواطنها الأصليّة بعدَ أنْ لم تكنْ كذلك.

وكثيراتٌ ما يحتال الإنسان ليدلّ الآخرين على معنى لا يجد له في اللّغة لفظاً يدلّ عليه دلالة واضحة، إذْ يَلْحَظُ شبهاً قويّاً أو ضعيفاً بينه وبين شيء ممّا له في اللّغة لفظ يدلُّ عليه، فيستخدم اللّفظ الدالَّ على هذا الشبيه فيضرب مثلاً منه، وإذا كان هذا المعنى الشبيه قابلاً للتعميم، ثم التجريد من الحدود الحسّية إذا كان من الحسّيّات، فإنَّ الإنسان يلجأ عادة إلى التعميم بملكة التعبير اللّغويّة الموجودة في فطرته المكتسبة من مجتمعه، وعندئذٍ ينقل اللّفظ الموضوع أساساً في عرف النّاس للمعنى الحسِّي، ويعمِّمه ثمّ يجرِّده من الحدود الحسِّيّة.

لقد كان الباب لفظاً دالاً في الحسِّيَّات على المدخل المخصّص وسط حاجز أو سُور، والذي يمكن فتحه وإغلاقه عند الحاجة، فيدخل منه الإنسان هو وأشياؤه إلى دار أو بستان أو مدينة أو مغارة أو نحو ذلك، أو يخرج منه...

ثمّ لاحظ النّاس أنّ هذا المعنىٰ إذا عُمِّم وجُرِّد من الحدود التي عرفوها عند الإطلاق الأوّل كان لفظ الباب قابلاً لأنّ يدلَّ علىٰ المنفذ الذي يدخل منه الطائر إلىٰ عشِّه ويخرج منه، والّذي يدخل منه الحيوان إلىٰ جُحْرِه ويخرج منه، وعلىٰ الثَّقب الذي تدخل منه النحلة إلىٰ خليَّتها وتخرج منه.

ثم اتّسع التعميم فصار قابلاً لأنّ يدلَّ علىٰ حَواجِزَ في السحاب تحجز الأمطار عن الهطول، وربّما تكون هذه الحواجز طاقات ذاتَ أنظمة خاصّة، فإذا حُرِّكت هذه الحواجز تحريكاً يسمح بهطول الأمطار هطلت الأمطار. ومنه التعبير القرآني في سورة (القمر) ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ القمر: ١١

ثم انتقل الذهن من التعميم إلىٰ التجريد، فصار للرزق أبواب وهي أبواب معنويّة، وصار للعلم أبواب وهي أبواب معنويّة، ومن ذلك التعبير القرآني في سورة (الأنعام):

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ الأنعام: ٤٤

مُبْلِسون: أيّ يائِسون مبهوتون متحيّرون ساكتون قد انقطعت حجّتهم وهيمن عليهم الخِزْي والندم.

ونظير الباب المفتاح والمفاتيح، ومن التعميم والتجريد مفاتيح الرزق، ومفاتيح العلم، ومقاليد السماوات والأرض، قال الله تعالىٰ في سورة (الشورىٰ):

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ الشورى: ١٢

أيْ له مفاتيح السماوات والأرض.

ومِنْ احتيال الإنسان للدّلالة على مشاهر شوقه العنيف إلى محبوبة تشبيهه هذه المشاعر بالنّار التي تلذع بحرارتها وتؤلم، وتجفّف رطوبة الجوانح، وتَدَاوَلَ العشّاق والشعراء هذا التعبير

مقولة الجهة الثانية حول المعنى:

وهي جهة الدلالة على المعنى بالأسلوب المباشر أو غير المباشر.

المعنى:

(أ) إمّا أنْ ندلّ عليه في الكلام بالأسلوب المباشر السافر.

(ب) وإمّا أن ندلّ عليه في الكلام بالأسلوب الملامس بساتر.

(ج) وإمّا أنْ ندلّ عليه في الكلام بالأسلوب غير المباشر.

فالأسلوب المباشر السافر:

هو الأسلوب الذي تكون الدلالة فيه على المعنى المراد:

* باللّفظ الموضوع له لغة، وهو ما يسمّىٰ (حقيقة لغويّة).

* أو باللّفظ الدّال عليه في الاستعمال العامّ الدارج وهو ما يسمّىٰ (حقيقة في العرف العام).

* أو باللّفظ الدّال عليه عند أهل علم من العلوم، أو فنّ من الفنون، أو في الاصطلاح الشرعي، وهو ما يسمّىٰ (حقيقة في الاصطلاح الخاص).

والأسلوب المباشر السافر في الكلام قد يكون في كثير من الأحوال هو الأسلوب الأوقع والأكثر تأثيراً، أو الأنفع والأجدىٰ، أو الأكثر ضبطاً. والأصل في الكلام هو الأسلوب المباشر السافر، وله النّسبة الأكبر من كلّ الكلام. ومن الأحوال التي يكون فيها الأسلوب المباشر السافر أوقع وأكثر تأثيراً، أو أنفع وأجدىٰ، أو أكثر ضبطاً، الأحوال التالية:

1) خطاب الذين يصعب عليهم الفهم بأسلوب غيره، كالصغار وضعفاء التكفير.

2) حينما يكون المخاطب في حالة انفعالية أفقدته الهدوء والصّفاء الفكري، فالإِنسان في مثل هذه الحالة لا يروق له إلاَّ الكلام الذي يدلّ علىٰ المقصود بطريقة مباشرة.

3) لدىٰ بيان الحقائق الكبرىٰ العقديّة، كالكلام الذي يحدّد قضايا الإيمان، فهذه يجب فيها التصريح المباشر السافر، مثل: لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله. آمنت بالله وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِه واليوم الآخر.

4) لدىٰ بيان المبادئ التي تعلنها الشعارات، فهذه ينبغي فيها التصريح الذي يدلّ علىٰ المعاني دلالة مباشرة سافرة.

5) لدىٰ كتابة نصوص التشريع أو التقنين، فالأدب الرفيع فيها هو التعبير بالأسلوب المباشر السافر، لئلاً يكون في الأفكار احتمالات تسمح بصرف الكلام عن دلالاته المقصودة.

6) لدىٰ التعبير عن الأحكام القضائيّة، فالنّصوص ذات الدلالة المباشرة السافرة فيها هي أكمل الأدب وأحكامه، عملاً بما توجبه مقتضيات هذه الأحكام.

7) في معظم مواقف الدعاء لله تعالىٰ، فالتعبير المباشر السافر الموجز فيها كثيراً ما يكون هو الأدب الأرفع، مثل: ربّ اغفر لي، وارحمني، واهدني، وسدِّدني، وعافني، وارزقني حلالاً طيِّباً مباركاً فيه.

8) في كثير من صور التعليم المنهجي.

9) في ذروات التعبيرات العاطفية، فالتعبير المباشر السافر فيها عند التصافي وانعدام الرقباء هو من أرقىٰ الأدب وأرفعه. إنّه قد يكون أوقع عند وصول الحبيبين إلىٰ التكاشف الصريح أنّ يقول كلُّ منهما لحبيبه: أنِّي أحبُّك، أو يا حبيبي.

والأسلوب الملامس بساتر:

هو الأسلوب الذي يُستخدم فيه للدلالة على المعنى المراد طريق التشبيه والتمثيل، أو الاستعارة، أو المجاز المرسل، أو المجاز العقلي إذا قلنا به.

فحين نقول: "وجهه كالقمر" فإنّ السامع أو القارئ يلمس أنّ المراد وصفه بأنّه جميل، ولكنّ حِسَّ اللّمس يقع على ساتر التشبيه بالقمر، ولا يباشر الملموس المراد، وإنّما يباشر الساتر، فبين اللّامس والملموس فاصل الساتر، وهو هنا التشبيه.

ويتكاثف الساتر في التشبيه البليغ.

ويزداد الساتر كثافة في الاستعارة التصريحية.

ويزداد الساتر كثافة أخرى في الاستعارة المكنية.

مثلاً: حين نقول للولد: كنْ مع والديك كفرخ الطّير الذي يخفض جناحيه تذلُّلاً تحت صدر أمّه أو جناحها. فإنَّ الولد يلمس أنّ المراد مطالبته بأنّ يتواضع لوالديه كتواضع الذليل ذي الحاجة إلى الأمن والدفء والرزق، ولكن يلمس هذه المعاني فاصل ساتر التشبيه.

فإذا حذفْنا أداة التشبيه، وجعلناه تشبيهاً بليغاً، لَمس المراد نفسه، إلاَّ أنّه شعر قليلاً بزيادة كثافة الفاصل.

ثمّ إذا قُلنا له كما جاء في القرآن في سورة (الإسراء):

{وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} على طريقة الاستعارة المكنيّة، فإنّه يلمس المراد نفسه أيضاً، كلنّه يشعر بأنّ كثافة الفاصل قد زادت من جهة، وازدانت بحلاوة ملامس خاصّة بها، مع جسّ المراد من ورائها.

ونلاحظ نظير ذلك في المجاز المرسل، وفي المجاز العقليّ إذا قلنا به.

فقول الله تعالى في سورة (البقرة):

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ البقرة: ١٩

هو من المجاز المُرسل بإطلاق الكلّ وإرادة البعض، ونحن حين نسمع هذا القول، ويسرع إلى تصوّرنا أنّ الإصبع كلّها لا تدخل عادة في الأُذن، إنّما الذي يدخل منها رأس الأنملة فقط، نعلم أنَّ المراد أنّهم يجعلون رؤوس أناملهم في آذانهم، ولكنّ لَمَسْنا ذلك من وراء فاصل، وهو هنا ساتر المجاز المرسل.

ومع لمسِ المراد من وراء الساتر أحسّنا بزينة خاصّة في هذا الساتر نفسه، وبفكره مضافة، وهي أنّهم يبالغون بضغط أصابعهم على آذانهم، فلو كان الواقع يسمح بدخولها كلّها في آذانهم لفعلوا من شدّة ذعرهم وحذرهم، وهذا معنى بديع يضفي على الكلام زينة حلوة.

وقول الله تعالى في سورة (الرعد):

{فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...}.

أسند فيه السيلان إلى الأودية، مع أنَّ السيلان للماء فيها، ولكنّنا حين نقرأ أو نسمع هذا الكلام نلمَس المقصود به من وراء فاصل وهو ساتر المجاز، إذْ أُسنِد السيلان للمحلّ، وهو هنا الأودية، ومع لَمْس المراد من رواء الساتر نحسّ بزينة خاصّة في هذا الساتر، وبفكرة مضافة، وهي أنّ النّاظر إلى تدفّق الماء في الأودية، وتدافع أمواجه، يتوهّم في لحظات الانبهار أنّ الأودية تجري أيضاً مع الماء، وهذا معنى بديع يضفي على الكلام زينة حلوة، ويصوّر حالة التخيّل التي تعتري الناظرين المندهشين. إنّ هذا الأسلوب الذي هو وسط بين الأسلوب المباشر السافر، والأسلوب غير المباشر، أسلوب يتّسع لإضافة زينات أدبيّة كثيرة، تضفي على الكلام جمالاً، ورَوْنقاً وبهاءً، مع ما في هذه الزينات من أفكار ودلالات يمكن إضافتها، ومن تصوير فنّيّ بديع يمكن أنْ يقدّمه الأديب البارع عن طريقها.

الأسلوب غير المباشر:

والأسلوب غير المباشر يكون بالتعبير عن فكرة لتفهم معها فكرة أخرى، عن طريق اللّوازم العقلية القريبة، أو متوسّطة القرب، أو البعيدة، أو شديدة البعد.

وهذه الفكرة الأخرى إنّما يريد المتكلّم الإشارة إليها من طرف خفي، ولا يريد التعبير عنها بأسلوب مباشر، لغرض بياني أو غرض تربوي، أو أي غرض آخر يقصده البلغاء.

فمع ما في هذا الأسلوب من دلالة على ذكاء من يستعمله، ومع ما فيه من مجال واسع لتفنّن أدبي لا حصر له من قِبَل نوابغ الأدباء، وعباقرة البلغاء والشعراء، فهو مجال لتحقيق أغراض كثيرة، منها الأغراض التالية:

(١) عدم مواجهة المخاطبين بما يراد إعلامهم به لدواع تربوية، أو لدواع نفسية، كعدم المواجهة بالتكليف، وعدم المواجهة بالنّقد، وعدم المواجهة بالعتاب، وعدم المواجهة بالتلويم، وغير ذلك.

(2) إرضاء نفس من يخاطب به، إذ يشعر بأنّه محترم مقدّر مِنْ قِبَل من يخاطبه، فهو في نظره من مستوى الأذكياء وكبراء القوم الذي يخاطبون بإشارات الكلام وكناياته، ولا يحتاجون إلى صريح القول.

(3) إخفاء المراد على جمهور المستمعين، وإشعار المخاطب وحده بالرمز، لأغراض سياسيّة، أو عسكريّة أو تربويّة، أو نحوها.

كما وقع في غزوة الخندق، إذ بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ بني قريظة نقضوا عهدهم، فأرسل وفداً من الأنصار فيه سيِّدا الأوس والخزرج إلى كعب بن أسد القرظي سيِّد يهود بني قريضة ليستطلعوا الخبر، وقال لهم: انطلقوا حتّى تنظروا، أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أمْ لا؟ فإنْ كان حقاً فالْحَنُوا لي لَحْناً أعرفه، ولا تفتُّوا في أعضاد القوم (أي: تكلّموا بالرمز ولا تتكلّموا بصريح القول).

وكذلك فعلوا لمّا علموا أنَّ بني قريضة قد نقضوا عهدهم حقاً. إنَّهم لمّا عادوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، سلَّموا عليه، ثمّ قالوا له: عَضَلٌ والْقَارَة. ففَهِم الرسول المراد، وعلم أنّ القوم قد غدروا كما غدرت عَضَلٌ والْقَارة بأصحاب الرجيع.

(4) التوصّل عن طريق اللّوازم العقلية إلى معان قد لايكن لها ألفاظ تدلّ عليها دلالة مباشرة،

(5) تزيين الكلام ليكن أكثر تأثيراً في نفوس المخاطبين.

(6) وقد يكون الأسلوب غير المباشر مقرِّباً للفكرة الغامضة، أو مقدِّماً لها مقترنة بحُجَّتِها المُقْنعة بها.

(7) إمكان التهرّب من إرادة المعنى عند الإِحراج، وذلك إذا كانت إرادته تسوء المخاطب به، أو تسوء غيره من أنداده أو حسّاده أو غيرهم.

(8) ومِنْ أمثلة ذلك مَنْ يُشير بطَرْف خفيّ إلى حبِّه، أو يلمِّح إلماحاً خفيّاً، لأنَّ أمامه رُقباء من الأنداد أو الحُسّاد، أو مَنْ لا يَرْضَى بهذه العلاقة غَيْرةً أو نَخْوة أو مخافة العار، والمتكلِّم لا يريد إثارة هؤلاء نحوه لئلاّ يَكِيدُوه.

(9) وفي كثير من الأحوال يكون خطاب النّاس بالأساليب غير المباشرة هو الأجدى، لأنَّه أوقع في نفوسهم، وأكثر إرضاءً لغرورهم، أو أوفق لظروف أحْوالهم.

ولكن لا يصحّ أنْ يكون كلّ الكلام جارياً وفق الأسلوب غير المباشر، فالأصل في الكلام هو الأسلوب المباشر، وهو بمثابة الخبز الذي تؤكل معه ألوان الأطعمة، إنّ الأسلوب غير المباشر ينبغي أنْ لا يزيد في الكلام كثيراً حتىٰ لا يفقد الكلام قواعده وأركانه الأساسيّة.

إنَّ الأسلوب غير المباشر ينبغي أن يكون في غضون الكلام الجاري علىٰ الأسلوب المباشر، وبمقدار الأغراض البلاغيّة، وبمقدار الحِلّيات التي تتزيَّن بها الحِسان عادة.

وينبغي أيضاً أن يكون الكلام متنوعاً، لا ملازماً لوناً واحداً من ألوان الأساليب غير المباشرة.

إنَّ أبدع الكلام وأحلاه ما كان متنوعاً كثير الألوان، غير مقتصر علىٰ نَمَطٍ واحد. ومع ذلك فليس هذا في كل مائدة كلاميّة. إنّه قد تجمل في بعض الأحيان وفي بعض المناسبات مائدة كلاميّة من لون واحد من الكلام فقط.

إنَّ طبائع النفوس عجيبة، وينبغي أنْ يكون ميزان الأديب تُجاهها شديد الحساسية، يتتبعها بالمؤثّرات الآنية عليها.

ويُعرف الأسلوب غير المباشر عند علماء البلاغة باسم (الكناية) ويدخل فيه ما يعرف عند علماء أصول الفقه باسم (المفهوم) أو باسم (الفحوىٰ) فيقولون: "منطوق اللّفظ ومفهومه" سواء أكان المفهوم موافقاً أم مخالفاً. ويقولون: "فحوىٰ الكلام" وهو عندهم كالمفهوم المقابل للمنطوق.

والمعنى المدلول عليه بهذا الأسلوب غير المباشر:

إمّا أنْ يكون معنىً قريب التناول لا يحتاج إلى متابعة لوازم عقليّة متعدِّدة مثل قولنا للدّلالة على طول إنسان: "لا يدخل الأبواب إلاَّ وهو يخفض رأسه أو يتقاصر بجسمه".

ويمكن أنْ نمثِّل له بقوله الله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ البقرة: ١٩٥ أيّ: ويثيبهم ويدخلهم جنّات النعيم. لأنَّ من أحبّه الله أكرمه وأدخله في رحمته، فهذه من لوازم المحبّة. ونظيره في القرآن كثير.

ويدخل فيه مثل قوله الله تعالى في سورة (الإِسراء) في بيان واجبات برِّ الوالدين:

{فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا...} [الآية:23].

أي: ولا تفعل أيضاً ما هو أشدّ!، وهذا يفهم بداهة لأنّ من نُهِيَ عن القبيح الأخفّ فهو منهي عن القبيح الشديد والأشدّ لزوماً عقليّاً.

وإمّا أنْ يكون معنًى متوسّط البعد، يدركه الذهن دون تأمّل عميق، وينتقل مع لوازم منطوق اللّفظ إليه بغير مشقّة فكريّة.

مثل الكناية عن كَثْرة إطعام الضيفان عند البدو، أنْ يقول قائلهم فلان: "كثير الرَّماد" أيّ: مضياف جَوَاد. لأنَّ كَثرة الرّماد عندهم مِنْ كَثرة إيقاد النَّار، وكثرة إيقاد

النَّار مِنْ كَثرة الطبخ عليها، وكَثْرة الطبخ تدلُّ علىٰ كَثْرة الضيوف بحسب العادة.

(ج) وإمَّا يكون معنًىٰ بعيداً، بسبب كَثْرة لوامه العقلية، أو بسبب أنَّ هذه اللَّوازم تحتاج إلىٰ تعمّق في التفكير حتّىٰ يدركها الذّهن، وغالباً لا يدركها إلاَّ الأذكياء والعلماء.

ونُمثِّل لهذا بقول إبراهيم عليه السلام حين رفض عبادة الأصنام وكلّ ما في الأرض، وبدأ يبحث عن ربِّه في السماء. كما جاء في سورة الأنعام:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ الأنعام: ٧٦.

أيّ: إنَّ غياب الكوكب ظاهرة حدوث، وصفه الحدوث لا تكون من صفات الرَّب الخالق، فالكوكب لا يصلح لأنْ يكون ربّاً، فأنا لا أحب عبادة الآفلين الذين ليس أحد منهم يصلح لأنْ يكون ربّاً خالقاً، إنَّما أحبَّ عبادة ربِّي الحقّ. فجملة {لا أُحِبُّ الآفِلِينَ} في معرض البحث عن الربِّ الخالق، تستدعي لدىٰ أهل الفكر والنظر وأذكياء التأمّل كل هذه اللّوازم.

وإمَّا أنْ يكون معنَىٰ يُلمح لمحاً، أو يشم شمّاً، ويتطلّب إدراكه حِسّاً مُرْهَفاً، وممارسة لإِدراك مشاعر النفوس من وراء تعبيرات اللّسان.

وقد لا تظهر لوازم فكريّة تدلُّ عليه، بل قد تكون الإشارة إليه من قرائن الأحوال، أَوْ مِنَ التصريح بشيء وعدم التصريح بقرينه أو مُقَابِله، مع وجود الدواعي لهذا التصريح.

ويعمل الذّكاء وقوّة الحَدْس في هذا المجال لاكتشاف ما يختلج في النفوس من معانٍ لم يُفْصِحْ عنها اللّسان، لسببٍ مِنَ الأسباب، كالاستحياء، أو الكِبَر، أَوْ العِفَّة، أو الخَوْف، أو غير ذلك.

ونستطيع أنْ نمثِّل لهذا القسم بالأمثلة التالية:

(1) قول موسى عليه السلام بعد أن سقى لابنتي الشيخ الصالح عند ماء مدين ثم تولّى إلى الظّل، كما جاء في سورة (القصص):

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ القصص: ٢٤

فهو في هذا يشير باستحياء إلى حاجته إلى الزوجة إشارة خفيَّة لا تُعْرف إلاّ من قرينة الحال.

قَوْل أيُّوب عليه السلام بعد أنْ طال به المرض ثمانيةَ عشر عاماً: يا ربِّ إنِّي مسَّني الشيطانُ بنُصبٍ وعذاب.، قال تعالى مبيِّناً دعاءه في سورة (ص):

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾
ص: ٤١

بنُصْب وعذاب: أيّ بتعب وبلاء ومؤلمات جسديّة ونفسيّة، فهو في دعائه هذا يشير باستحياء إشارة خفيّة إلى طلب الشفاء، معلّلاً ذلك بأثر وساوس الشيطان في نفسه من جراء طول المرض، فهذه الوساوس قد زادت متاعب جسده وآلامه وعذّبت نفسه.

قوْل امرأة عمران حين وضعت جنينها الذي كانت قد نذرتْهُ محرَّراً لبيت المقدِس، وكانت تنتظر أنْ يكون ذكراً، فجاء أنثى وأسمتْها مريم، قالت كما جاء في سورة (آل عمران):

{رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ}. وقالت: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ...} [الآية 36]. فهي تشير بقرينة الحال إلى مشاعر التحسُّر التي تشغل قلبها ساعتئذٍ.

قولُ ذي النّون عليه السلام وهو في بطن الحوت لربّه، كما جاء في سورة (الأنبياء):

{لاَّ اله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87)}.

فالقول توحيد وتسبيح واعتراف بالذنب، إلاَّ أنَّه يشير باستحياء شديد من طرف خفِيّ إلى طلب النجاة.

الخلاصة:

فالمعاني:

✓ إمَّا أنْ تُسْتَفَاد مِنْ دلالة الكلام المباشرة السافرة.

✓ وإمَّا أنْ تُسْتَفَاد من دلالة الكلام الملامسة بِسائر.

✓ وإمَّا أنْ تُسْتَفَاد مِنْ دلالة الكلام غير المباشر، ويكون ذلك في حدود ظِلال الكلام.

ولهذه الحالة ثلاثة مراتب: قريبة، متوسّطة، وبعيدة، ولكلّ من هذه المراتب الثلاث درجات متفاوتات.

ويلحق بالأسلوب غير المباشر أنْ تُستفاد المعاني من قرائن الأحوال، ومن الإِشارات الخفيَّة الضمنيّة.

وهذه المعاني يُتَوصَّل إلى إدراكها بالذكاء والتفرّس والحَدْس، ومعرفة القرائن والملابسات.

فهي تُتصيَّد ممّا وراء ظلال الكلام، والإِلماح إلى هذه المعاني ذو نِسَب متفاوتة في الظهور والخَفَاء.

وعلى الدُّعاة إلى الله أنْ يكونوا على بصيرة بفنون دلالات الكلام على المعاني، وأنْ يتمرّسوا بألوان التعبير البليغ ويُدَرِّبوا أنفسهم على تذوُّق آداب القول، وعلى معرفة أحوال التلاؤم بين أُسلوب الكلام ومُقتضى حال المخاطب به، حتّى يكون كلامُهُمْ أكثر تأثيراً، وتكون متأسّية بمنهج القرآن في الدّعوة، ومنهج أنبياء الله ورُسُلِه في دعَواتِهم إلى سبيل ربِّهم.

مقولة الجهة الثالثة حول المعنى:

وهي جهة المعاني أنفُسِها وقِيَمها الفكرية والجماليّة.

(أ) إنَّ المعانيَ أنْفُسَها في أذهان النّاس ومقولاتهم تنقسم إلى أقسام خمسة:

(1) فمنها ما هو حقٌّ بلا ريب.

(2) ومنها ما هو باطل بلا ريب.

(3) ومنا ما يترجّح في الظن أنّه حق، وتختلف نسبة الرّجحان.

(4) ومنها ما يترجّح في الظن أنّه باطل وتختلف نسبة الرّجحان.

(5) ومنها ما هو واقف في المنطقة المتوسّطة تماماً، وهي الأمور التي تكافأت قوتا النفي والإِثبات بالنّسبة إليها، فلا راجحة إلى جانب الحقّ، ولا هي راجحة إلى جانب الباطل، وهذه الحالة الذهْنِيَّة بالنّسبة إلى الأمور التي هي منْ هذا القبيل، يُطلِق عليها علماؤنا كلمة (الشّك) في اصطلاحهم، لكنّ كلمة الشّك في التعبير القرآني تعني غير هذا: {أَفِي اللهِ شَكٌّ} أيْ: أفي إثبات وجود الله أيّ احتمال مهما كان ضعيفاً يُفْتَرَضُ معه أنْ لا يكون للكون ربٌّ خالق فاطر؟ إنّ هذا مرفوض بداهة.

(ب) وإنّ المعاني أنْفُسها تختلف بالنّسبة إلى أَفْهَام النّاس بُعْداً وقُرْباً.

*** فمنها ما هو قريب منْ مدارك النّاس، سَهْلُ المأخذ، سَهْلُ الفهم.**

* ومنها ما هو بعيد نسبياً لا تتوصل إليه أفهام الناس ومداركهم إلاَّ بالتأمّل ودقّة الملاحظة، أو بقسط من البحث.

* ومنها ما هو عميق بعيد الغَوْر لا يصل إليه إلاَّ الأذكياء والنُّبهاء والعباقرة، أوْ الباحِثون المنقِّبون.

* ومنها ما لا تستطيع مدارك النّاس الوصول إليه أو الإِحاطة به، وقد أصبحت الآلات الإِلكترونية تقدِّم للعقول نتائج لا تستطيع العقول بأَنْفُسِها التوصّل إليها. وهنالك في الغيب علوم لم يُؤْتَ النّاسُ وسائل الوصول إليها، نبّهت على بعضها الوسائل الحديثة، ودلَّ على بحورها العميقة. قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإِسراء)

{وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (85)}.

ودلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان): ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ لقمان: ٢٧.

إنَّ المعاني كبحور عظيمة لها سطوح وشواطىء، وتحت السطوح أعماق، وتحت الأعماق أعماق أخرى، وتحت الأعمال أغوار، وتحت الأغوار أغوار سحيقة. ومِنَ النّاس مَنْ يأخُذ من المعاني ما يصل إلى الشواطىء، ومنَ النّاس منْ يركب بحار المعاني ويجري على سطوحها، ويتناول منَ السطوح أو منَ العمّقِ القريب. ومنَ النّاس منْ يغوص إلى بعض الأعماق، ومنَ النّاس منْ يغوصُ إلى بعض الأغوار،

ويتفاوت النّاس في نِسَب غوصهم، وكل منهم يستخرج منّ بحار المعاني على مقدار غوصه، وعلى مقدار استيعابه.

عناصر الجمال في المعاني:

أمّا عناصر الجمال في المعاني فمتوِّعة، منها العناصر التالية:

العنصر الأوّل: تناسُق الأفكار وترابطها بوشائجها المنطقيّة دون إعنات للفكر، ثمّ تكاملها ولو مع طيّ بعض العناصر التي يمكن أنْ تفهم ذهناً، ولا يشترط التعبير عن وشائج الترابط، بل ربّما يكون طيّ ذلك أحلى وأكثر جمالاً أدبيّاً. العنصر الثاني: الانتقال من الجذور والأصول في الأفكار إلى الفروع الكبرى فالصغرى فالأوراق والثّمار. أوْ مِنَ الفروع إلى الأصول. أمّا الخلط من غير ترابط منطقي فهو قبيح تنفر منه الأذهان، لأنّها لا تستطيع أن تُجريه في جداولها المنطقيّة الفطرية، ولأنّه يتنافى مع أُسلوب الطبيعة المنظَّمة بأبدع نظام.

العنصر الثالث: محاكاة الواقع بتصوير فنّيٍّ يُبْرِزُ الحركة والحياة والمشاعر، ويعبِّر عن مختلف أبعاد الواقع، ولا يقتصر على التصوير الجامد للأشكال والرسوم الظاهرة. العنصر الرابع: الصدق في التعبير عن الحقيقة، أو عن المشاعر والأحاسيس، أو عن الآمال والرغائب، أو عمّا يسبح فيه الخيا متأثّراً بمطالب النفوس، وشهواتها، ومطامحها.

العنصر الخامس: ما تشتمل عليه المعاني ممّا يحرّك في النّاس المشاعر الوجدانيّة أو النفسيّة الحلوة، والعواطف الوجدانيّة أو النفسيّة الحلوة، أو يرضي شهوات النفوس.

العنصر السادس: ما يُعجب الأذهان من إشراقات ذكاء، وأفكار جديدة مبتكرة، بشرط أنّ لا تكون قبيحة بطبيعتها.

العنصر السابع: ما يسرُّ الخيال ويعجبه ويُمْتِعُه ممّا يرضي الرغبات النفسيّة التي يتمنّاها الإنسان ويعجز عن الوصول إليها وتحقيقها:

(أ) فمن الحق والصدق ما هو جميل جداً:

إنّ التصوير الفنّي الذي يُبرز في الكلام صورة الواقع المتحدَّث عنه، حتّىٰ كأنّه مُشَاهَدٌ ملموس بحركته وحياته ورونقه وجماله هو من أرفع الأدب وأجمله، وكم من واقع هو أجمل وأكمل من الخيال.

وإنّ الكلام الذي يعبِّر عن الحقائق الفكرية المجرَّدة بطريقة مفهومة سهلة ليِّنة طيّعة في الفكر وفي اللسان، هو من أرفع الأدب وأجمله.

وإنّ الكلام الذي يحدِّد الأحكام الشرعية أو الأحكام القانونية أو مسائل العلوم بوضوح، ودقّة تامّة، ورشاقة وعذوبة لفظ، هو من أرفع الأدب وأجمله. وإنَّ الكلام الذي يعبِّر تعبيراً صادقاً عن مشاعر النّفس الوجدانيّة أو التخَيُّلِيَّة لدىٰ مُشاهَدةٍ طبيعية أو حادثة إنسانيّة هو من أرفع الأدب وأجمله.

وإنّ الكلام الحلو الذي يُرضي الآمال والمطامع النفسيّة، بإقناعات صادقات، أو بإقناعات توهِم بأنّها صادقات، فتستر بها عورات التلفيق والكذب، هو من أرفع الأدب وأجمله.

أمّا الكلام الذي تنكشف فيه عورات التلفيق والكذب فهو كلام قد تمجُّه النفوس، ولو سِيق لإرضاء الآمال والمطامع النفسيّة.

وإنَّ الكلام الذي يَصْنَعُ قصصاً مقتبسة ممّا يجري في الواقع نظائرها، هو من أرفع الكلام القصصي وأجمله.

دعوىٰ "أعذب الشعر أكذبه":

أمّا دعوىٰ: "أعذب الشعر أكذبه" فهي دعوىٰ لا أساس لها من الصحّة، لدىٰ التحليل والبحث عن العناصر الجماليّة في الأدب.

إنّ الحقّ إذا لبس ثوباً أدبيّاً جميلاً كان أجمل من الباطل لا محالة، مهما لبس من أثواب جميلة مزخرفة.

إنّ الحُلَّة والحِلْيَة الأدبيَّة اللَّتَيْن يرفل بهما قول الله تعالىٰ في سورة (الرعد):

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ

ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ الرعد: ١٧ للفكرة الحقّ التي تبيّن واقع انتصار الحقّ والمحقّين بعد أحداث الصِّراع بين الفريقين، أجمل من كل أدب يُزيِّن فكرة باطلة لتكون مقبولة محبَّبة.

ربّما يكون تضخيم الحقّ وتجسيمه في الصورة الأدبيّة عملاً أدبيّاً جميلاً، لأنّ التضخيم والتجسيم في مفاهيم النّاس لون من ألوان البيان والشرح للحقيقة، وبعد الشرح ترجع الحقيقة في تَصَوُّرِ النّاس إلى حجمها الطبيعي.

إنّ الفكرة المشتملة على كذب سخيف ممجوج قد يستعذِبها الذهن لطرافتها، ولكن يمجّها الذَّوق والحسُّ المرهف العارف بألوان الجمال لسخافتها ومجافاتها للحقيقة مجافاةً واسعة المسافة.

أمَّا حين تكون الفكرة مبتكرة حلوة، وتكون الدَّعوى صادقة في أصلها، مضخَّمة مجسَّمة مبالغاً بها في صورتها الأدبيّة، فإنّ الكلام يكون حينئذٍ أرفع أدباً، وأعلى كعباً، وأوقع في النّفس.

هَلُمَّ فَلْنَلْحظ اجتماع الصدق والأدب الرفيع في قول الله تعالى في سورة (ق):

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ ق: ٣٠

إنَّ في هذه الآية حلاوة فكرة السؤال والجواب. وحلاوة الجواب الذكي الذي لم يكن مباشرة بصيغة: (لم أمتلئ) أو بصيغة (لا) مع كثرة الذين أُلقوا فيها. إنّما جاء على صغية سُؤال النَّهِم الشَّرِه طالب المزيد: {هَلْ مِن مَّزِيدٍ}؟!!.

وما دام باستطاعة الإِنسان أنْ ينتقي من الحقّ والصدق عناصر جماليّة لأدبه فما أوفر الحقّ والصدق في بيانات الإِسلام أما الدّعاة إلى الله، وما عليهم إلاّ أنْ يغترفوا.

(ب) ومن الأفكار الجديدة المبتكرة ما هو جميل جداً:

وكلّنا نلاحظ أنّ النّاس تُعْجِبُهم وتحلو لديهم المعاني الجديدة المبتكرة، ويقولون في عباراتهم الدارجة: لكل جديد لذّة.

فاشتمال الكلام على المعاني الجديدة المبتكرة - دون أنْ تكون قبيحة في ذاتها - هو من عناصر الجمال الأدبي، والزينة الجوهريّة في الكلام.

على أنَّ كلّ فكرة جديدة مبتكرة يستعذبها النّاس ويُعْجَبُون بها، قد تمسي مبتذلة مزهوداً فيها، متى تداولها النّاس واستعملوها كثيراً، باستثناء الأفكار التي هي بمثابة الخبز في الأكل، أو الملح في الطعام، أو الماء والهواء.

وما أوفر المعانيَ الجديدة التي يمكن استنباطها من كتاب الله عزَّ وجلّ، ويمكن إرضاء عقول النّاس بها، وما على الدّعاة إلى الله إلاَّ أنْ يحسنوا الاستفادة منها.

ومن المبتكرات في المعاني ما تكون جِدَّتُه في الجمع والتركيب.

مثلاً:

إنّ التعبير الساذج عن عدم الْعَدْلِ في مجال الحبّ الذي يعاتب به الإِنسان العادي أميراً ذا مكانة، أنْ يقول له: يا سيّدي إنِّي أُحبُّك حبّاً عظيماً مع المحبِّين ولكنَّك لا تعامل حُبِّي بالعدل كما تعامل الآخرين.

إنَّ مشاعر هذا الإِنسان وقفت عند هذا الحدّ فأعطىٰ هذا التعبير.

لكن المتنبّي بذكائه تجاوز هذه المشاعر الساذجة، فأدرك أنّ سيف الدولة أعدل النّاس، وأدرك أنّه هو الحَكَمُ لو شاء أنّ يشكوه إلىٰ حَكَم، ثم رجع فأدرك أنّه هو الخصم، ثم استدرك ليكشف أنّ الخصومة علىٰ حُبِّه وما يقتضيه هذا الحب. كل هذه الأفكار والمشاعر قد اجتمعت وتراكبت! وتدخّل الذكاء فأحاط بها معاً، وتدخَّلت القدرة البيانيّة علىٰ التعبير عنها مجتمعة بطريقة تُفْهَمُ بلا تعقيد ولا كدٍّ للذِّهْن، فقال المتنبِّي لسيف الدولة:

*يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إلاَّ فِي مُعَامَلَتِي * فِيكَ الْخِصَامُ وأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ*

(ج) ولإِشراقات الذكاء في الأدب تأثير عظيم جدّاً في ارتفاع المستوىٰ الأدبي: إنّ التعبيرات غير المباشرة أو المباشرة بساتر عن الأفكار المقصودة بالذات لا تكاد تُحصَر.

ويتفاوت النّاس فيها بمقدار تفاوتهم في القدرة علىٰ تصيّد المعاني التي لها بالأفكار المقصودة صِلَة يمكن عن طريقها الإِشارة إليها، أو الدّلالة عليها، ولو إلماحاً، أو من جانب خفي.

ومن الأسباب الجوهريّة في ارتقاء المستوىٰ الأدبيّ للكلام ما يكون لدىٰ المتكلّم أو الكاتب من قدرة في هذا المجال.

كالقدرة على تصيُّد الأشياء والنظائر، واستخدام بعضها لبعض، في الأمثال والتشبيهات، والاستعارات، وأنواع المجاز التي يُكَنِّي بها الأدب عن مراده، وكالقدرة على معرفة الروابط بين الأفكار، والانتقال فيها بين اللوازم والملزومات، والأجزاء والكل الذي يجمعها، والخاصِّ والعام، والمتناقضات والأضداد، وغير ذلك من المعاني ذات الترابط فيما بينها في الواقع أو في الفكر، فهي تتخاطر معاً ولو كانت متناقضاتٍ وأضداداً، ويستدعي بعضها بعضاً.

ولا بدّ مع ذلك من توافر الذوق الفنّي، والحسِّ الجمالي الرفيع، لوضع هذه الأشياء في مواضعها، بحسب مقتضى حال المخاطب، فرداً كان أو جماعة. مثلاً:

اعتاد الأُدباء والشعراء أن يُشَبِّهوا الجواد بالبحر، لأن البحر ماؤه كثير، وعطاؤه وفير، فهو لا يمنع آخذاً منه، لكن إشراقات الذكاء مكَّنت الشاعر من أنّ يعطي هذا التشبيه المتداول زينةً جديدة مُحَبَّبة بتقسيم البحر إلى لُجَّةٍ وساحل، فقال في ممدوحه:

*هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ النَّوَاحِي أَتَيْتَهُ * فَلُجَّتُهُ الْمَعْرُوفُ والْجُودُ سَاحِلُهُ*

(د) ولتحريك المشاعر الوجدانيّة والنّفسيّة الحلوة تأثير عظيم في ارتفاع المستوى الأدبيّ:

ولا ريب في أنّ النّاس تُعجبهم وترضيهم وتحلو لديهم المعاني التي تحرّك لديهم المشاعر الوجدانيّة والنّفسية الحلوة، والعواطف الوجدانية والنّفسيّة الحلوة، أو تذكّرهم بها.

مثل: مشاعر الحبّ، ولقاءات الأحبّة، وعواطف الحنان والشفقة، ومشاعر الشوق لدىٰ العُشّاق، ومشاعر الإيمان وأحاسيسه العميقة لدىٰ المؤمنين، ومشاعر العبادة الحلوة لدىٰ العبّاد الصالحين، ومشاعر الفخر والاعتزاز بالأمجاد، ومشاعر الإحسان وفعل الخير، ومشاعر الأخوّة والصدق والوفاء، ومشاعر الأبوَّة والأمومة وسائر القرابات، ومشاعر العطف علىٰ الأيتام، ومشاعر التوبة والندم والرجعة إلىٰ الله، ومشاعر الزهد في الدنيا والتطلُّع إلىٰ النعيم المقيم في الآخرة، ومشاعر التضحية والبطولة والفداء، ومشاعر الإيثار، ومشاعر البرّ والتّقوىٰ، ومشاعر التحدِّي والصمود وآمال النصر علىٰ الطغاة والبغاة وعُبَّاد الشيطان.

وما أوفر المعاني التي تحرِّك هذه المشاعر الحلوة لدىٰ الدّعاة إلىٰ سبيل الله، وما عليهم إلاَّ أنْ يُحْسِنُوا الاستفادة منها.

ثمّ إنّ المشاعر النّفسيّة والوجدانيّة منها ما هو ساذج بسيط، ومنها ما هو مركَّب متفاصل، ومنها ما هو مركَّب متداخل معقّد.

ويرتقي مستوىٰ الكلام الأدبي لدىٰ عِلْية الأدباء، ولدىٰ العامّة أيضاً، بقدر ارتقاء المشاعر التي يأتي التعبير عنها ولو بطريقة مباشرة.

وإذا كان للمشاعر الوجدانيّة والنّفسيّة هذا الأثر في ارتقاء مستوىٰ الكلام الأدبيّ، وفي تأثيره القويّ علىٰ النّفوس، فإنّ لدىٰ الدّعاة إلىٰ الله كنزاً عظيماً من المشاعر التي يتيسّر لهم الانتفاع منها في تحقيق أهداف الدّعوة، وفي رفع مستوىٰ كلامهم الأدبيّ.

ولكن لا بدّ من أنْ نُنَبِّه علىٰ عنصر مهم جدّاً، ألاَ وهو أنّ يكون المتكلِّم منفعلاً حقّاً في عمق وجدانه ونفسه، بالمشاعر التي يريد التعبير عنها، ويحرص علىٰ تحريكها في أعماق سامعيه أو قارئيه.

إنّه كلَّما كانت مشاعر الداعي حول ما يدعو إليه من دين الله أعمق، وكان إحساسه بها أعنف وأوضح، كان تأثيره في سامعيه أكثر وأعمق، ولذلك نجد تأثير المخلِصين عظيماً.

وحين تقترن بهذه المشاعر الصادقة العميقة قدراتٌ أدبيّة علىٰ البيان، وتجارب مختلفات في ميادين التعبير الأدبي عن الأفكار وعن الأحاسيس والمشاعر النفسيّة أو الوِجْدَانيّة، فإنَّ القدرة علىٰ التعبير عن هذه المشاعر تكون أكمل وأوفىٰ، ثم يكون الكلام أكثر نفاذًا إلىٰ أعماق سامعيه أو قارئيه، وأكثر تحريكاً لمشاعرهم. ويرتقي الدّاعي إلىٰ سبيل الله في تعبيراته الأدبيّة البليغة ضمن دعوته بمقدار ارتقاء تجاربه الإيمانية، وتجاربه الوجدانيّة، ومشاعره النّفسيّة الحلوة، في مجالات الصّلة بالله، والطاعة له، والتوبةِ والنَّدَمِ، وعطاءات الخير، والتطبيقات الإسلاميّة المسعدة للنفوس، والمريحةِ للضمائر، والمُمِدَّةِ للقلوب بالطمأنينة...

منثورات في عناصر الجمال الأدبي

أوّلاً: الأسلوب البياني:

من عناصر الجمال الأدبي في الكلام ملاءمة أسلوبه البياني للأمور التالية:

✓ للهدف العام من الكلام.

✓ للمضمون الفكري في الموضوع العامّ الذي يجري فيه الكلام، وفي الفكرة الخاصّة التي يَتَحَدَّث عنها.

✓ لوضع المخاطب وحالته الفكريّة والنّفسيّة والاجتماعية.

✓ لِلْمُنَاخ النفسيّ العام الذي يُلقى فيه، أو يوجَّه له، فالمناخات النفسيّة كثيرة، ولكلٍّ منها أسلوب بياني يلائمه.

وللتوصّل إلى الملاءمة المطلوبة التي هي عنصر مهمٌّ جداً من عناصر الجمال الأدبي لا بدّ من ملاحظة الأمور التالية بعناية ودقّة:

(1) ملاحظة حال المخاطبين أو الّذين يُوَجَّه لهم الكلام وذلك بصفة عامّة.

(2) ويدخل في هذا ملاحظة بيئتهم العامّة، ومفاهيمهم السائدة بينهم.

(3) ملاحظة الحالة النّفسية والفكريّة والاجتماعية التي يكون عليها المخاطبون بصفة عامّة.

(4) ويدخل في هذا ملاحظة حالات السلم والحرب والأمن والخوف، وسعة الرزق والجوع، والنّصر والهزيمة، والإيمان الكُفر والنِّفاق، و الطمع واليأس، والمسرّة والحُزْن، والصفاء والكَدَر، ونحو ذلك من الأحوال النفسيّة الخاصّة، التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

ويدخل في هذا أيضاً ملاحظة حالات الذّكاء والغباء، وطمأنينة الفكر واضطرابه، والعلم والجهل، ونحو ذلك من الأحوال الفكريّة التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

ويدخل في هذا أخيراً ملاحظة الحالات الاجتماعيّة، كالبداوة والتحضُّر، والرفعة والضِّعة، والقوَّة والضعف، والقيادة والانقياد، ونحو ذلك من الأحوال الاجتماعية التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

ملاحظة الظرفين الزماني والمكاني اللَّذين يُقَالُ فيهما أو يُعدُّ لهما لكلام. فمن الأساليب البيانيّة ما يلائم ظرفاً من الظروف الزمانيّة أو المكانيّة، في حين أنّه قد لا يلائم ظرفاً آخر.

إنّ ما يلائم في مواسم الأعياد، قد لا يلائم في أوقات التحريض على الجهاد، وما يلائم في مكان الفرح، لا يلائم في كان التَّرَح، وما يلائم في مواطن تأدية النُّسُك، قد لا يلائم في أسواق البيع والشراء، وكذلك العكس، وقس على هذه المتخالفات.

ملاحظة المُنَاخ النفسيّ العام، فالمناخات النّفسيّة كثيرة، ولكلٍّ منها أُسلوب بيانيّ يلائمه.

ومنْ أمثلة المُنَاخات النّفسيّة: المناخ الخطابي، المُناخ الحربي، المناخ العاطفي، مناخ السفر، مُنَاخ الحضَر، مُنَاخ الخوف، مناخ الطمَع، مناخ القلق، مناخ الهدوء والسكينة، مناخ الغضب، مناخ الرِّضا، مناخ التربية والتعليم، مناخ الموعظة والإِرشاد، مناخ الخصومة والجدل، مناخ الطلب والاستجداء، مناخ الدُّعاء، وهكذا إلى مُنَاخات كثيرة أخرى.

الشرح:

منَ المعلوم أنّ المتكلّم لا بدَّ أنْ يكون ذا هدف من كلامه، وللوصول إلى الهدف المقصود من القول أساليب بيانيّة كثير، ولكل هدف أساليب تناسبه. وملاءمةُ الأسلوبِ البيانيّ للهدف من الكلام هي فيما أرى رُكن أساسي وجوهري لارتفاع مستوى الكلام الأدبي البليغ.

* فحين يكون غرض الكلام مثلاً أنْ يُحدِث تأثيراً إقناعياً، يكون الأسلوب البياني الأكثر إقناعاً وتأثيراً في هذا المجال هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

* وحين يكون غرض الكلام أنْ يُحدِث انفعالاً حماسيّاً، ويستثير خالق الشجاعة والبسالة والإِقدام، يكون الأسلوب البياني الأكثر إثارة للحماسة واستثارة للباسلة والشجاعة والإِقدام هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

* وحين يكون غرض الكلام أنْ يُثِير الغضب أو يُحْدِث الغيظ، يكون الأسلوب البيانيّ الأكثر إثارة للغضب أو إحداثاً للغيظ، هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

فمن أرفع الأدب في هذا المجال قوله الله تعالى في سورة (آل عمران/ 3 مصحف/ 89 نزول) بشأن المنافقين الّذين إذا خلَوا عضُّوا أناملَهم غيظاً من المؤمنين: {قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119)}.

وقول الله تعالى بشأن المشركين الذين يَكْرَهُوَن ظهور الإِسلام وانتصاره في سورة (الصف/ 61 مصحف/ 109 نزول):

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (9)}.

ولكنّ الإِسلام قد عزل السباب والشتائم عن أدبه، وأوصى المسلمين بذلك، فقال الله تعالى في سورة (الأنعام/ 6 مصحف/ 55 نزول):

{وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الآية 108].

كما عزل عن أدبه ما يسمّى بالأدب المكشوف أو أدب الفراش، وسَتَرَ القرآن عوراتِ هذا المجال بالكنايات والعمومات، مثل:

{أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ} {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ} {وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ} {مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ} {مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا} {مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ} {فَلَمَّا تَغَشَّاهَا} {هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}.

* وحين يكون غرض الكلام تحقير من يوجّه الكلام ضدّه، أو السخرية منه، يكون الأُسلوب البيانيّ الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة، بشرط أن لا يعكس الأثر على موجِّه الكلام.

* وحين يكون غرض الكلام أنْ يستعطف من يُوَجَّهُ له، فيحرِّك لديه عاطفة الشفقة، أو الرحمة أو يحرِّك لديه خُلُق الجود، أو نحو ذلك، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.
* وحين يكون غرض الكلام التودّد والتحبّب لمن يوجّه له الكلام، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً والأرفع منزلة في هذه الحالة.

* وحين يكون غرض الكلام استرضاءَ مَنْ يُوَجَّهُ له الكلام صراحة أو ضمناً، في دافع من دوافع نفسه، كالكِبْر، أو العُجْبِ بالنفْس، في جمالٍ، أو علمٍ أو حَسَبٍ، أو نَسبٍ، أو مكانةٍ اجتماعية، أو قُدْرَةٍ إداريّة، أو حِكْمَةٍ أو حُنْكَةٍ، أوغيرِ ذلك، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً والأرفع منزلة في هذه الحالة.

وهكذا في سائر أغراض الكلام.

ولكلّ غرض من أغراض الكلام أساليبُ تُنَاسبه، فما يصلح في مجال الحماسة لا يصلح في مجال الإقناع، وما يحلو في الخطابة لا يحسن في مقام التعزية، وما يحسن في الجدل لا يحسن في مقام الاعتذار، وما يلائم بثّ الوَجْد، قد لا يلائم اسْتِجْدَاءَ الرَّفْد، وما يُنَاسِبُ المدح قد لا يناسب الهجاء.

وذوق الأديب البليغ يُحِسُّ بوجوه الملاءمة أوعدمها بين أساليب الكلام وبين الأهداف منه، فيتحَرَّىٰ أفضل الأساليب مُلاَءَمَةً للهدف الذي يقصده من كلامه. ولا غَرْوَ أنَّ بعض الأساليب الملائمة للهدف أكثر ملاءمة وأعظم تأثيراً من بعض. ثمّ لكل صنف من أصناف المخاطبين، ولكلّ حالٍ من أحوالهم الفكريّة و النفسيّة والاجتماعية أساليبُ ملائمة، وأساليبُ غير ملائمة، وعلىٰ المتكلِّم البليغ أنْ ينظر في صنف من يريد توجيه كلامه له، وأنْ ينظر في حالته الفكرية والنّفسيّة والاجتماعية، ويُحسن اختيار الأسلوب الكلامي الذي يُلائمه ويؤثّر فيه فرداً كان أو جماعة. فمن أصناف النّاس: عامّة وخاصّة، وجاهلون وعلماء، وأغبياء وأذكياء ودَهْمَاء وأمراء، وبُدَاة جفاةٌ ومتحضِّرون، وأهلُ حِلْم وعقل، وأهلُ خِفّة وطَيْش، ومنهم من يُمْلَكُ من طريق عاطفته، ومنهم من يُمْلك من طريق عقله.

وهكذا تختلف أصناف النّاس اختلافاً كثيراً، ولكل صنف منهم أساليب من القول تلائمه، وتكون أكثر تأثيراً في من أساليب أخرىٰ.

ونظير اختلاف النّاس اختلاف أحوالهم الفكرية والنّفسيّة والاجتماعية، فما يلائم الإِنسان وهو هادِئ الفكر قد لا يلائمه وهو مشوّش الفكر مضطربه، وما يلائمه

وهو في حالة الرضا قد لا يلائمه وهو في حالة الغضب، وما يلائمه وهو فقير ذليل قد لا يلائمه وهو في سَعَة من المال وعِزّ، وما يَصْلُح له من الخطاب وهو وحده قد لا يصلح له وهو بين النّاس.

وهكذا إلى سائر اختلاف الأحوال، ولكل حال أساليبُ من القول مناسبة، وبعضها أكثر مناسبة وملاءَمة وتأثيراً من بعض.

وفي هذا المجال الذي تختلف فيه أهداف الكلام، وتختلف فيه أصناف المخاطبين، وتختلف فيه أحوالهم، تتفاوت مراتب البلغاء والبيانيِّين.

ما هو المراد من الأسلوب البياني؟

قد لا نستطيع حصر الأساليب البيانيّة وإنْ حاولنا ذلك، ولكنّنا نستطيع توضيح المراد من الأسلوب البياني بذكر طائفة من الأساليب الكلاميّة التي إذا كانت ملائمة للغرض العام من الكلام، والوضع العام للمخاطب، والحال الخاص له، والمُنَاخ النفسيّ العامّ، كانت أسلوباً بيانيّاً مُرْتَقِياً في معارج البلاغة الراقية، والأدب الرفيع.

فمن الأساليب الكلاميّة مايلي:

(1) أسلوب الْعَرضِ المباشر الصريح للفكرة المراد الإِعلام بها، أو العرض الملامس بساتر.

(2) أسلوب العرض غير المباشر الذي يُعْتَمَدُ فيه على مقدار ذكاء المخاطب، ويدخل في أسلوب العرْض غير المباشر التعريضُ والتَّلمِيح، ومعاريض الأقوال، والإشارةُ ا لخفيّة، وفحوى الكلام، ولهذا الأسلوب صُوَر كثيرة جداً.

(3) أسلوب الإطناب وعرض الفكرة مبسّطة موضّحة من كل جوانبها، ولهذا الأسلوب مراتبُ وصُوَر كثيرة، وهذا الأسلوب يناسب أصنافاً من النّاس، وأغراضاً معيّنة من الكلام، وأحوالاً خاصّة للمخاطبين.

(4) أسلوب الإيجاز والاختصار، ولهذا الأسلوب أيضاً مراتب وصُوَر كثيرة، وأسلوب الإيجاز والاختصار يناسب أصنافاً من النّاس، كالأذكياء، والأمراء، وأهدافاً معيّنة من الكلام، وأحوالاً خاصّة للمخاطبين.

(5) أسلوب الترغيب، وله مراتب وصُوَر كثيرة، وهو في الغالب يلائم معظم النفوس الإنسانيّة، لما أودع الله فيها من مطامع.

(6) أسلوب الترهيب، وله أيضاً مراتب وصوَر، وهو كأسلوب الترغيب يلائم في الغالب معظم النّفوس الإنسانية، لما أودع الله فيها من حذر وخوف.

(7) أسلوب العُنْفِ والقسوة، وهو يلائم بعض النّاس وفي بعض الأحوال.

(8) أسلوب الرِّقّة واللّين.

(9) أسلوب الإثارة للعواطف والانفعالات، وكثيراً ما يكون هذا الأسلوب نافعاً ومجدياً في الحماسة والخطابة.

(10) أسلوب الإِقناع الفكري الهادئ.

(11) أسلوب الجدل.

(12) أسلوب الكتابة التِّقْنِينِيَّة، والكتابة العلميّة المحرّرة، والمحدِّدَة للمقاصد بنصوص بعيدة عن الاحتمالات الأخرىٰ.

(13) وهكذا تختلف أساليب الكلام، وكلٌّ منها يناسب أهدافاً معيّنة، وأصنافاً معيّنة من النّاس، وأحوالاً خاصّةً للمخاطبين، ومُنَاخَاتٍ نفسيّةً عامّة، وقد يجتمع عدد من أساليب الكلام في كلام واحد حينما لا تكون متنافية، أو حينما يلائم بعضها بعضاً.

مثال:

ولتقريب فكرة اختلاف الأساليب البيانيّة التي يُتوخّىٰ منها تحقيق الغرض من الكلام، ويُرَاعَىٰ فيها أوضاع المخاطَبين وأحوالهم، نضرب المثال التالي: نضع في هذا المثال مطلباً من المطالب التي قد يراد الإِعلام بها، بغية تحقيقها، ثم ننظر إلىٰ طائفة من الأساليب الكلاميّة التي يمكن أنْ يُتَوَصَّل بها إلىٰ الإِعلام بالمطلوب.

وهنا لا بدّ أنْ نرىٰ من الأساليب ما هو ساذج صريح، يتناول الطَّلب مباشرة، ثمّ نرىٰ من الأساليب من يدلّ علىٰ المطلوب دلالة غير مباشرة، ويُعْتَمَدُ فيها علىٰ ذكاء المخاطَب وقدْرَتِه علىٰ إدراك المطلوب من خلال إشارات القول ومعاريضه.

ومن المسلَّم به أنّه كلّما كان المخاطب أكثر ذكاء ورغبةً في تَلْبية الطلب، كان إخفاء الإشارة إلى الطلب في أسلوب القول الدّال عليه لدى مخاطبته أعلى منزلة من الناحية البيانيّة، وأكثر بلاغة، هذا من غير النّصوص التي يُقصد منها تثبيت أحكام بعيدة عن الاحتمال الذي قد يُفهم منه غير المراد.

وهنا تتكاثر الأساليب التي تشير في خفاء إلى المطلوب، وبعضها أرقى من بعض، أو أعذب وأحلى، أو أبدع أو أكثر نفعاً وتأثيراً.

ولنفرض أنَّ عدداً من النّاس كلُّ واحد منهم يُريدُ الحصول على كأس ماء يروي ضمأه، وهم متفاوتون في قدراتهم البيانيّة، وحاول كل واحد منهم الإعلام بما يريده.

أمّا الساذج منهم فيأمر أمراً بإحضار كأس الماء الذي يريد بطريقة لا لِينَ فيه ولا حِلْيَة، وقد يكون هذا الأسلوب هو الأبلغ في مخاطبة بعض النّاس، وفي بعض الأحوال والأوضاع، لا سيما في طلب الأكبر من الأصغر، فالأسلوب البياني الأبلغ حينئذٍ هو الطلب بالأمر المباشر، والأوامِرُ العسكرية من القادة إلى الجنود قد لا ينفع فيها إلاَّ مِثْلُ هذا الأسلوب المباشر الجاف، لمقتضيات التدريب على الانضباط العسكري، وكذلك شأن القرارات والمراسيم والأوامر التي توجّهها سلطات الحكم، ومن هذا الباب التكاليف الشرعية فيها أوامرُ ونواهٍ، مثل: "أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وافعلوا الخير، ولا تقتلوا النّفس التي حرّم الله إلاَّ بالحق، ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، ولا تسرقوا، ولا تزنوا" ومع ذلك فإنّنا نلاحظ معظم

التكاليف الشرعية تقترن بتَطْرِيةِ الترغيبِ والترهيب، وبيانِ الحكمة، والتمهيد بالمقدِّمات، والتلطّف بالنداء التكريمي، مثل: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ} ومثل: {ياعِبَادِيَ}.

وترتقي من فوق الأمر المباشر الجافّ أساليبُ الإعلام بالطلب، فيأتي أسلوب الطلب المقترن بما يشعر بتكريم المخاطب، ومن أمثلة ذلك في موضوع طلب كأس الماء "من فضلك أعطني ماء".

ثمّ يأتي فوقه أسلوب الشكر على تحقيق المطلوب قبل تحقيقه، ومن أمثلة ذلك: "أشكرك على كأس الماء الذي ستقدّمه لي".

ثمّ يأتي من فوق ذلك أسلوب التلميح والتعريض، ولهذا الأسلوب صور كثيرة، ودرجات بعضها أرقى وأعذب من بعض ومن أمثلة هذا الأسلوب:

(1) ماؤكم عذب لا يشبَعُ منه الشاربون.

(2) الحرُّ شديد يورث الظمأ.

(3) طعامكم طيِّب ولذيذ أكْثَرْنَا منه فألهب الأكباد.

(4) وهكذا من أمثلة المعاريض التي لا تحصر.

أَلَسْنا نلاحظ أنّ الهدف المطلب تحقيقه واحد في كلّ الأساليب السابقة، إلاَّ أنّ الأساليب البيانيّة للإعلام بالهدف قد تفاوتت تفاوتاً كثيراً.

ومع تفاوت الأساليب البيانيّة وارتقاء بعضها فوق بعض، نؤكد أنّه ربّما كان الأدنى منها أصلح وأجدى من الأساليب التي هي أرقى، مع بعض المخاطبين، أو في أوضاع وأحوال خاصّة، أو في موضوعات معيّنة أو بالنسبة إلى أهدافٍ خاصّة من الكلام. وعندئذٍ يكون الأدنى في أسلوبه البياني هو الأبلغ لتحقيق الهدف، كشأن أساليب التربية.

ومن أجل ذلك لا بدّ من النّظر إلى الأسلوب البياني ومرتبته من جهة، وإلى ما يَقْتَضيه الهدفُ وإلى وضع المخاطب وحاله من جهة أخرى.

ومن هذا تبيّن لنا أنّ الأساليب البيانية تختلف أنواعها اختلافاً كثيراً، وأنّ الأهداف من الكلام، وأوضاع المخاطبين وأحوالهم، والموضوعات العامّة التي يجري فيها الكلام، والمضامين الفكرية التي يراد الدلالة عليها، والمُنَاخات النّفسية والاجتماعية التي يوجّه فيها الكلام، تختلف اختلافاً كثيراً أيضاً.

والبليغ حقاً هو الذي يُحْسِنُ الملاءَمَة بين أسلوبه البياني وبين الهدف الذي يقصده، والموضوع الذي يتحدّث فيه، ووضع المخاطب الذي يُوَجِّهُ له كلامه، وحاله التي هو عليها، وسائر الأمور التي يمكن أن يُلائِمَها أسلوب من الكلام ولا يلائمها أسلوب آخر.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أنّ هذه المَلاءَمَة في الأسلوب البياني، ليست هي كلَّ شيء في تحديد الجمال والأدبي، بل توجد عناصر جماليّة أخرى كثيرة، قد يشتمل عليها الكلام أو لا يشتمل عليها مع مراعاة الملاءمة في الأسلوب البياني.

ونظرةٌ في مختلف الأساليب البيانيّة تجعلنا نمرُّ على أسلوب العرض المباشر الجاف، فأسلوب العرض المباشر المغلّف بما يلطِّفه ويخفّف جفافه، ونمرُّ على الأسلوب الساذج البسيط، فما هو قريب منه. وقد يلطِّف العرضَ المباشر التشبهُ والتمثيلُ فيجعلُه ملموساً بساتر، والمحسِّنات اللّفظية، وأنواع من الزينة المعنوية، ودَعْمُ الخبر بالمؤكدات والشواهد، ودَعْمُ الطَّلَب بالمبرّرات والترغيب والترهيب.

ثمّ نمرّ على أساليب العرض غير المباشر التي يدخل فيها التعريض، والتلميح، والكناية، والقصّة، وضرب الأمثال، وتَرْكُ صِيَغ الطلب إلى صيغ الْخَبَر الذي يراد منه الطلب، إلى غير ذلك من الأساليب البيانية الكثيرة التي لا يُعرض فيها المطلوب بشكل مباشر، وقد يقترن أسلوب العرض غير المباشر بما يؤكد الخبر الذي تضمّنه الكلام، أو بما يحرِّض على تحقيق المطلوب في الكلام، كالترغيب والرهيب.

وأصحابُ الذَوق البياني الرفيع يُحسنون استخدام الفنون البلاغيّة التي يذكرها علماء البلاغة، وفنوناً أخرى يبتكرونها، فالفنون البيانيّة لا تُحصر، والفكر الإنساني مؤل لأن يبتكر فيها بدائع وروائع جديدة، تهديه إلى خصائص الإبداع الفنّي التي وهبها الله للإنسان.

والدعاة إلى الله مطالبون بتدريب أنفسهم لاكتساب هذا الذوق البياني، ولاكتساب المهارة في صناعة الكلام الرفيع، ثم هم مطالبون بتسخير أدبهم في دعوتهم إلى سبيل ربِّهم، اقتداءً بنبيّهم ورسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، واقتباساً من المنهج القرآني في بلاغته العظيمة.

التنويع والتنقّل والتلوين:

ومن عناصر الجمال الأدبيّ الذي يزيد الجمال جمالاً، والحسن حسناً وبهاء، التنويع والتنقّل والتلوين بين الصور والأشكال الجماليّة في الكلام. إنّ التزام الأديب لطريقة واحدة من الجمال الأدبيّ يكرّرها باستمرار في كلامه أو في معظم كلامه، ممّا يجعل مشاعر سامعيه أو قارئيه تَتَبَلّد تجاه هذا اللون من الجمال، فتفقد ما كنت تحسّ به من استعذاب وحلاوة وطلاوة، ويدبّ السأم إليها، ولو أنَّ أدبه كان كالمنِّ والسلوىٰ، لأمست مشاعرهم أمام التزامه الوتيرة الواحدة كنفوس بني إسرائيل.

لمّا أكثر طه حسين من استخدامه للون جميل في الكلام هو الاستفادة من عكس الكلام للدلالة علىٰ فكرة أخرىٰ، غدا هذا اللون بعد حين مادّة لتندّر بعض المقلّدين الساخرين.

وهذا العكس في الكلام هو ما كان علىٰ وزن العبارة المشهورة: "كلام الأمير أمير الكلام" ونقول في نظائرها:

"الجمال الأدبيّ وأدب الجمال" - "الطَّبْعُ الحَسَنُ والحُسْنُ المطبوع".

"شعراءُ العلماء وعُلَمَاءُ الشعراء" - "روائع النَّثْرِ ونَثْرُ الرَّوَائع".

ومن التزام الوتيرة الواحدة المملّة ما نجده في مقامات الحريري علىٰ الرّغْم من حلاوة بعضه لأوّل مرة، لكنّ التّنقّل في الألوان الأدبيّة، والتنويع في استخدام

العناصر الجمالية في الكلام، من الأسباب التي تجدّد إثارةَ الانتباه للإحساس بالجمال، وتجدّد الاستمتاع بلذّة الأدب الجميل، وترفعه إلى مستوى الروائع، وتَمْنَعُ تسلُّل والمَلَلِ إلى نفوس المستمعين أو القرّاء.

إنّ التَّنَقُّل مثلاً في النَّثْر من المتوازنات القصيرة، إلى المتوازنات الطويلة، إلى المتفاوتات الرشيقة ضمن نسق معجب جميلن أَحبُّ إلى النّفس الحضاريّة الذوّاقة للجمال من الثبات على وتيرة واحدة منها.

ثم إذا استطاع الأديب أنْ يُلاَئِمَ بين المضامين الفكرية وبين الأسلوب الذي اختاره كان ذلك أكثر إعجاباً وإبداعاً.

وكذلك التَّنَقُّل من الخبر، إلى التساؤل، إلى الجواب، إلى التمنِّي فإلى الخبر، فإلى الحوار والمناقشة، فإلى الجَدَل، فالحَماسة، فالمنطقية العقليّة، فالعاصفة، فالحديثِ الهادئ، إلى غير ذلك من ألوان وفنون بيانيّة، مع شرط الملاءمة، وعدم التنافر الجمالي.

ومع التنقّل ينبغي للأديب أنّ يكون قادراً على الإِحساس بالتحوّلات النّفسيّة لدى من يُوَجِّهُ له كلامه، ليختار من أساليب القول ما يلائم الحالة النّفسيّة التي وصل إليها. إنّ هذه القدرة على هذا الإِحساس، مع القدرة على التكيُّف السريع والانتقال إلى الأسلوب الأدبيّ الجديد الملائم، هي الوسيلة البارعة الموصلة إلى امتلاك الألباب والقلوب والنّفوس بأدب رفيع.

ومهما كان الأديب أقدر علىٰ هذا التكيُّف، مع اختيار اللّون الأدبيّ الملائم، وأقدر علىٰ استخدام مختلف الأساليب في كلامه، والتَّنقُّل البارع بينها من غير تكلُّف ولا قفزات منفّرات، كان أكثر أدباً، وأرفع أسلوباً، وأقدر علىٰ امتلاك من يُوَجِّه له كلامه.

ولنا في هذا بكتاب الله العظيم أسوةٌ رائعة، فمن خصائص الإِعجاز القرآني التنويع البديع الرائع في الأساليب، مع ملاءمة كلّ نوع من أنواع الأساليب للمضمون الفكري الذي يُرَادُ بيانه في النَّظْم القرآني المنزَّل.

تزيين الأفكار المقصودة بالذات بأفكار أخرىٰ:

ومن عناصر الجمال الأدبيّ تزيين الفكرة المقصودة بالذات بأفكار أخرىٰ عن طريق التمهيد أو المقارنة أو التذييل.

فالتمهيد يكون بعرض أفكار تمهّد للأفكار المقصودة بالذات، وتزيِّنُها وتجعلها مقبولة.

كالتمهيد بمَقُولة إقناعيّة تتضمّن ضرورة العناية بالصحة، والمحافظة عليها، قبل التّحذير من شرب الخمر، أو من شرب الدخان، أو نحو ذلك من الأمور الضارّة بالصّحة.

وكاستثارة عناصر الإِيمان قبل توجيه التكليف.

وكالتمهيد بعبارات تشعر بتكريم المخاطب والتلطّف معه، بحسب مكانته الاجتماعية بين قومه، ومن ذلك الديباجات التي يُقدِّم بها الناس خطاباتهم للملوك والعظماء والرؤساء.

وأمثلة هذا التمهيد كثيرة في القرآن العظيم ومنها:

(أ) قول الله لرسوله في سورة (آل عمران):

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ آل عمران: ١٥٩

فقول الله لرسوله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ} تمهيد حلو في ثناء وتكريم، لتحذير ضمني من شيء غير واقع حتماً، ألاَ وهو الفظاظة وغلظ القلب الذي جاء بصيغة: {وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ}.

ثمّ نلاحظ أنَّ الجملتين معاً كانتا تمهيدين رائعين لتوجيه التكليف بقوله تعالى لرسوله: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ}.

(ب) قوله الله تعالى في سورة (آل عمران):

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ آل عمران: ١٦٤

إنَّ هذه الآية بمضامينها قد كانت تمهيداً يهيِّئ نفوس المؤمنين لتقبّل تلويمهم على ما بَدر منهم من تذمُّر واستنكار لبعض المصائب التي أصابتهم في أعمالهم الجهاديّة، بأسباب من عند أنفسهم، وهو ما جاء في الآية التالية للآية السابقة:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ آل عمران: ١٦٥

(ج) وقد علّم الله موسىٰ أن يُمهّد لفرعون بمقدِّمات العرض الرفيق جدّاً، قبل أنْ يوجِّه له الدَّعوة المقصودة، وهي أنَّ يتزكّىٰ أي يتطهّر من الكفر والطغيان والظلم والعدوان.

فقال له كما جاء في سورة (النازعات):

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ النازعات: ١٧ - ١٩

فأدب الدعوة لعظيم بلغ به الأمر إلىٰ ادّعاء الربوبيّة، قد اقتضىٰ اتّخاذ الحكمة في دعوته، بتقديم مقدمات العرض الرفيق المهذّب جدّاً، دلَّ عليها في النص: {هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن}.

لقد كان يفكي أنّ يقول له: أدعوك أنّ تزكّىٰ. أو يكرّمه قليلاً بصيغة العرض الاستفهامي: هل تتزكّىٰ، أو يكرمه أكثر فيقول له: هل ترىٰ أن تتزكّىٰ، أو نحو ذلك.

لكنّ الله علّم موسىٰ أنّ يفرش لفرعون مقدّمات تكريم أكثر تناسب مكانة فرعون في قومه، وقد جاء التعبير عن هذه المقدّمات الطويلة نسبيّاً بقوله: {هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ}.

فأطال المقدّمات بحسب عادات القوم، واختصر المطلوب الأساسي، فقال {تَزَكَّىٰ} بدل {تتزكّىٰ}.

والمقارنة تكون بإلباس الفكرة المقصودة ثوباً من فكرة أخرىٰ تقبّلها المخاطب

وتطبيق ذلك يكون باستخدام الأساليب غير المباشرة التي سبق شرحها بتفصيل.

والتذييل يكون بعرض الأفكار المقصودة بالذّات أوّلاً، وإتباعها بها يُزّينها ويجعلها مقبولة.

كالإِتيان بالفكرة ثم بإتباعها بالاستدلال عليها استدلالاً براهانياً أو دون ذلك. بإتباعها بالوعد المحبوب ترغيباً بها، بالوعيد المكروه ترهيباً منها وتحذيراً. أو بإتباعها

ببيان دواعيها المنطقيّة، أو دواعيها الالتزاميّة، ومن الدّواعي الالتزاميّة التذكير بعهد الإيمان والإِسلام، أو بسوابق الوعود والعهود، ونحو ذلك.

والأمثلة القرآنية على هذا النوع كثيرة جداً.

فمنها قول الله تعالى في سورة (النور):

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾النور: ٢٢

فأَمَر الله عزّ وجلّ بالعفو والصفح، ثمّ أتبعه بعرضٍ فيه الوعد بالمغفرة لمن يعفو ويصفح. ونجد في القرآن آيات كثيرةً مختومة بنحو قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}. {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}. {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}. {إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ}. {إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}. {إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} ممّا يشير إلى الوعد أو الوعيد بعد بيان المطلوب من فعل وترك.

ضرب الأمثال:

ومن عناصر الجمال الأدبيّ الرفيع في الكلام ضرب الأمثال، بشرط أن تتوافر فيها الشروط الفنِّية للأمثال، وتستجمع الشروط الأساسيّة العامّة للكلام البليغ. ويشترط في ضرب المثل أنْ يكون له غرض بيانيّ، لا أنْ يكون مجرّد عبث في القول. ولدى تتبُّعي للأمثال القرآنيّة وجدْتُ أنَّ أهمّ الأغراض التي يحسن أنْ يقصدها

البلغاء هي الإغراض الأخلاقية والتربوية التي هدَفَتْ إليها الأمثال القرآنيّة، تتلخّص بالأغراض الست التالية:

الغرض الأوّل: تقريب صورة الممثَّل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المَثَل.

الغرض الثّاني: الإِقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإِقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجّة البرهانيّة، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجّة الخطابيّة، وقد يقتصر على مجرّد لفت النّظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة.

الغرض الثّالث: الترغيب بالتزين والتحسين، أو التَّنفيرُ بكشف جوانب القبح، فالترغيب يكون بتزيين الممثّل له وإبراز جوانب حسنة، عن طريق تمثيله بما هو محبوب للنّفوس مرغوب لديها. والتنفير يكون بإبراز جوانب قبحه، عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنّفوس أو تنفر منه.

الغرض الرابع: إثارة مِحْوَر الطّمع، أو مِحْوَر الخوف لدى المخاطَب، ففي إثارة محوَر الطمع يتّجه الإِنسان بمحرّض ذاتيّ إلى ما يُرَادُ توجيهه له، وفي إثارة محور الخوف يبتعد الإِنسان بمحرِّض ذاتيّ عما يُرَادُ إبعاده عنه.

الغرض الخامس: المدح أو الذّم والتعظيم أو التحقير.

الغرض السادس: شَحْذُ ذهن المخاطَب، وتحريكُ طاقاته الفكرية، أو استرضاء ذكائه، لتوجيه عنايته حتّى يتأمّل ويتفكّر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكُّر.

والأمثال التي يَدْفَعُ إليها هذا الغرض إنّما يُخَاطَب به الأذكياء، وأهل التأمُّل والنَّظر والبحث العلمي، وكبراء القوم.

أمّا الأغراض غير الأخلاقيّة فقد تجافت الأمثال القرآنية عنها كالسخريّة في ابن الرومي إذ قال:

*قَصُرَتْ أَخَادِعُه وَطَالَ قَذَالُهُ * فَكَأَنَّهُ مُتَرَبِّصٌ أنْ يُصْفَعَا*

ومن شاء أنْ يتعلّم فن ضرب الأمثال، فليهتد بهدي خصائص الأمثال القرآنية.
ولدىٰ تتبُّعي للأمثال القرآنيَّة اكتشفت من خصائصها الخصائص الست التالية:
الأولىٰ: دقّة التصوير مع إبراز العناصر المهمّة من الصُّورة التمثيليّة.

الثانية: التصوير المتحرِّك الحيّ الناطق، ذو الأبعاد المكانيَّة والزمانيَّة، والذي تبرز فيه المشاعر النَّفسيّة والوجدانيّة، والحركات الفكرية، للعناصر الحيّة في الصورة.
الثالثة: صدقُ المماثلة بين الممثَّل به والممثّل له.

الرابعة: التنويع في عرض الأمثال، مرّة بالتشبيه، ومرّة بالعرض المفاجىء وبالتمثيل البسيط، وأخرىٰ بالتمثيل المركّب الذي يطابق كل جزء منه جزءاً من الممثَّل له، وأخرىٰ بالتمثيل المركّب الذي يُنْتَزَع منه وَجْهُ الشبه بنظرة كليّة عامّة.
الخامسة: البناء علىٰ المثل والحكم عليه كأنَّه عين الممثَّل له، علىٰ اعتبار أنَّ المثل قد كان وسيلة لإِحضار صورة الممثَّل له في ذهن المخاطب ونفسه، وإذْ حضرت صورة الممثّل به ولو تقديراً، فالبيان البليغ يستدعي تجاوز المثل، ومتابعة الكلام عن الممثَّل له، و تسقط صورة المثل لتبرز القضايا المقصودة.

السادسة: قد يحذف من المثل القرآني مقاطع اعتماداً على ذكاء أهل الاستنباط، وقد تُحذف من الممثَّل له مقاطع أيضاً، ويبقى في دلالات الألفاظ أو لوازم المعاني ما يدلّ على المحذوف.

واجب الدّعاة:

وعلى الدُّعاة إلى سبيل الله بالحِكْمة والموعِظَة الحسَنَة أنْ ينتفعوا من هذا العنصر من عناصر الجمال الأدبي، ويهتدوا بهَدْي كتاب الله وهَدْي سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فكم فيهما من أمثال رائعات.

وللقارئ أنْ يرجع إلى كتابي: "أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع".

السطح والعمق:

ومن عناصر الجمال والكمال الأدبيّ الرفيع في الكلام أنْ يكون له سطح تفهمه العامّة دون غموض ولا ارتباك ذهنيّ، وأنْ يكون له مع ذلك عمقٌ تفهمه الخاصّة بالتأمّل والتعمُّق وإعمال الذكاء.

ولا يستطيع تقديم بيان رفيع مثل هذا البيان الذي له سطح وعمق إلاَّ نوابغ البلغاء الأذكياء.

والقُدوة الهادية لهؤلاء النوابغ بلاغة القرآن المعجز. إنّ المتدبِّر لكلام الله عزّ وجلّ في القرآن يلاحظ عجباً، إنّه إلى آية فيفهمها، ويأخذ منها دلالة صحيحة ينتفع منها انتفاعاً عظيماً.

ثمّ تأتيه نفحات في تدبُّر آخر، فيفهم من الآية معانيَ جديدة لم ينتبه إليها في التدبُّر الأول، وهذه المعاني لا تتعارض مع ما فهمه في التدبُّر الأوّل إذا كان تدبُّراً صحيحاً. بل تعطيه إضافات متمِّمة لما كان قد تدبَّره من قبل.

ثمّ كلّما تعمَّق في التدبُّر تواردت عليه مفاهيم جديدة تتكامل بها لديه المعرفة المتعلِّقة بدلالة الآية.

والعمق في الكلام يتكوّن من أسباب، منها مايلي:

الأوّل: عدم الإشارة باللّفظ إلى الترابط المنطقي بين المعاني، أو إلى الترتيب الزماني أو المكاني بين الأحداث، أو غير ذلك من أمور مع إبقاء كل جملة في محلِّها الطبيعي.

ولوْ أنَّه جاءت الإشارة الصريحة إلى هذا الترابط، أو هذا الترتيب بلفظ دالٍّ، لخرج المعنى من العمق إلى السطح.

ولكن يفقد النّص بذلك عاملاً من عوامل جدّته في نفس القارئ عند كل تدبُّر.

الثاني: الكنايات البعيدة ذوات الدلالات المتتابعات.

الثالث: المحاذيف التي تُحذَف للإيجاز، ويقتضيها معنى النّص، أو يستدعيها التوازن والتناظر والتكامل فيه، أو غير ذلك، ويبقى المعنى بعد حذفها صحيحاً، إلاّ أنّه جزء من المعرفة التي يدلُّ عليها السطح والعمق معاً.

والعمقُ القرآنيّ عمقٌ معجز، لهذا سيظلّ في القرآن جديد يفهمه المتدبّرون المتعمّقون.

والسّطحُ والْعُمُقُ في القرآن شيءٌ غير ظاهر والباطن الذي تدّعيه الباطنيّة كذِباً وبهتاناً وافتراءً على الله ورسوله، إنَّ الذي يقولون به خرافةٌ يُقْصَدُ بها تحريف نصوص كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن ميزة السطح والعمق في القرآن أن الْعُمُقَ يُكَمِّل السطح، ولا ينقضه، ولا يتنافىٰ معه.

وشأن المتدبِّر في القرآن كشأن الباحث في سطح البحر وعمقه.

ومن بُلغاء البيان مَنْ يكون لبعض كلامهم سطح وعمق، إلاَّ أنّ العمق لديهم سهل الاستخراج وقد يتنافىٰ مع السطح.

إنَّ قول المتنبِّي لكافور الإِخشيدي:

"لقد كنت أرجو أنّ أراك فأطربا".

له سطح يمدح به كافوراً، لكنَّ له عمقاً يسخر به منه.

أوجه النَّص:

ومنّ عناصر الجمال والكمال الأدبيّ الرفيع في الكلام أنْ يكون له عدّة أهداف، وهذه الأهداف كلُّها مقصودة به، ويظهر هذا بجلاء حينما يكون المخاطب بالكلام جماعة ذات فئات مختلفة، وعناصر متباينة.

فمن أمثلة النَّصّ ذي الهدف المزدوج أن يوجِّه ذو سلطان عدم تهديده الشديد للَّذين يخالفون أوامر مبعوث من قبله للقيام بمهمّة من المهمّات السلطانيّة، إنّنا نلاحظ في هذا النَّص التهديدي هدفين معاً:

أحدهما: تهديد الذين يخالفون.

وثانيهما: رفع معنويَّة المبعوث، وشدُّ أزره وشحذُ همّته للقيام بها بُعِثَ به أفضل وجه.

وقد يكون الكلام مثلّث الهدف، أو أكثر من ذلك، وكل صاحب علاقة يأخذ من النَّصّ ما يناسب حاله، ويكْثُر هذا في النُّصوص القرآنيّة، فقد يكون الكلام تهديداً وتوعُّداً للكافرين، ووعداً للمؤمنين، وتربيةً وتأديباً وتسلية للرسول صلوات الله وسلامه عليه.

ومن الأمثلة القرآنية على تَعَدُّد الهدف من النصّ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال):

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ الأنفال: ٥٩

ففي هذا النصّ هدف إلقاء الوهن في قُلوب الكافرين، ولو عظمت قوّاتُهم. وهدف رفع مستوى القوى المعنوية في قلوب المؤمنين، وشحذُ همّتهم لإعداد القوى المادية التي يسبقون بها الذين كفروا تمهيداً للتكليف بإعداد المستطاع من القوة الذي جاء في الآية التالية لهذا النص.

الشعر وفنونه:

ومن عناصر الجمال في الكلام أنّ يُرضي الحسّ الموسيقي في الإنسان، ويدغدغه بإمتاع.

إنَّ للموسيقى وموازنيها تأثيراً مستعذباً في النُّفوس، فإذا جاء الكلام موزوناً على بعض موازنيها الحلوة المستعذبة اكتَسَبَ حلاوة مُحبَّبَة.

ثم إذا توافرت في الكلام مع ذلك عناصر متلائمة من عناصر الجمال والكمال الأدبي ازداد الكلام حُسناً وقوّة تأثير في النَّاس.

إنَّ الأشياء الجميلة التي تلامس مشاعر الإنسان بمؤثراتها الحلوة من جانبين، هي أكثر تأثيراً فيه من التي تلامس مشاعره من جانب واحد. وكلّما ازدادت الجوانب ازدادت قوّة التأثير، حتّى تصل إلى محاصرة الإنسان من كل مشاعره الجسديّة والنفسيّة والفكرية والوجدانيّة، فيفقد عندئذٍ كل مقاومته، ويستسلم استسلاماً تامّاً، مستغرقاً في لذّات المشاعر الحُلوة.

إنَّه إذا اجتمع المنظر الجميل، والصوت الحَسَن، والرائحة الزّكية، والطعم اللّذيد، والملمس الحُلو الممتع، والرّاحة النّفسيّة، وكان الحديث أدباً جميلاً رفيعاً، موضوعاً بقالب موسيقي شِعري، فقد حاصر الجمال معظم مشاعر الإنسان، وأخذَ يهيّمن عليها بمؤثراته الحُلوة، حتى يَسْلُبَها كل مقاوماتها، فتستلم استسلاماً تامّاً. ولمّا كانت النَّفس الإنسانية تَطْرَبُ للموسيقى، وترتاح لموازينها الحُلوة، وكان الشِّعر

كلاماً يجري في بعض جداولها، وعلى بعض موازنيها، كان للشعر تأثير حلو على النُّفوس الإِنسانية، ويظهر هذا حتى على الأطفال الصغار، الذين يظهر شعرٌ طفليّ على بعض جملهم التي يردّدونها أو يغنُّون بها.

ويتفاوت النَّاس في مدى إحساسهم بهذا النَّوع من أنواع الجمال في الوجود، وفي تذوُّقهم له، لذلك نلاحظ أنَّ بعض النّاس يتأثّرون بالشِّعر أكثر من بعض، مع وجود أصل التأثّر عند كل النّاس إلاَّ نادراً.

وبعض النّاس لديه بالتكوين الفطري فِطْرَةُ نَظْم الكلام على ميزان شِعري. وكلُّنا يعلم أنّ الكلام الموضوع في قالب ميزان شِعري أسرع إلى الحفظ، وأثبت في الذاكرة، وأسهل استدعاءً عند الحاجة.

فلا غَرْوَ إذن أنْ يكون الشِّعر عنصراً من عناصر الجمال في الكلام. وهنا نقول: إنّ على أصحاب الأهداف النّبيلة والدّعوات الخيِّرة أنْ يُحسِنوا استخدام هذا اللَّون الجمالي من ألوان المؤثرات على النَّفس الإِنسانيَّة، وأن لا يَدَعوا ساحته للشعراء الذين يتَّبِعهم الغاوون، الذين هم في كل وادٍ من أودية أهواء النَّفس وشهواتها، وأودية الضلال والفساد في الأرض يهيمون، والذين هم يقولون ما لا يفعلون.

إنَّ الشعر سلاح من أسلحة الأدب، وهو وسيلة حياديّة بذاتها، إنْ استُخْدِمت في الخير كانت خيراً، وإنْ استُخدِمت في الشرّ كانت شرّاً.

وبوسع المصّلِحين ودُعاة الخير ممَّن لديهم القدرة على كتابة الشِّعر الرفيع أنْ يَلْبَسوا درع قول الله تعالى في سورة (الشعراء): الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ الشعراء ، بعد أنْ وصف الله واقع حال معظم الشُّعراء بقوله تعالى:

﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ الشعراء

فالشعراء الذين يهيمون في كلّ وادٍ من أودية الضلال والهوى، والكذب والطعن في الناس ظلماً، والمدح لبعض الناس استجداء، والانتصار بغير حق، ويتبجّحون بشعرهم كذباً وزوراً، فيصفون أنفسهم بالشجاعة وهم الجبناء، وبالكرام وهم البخلاء، وبالعقل وهم السفهاء، وبالعفّة وهم الفُسّاق، ويتحدَّثون عن مغامرات غراميّة لم تحدث، فيفضحون بأكاذيبهم محصنات عفيفات، ويفتخرون بالحَسَب والنَّسب وهم صعاليك لا حَسَب لهم ولا نَسَب، ويَعِدون ولا يَفُون، ويُعَاهِدُون ويَغْدُرون، ويُظْهِرُون صدق الحبِّ وهم الطامعون، فهم يقولون ما لا يفعلون.

هؤلاء بزخرف الشِّعر الذين يملكون القدرة على صناعته والتأثير بفنونه إنَّما يتَّبعهم من النَّاس الذين سَفِهوا نفوسَهم، فخدعتهم الكلمة المزخرفة ولو كانت باطلاً وزُوراً، ودَعْوةً إلى الشَّرِّ والفساد في الأرض.

ومن هؤلاء شعراء الحانات، والمواخير، والليالي الحمراء، وشعراء الإباحيّة، وشعراء المذاهب الضالّة الهدّامة.

أمّا الشُّعراء الذين يَلْبَسُون درع الاستثناء القرآني فقد برز منه في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم "حسّان بن ثابت - وعبدالله بن رواحة - وكعب بن مالك". واتّخذهم الرسول صلى الله عليه وسلم أسلحة بيانيّة أدبيّة ضدّ شعراء أهل الكُفر والشّرك بالله، وكان يستحثُّهم أحياناً لمجاهدة الكفارين والمُشركين بشعرِهم. وظهر في العصور الإسلاميّة التالية شعر إسلامي كثير، ولكن ظلّت نسبة المبدعين من فحول الشّعراء في جانب الذين يَتّبِعهم الغاوون هي النِّسبة الأكبر، أمّا الذين درَعَ الاستثناء القرآني فقد كان فيهم موهوبون ذوو قدرات عالية تؤهِّلهم لأن يكونوا من فحول الشُّعراء، إلاَّ أنَّهم فيما أرى آثروا الإبداع في العلوم الإسلامية والاشتغال بها عن توجيه كل اهتمامهم للشِّعر، فلم يُبَرِّزوا به كما برّز الآخرون. وفي ظنِّي لو أراد الإمام الشافعي أنّ يكون شاعراً لبزّ أبا نواس في الشِّعر. ولكنّه آثر أنّ يكون عالماً فقيهاً.

وقد تكون شدّة الحذر من الانزلاق بالشِّعر إلى فئة الّذين يتّبعهم الغاوون قد كفَّت كثيراً من الذين يملكون في فطرتهم القدرة الشِّعرية العالية عن أن يخوضوا بحور فنونه، ويستخدموه للدّعوة ويبلغوا فيه إلى مستوى فحول الشُّعراء.

الغرض الفكري البياني من الصورة البلاغيّة المختارة:

ليس يكفي إيراد الكلام وفق صورة من الصُّوَر البلاغيّة التي يذكرها علماء البلاغة، بل لا بدّ من ملاحظة غرض فكريّ بياني تؤديه هذه الصورة المختارة.

إنَّ نسبة الجمال في الكلام ترتقي جداً حينما تُدرك أنّ الأديب قد اختار الصورة البلاغيّة التي أوردها في كلامه لغرض فكريّ زائد على مجرّد اختيار صورة جماليّة بلاغيّة يذكرها علماء البلاغة.

إنَّ الصورة البلاغية مهما كانت جميلة في ذاتها تغدو كجسد بلا روح إذا كانت خالية من غرض فكري بياني تهدف إليه في البيان، باستثناء عناصر الجمال اللّفظي أو الموسيقي، والزِّينات التي لا تحتمل أداء غرض فكريّ بيانيّ.

ولدى بحث أيِّ جانب بلاغي في كلام رفيع من كلام البلغاء ينبغي البحث لاستجلاء الغرض الفكري من الصورة البلاغيّة، فليس المهم مجرّد الإِشارة إلى الصورة البلاغيّة، إنَّما المهم بعد ذلك هو استجلاء الغرض الفكري البياني من ورائها.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} إنَّ الصورة البلاغيّة في النَّص تتلخَّص بإسناد السيلان إلى الوادي، مع أنّ المراد سيلان الماء فيه. فهل انتهينا من البحث.

إنَّ الذي يملك الحسَّ الأدبي الرفيع يقول: لا. لأنَّه يتساءل: ولماذا أسند السيلان إلى الوادي بدل إسناده إلى الماء؟ وما الدَّاعي إلى ذلك وما هو الغرض منه؟. وبالتأمّل يجد الجواب على تساؤله، إذ يرى أنَّ الغرض الفكري البياني من هذا الإِسناد هو إعطاء السامع أو القارئ صورة تُشْعِرُ على سبيل التخيّل بأنَّ الوادي يسيل فعلاً لكثرة تدفّق الماء وارتفاع نسبته في جانبي الوادي.

وهذه الصورة قد تحدث في وهم الإِنسان أو في تخيّلاته حينما يشاهد هدير الماء الكثير الذي يغمر قدراً كبيراً من الوادي.

فالتعبير إذن تصوير صادق لما يَجْرِي في التخيُّل لدى مشاهدة الحدث المادي.

إذن ينبغي للأديب أن يراعي ذلك في كلامه، وعليه أن يلاحظ باستمرار أنّ كبار البلغاء حينما يعطفون في كلامهم عن مجراه إلى صُوَر بلاغيّة يختارونها إنَّما يفعلون ذلك لأغراض فكريَّة بيانيَّة يهدفون إليها، ولا يكتفون باختيار الصُّوَر البلاغيّة لمجرّد أنَّها صور بلاغيّة، وهذا ما يعطي كلامهم ارتقاء أدبياً عظمياً، وجمالاً مكثَّفاً مضاعفاً.

الجمع بين الأشياء المتضادّة:

وقد يكون من عناصر الجمال الأدبي في الكلام الجمع بين الأشياء المتضادّة في صورة كلاميّة متناسقة.

وذلك لأنَّ الأضداد سريعة التخاطر في الأذهان، فإيرادها قد يُحْدِثُ ارتياحاً جماليّاً في النَّفس.

وفي الصُّوَر الحِسِّية مِشَاهِدُ للتضاد أمثال ذلك، فمن المشاهد الحسِّيَّة الجميلة مشهد جبل أجرد إلى جانب وادٍ أخضر فيه جنّات ألفاف. ومشهد قصر راسخ ثابت البنيان ضمن عاصفة هوجاء تقتلع ما على الأرض من أشجار وأكواخ وأشياء كثيرة.

ومشهد سفينة ثابتة كالطُّوْد في خِضمّ بحرٍ هائج وعاصفة بحريّة ثائرة. ومشهد وجه منير كالبدر ضمن شعر منسابٍ كالليل.

والحسّ الذوّاق للجمال يتحكّم بإدراك التناسق أو التنافر في الصورة التي تجمع بين المتضادّات، إذ ليس كلّ جمع بين المتضادّات يُحْدِثُ هذا الارتياح النَّفسي. فمثلاً: لا ترتاح النُّفوس لدى ذكر ما يثير تقزّزها ونفورها، وإن كان ذلك مقابل ذكر ضدّه أو نقيضه، إنّ ذكر المُحْزِنات لدى ذكر المُفْرِحات أمرٌ مستنكر تنفر منه الطباع، ما لم يكن عَرَضاً لمبادئ عامّة لها طابع التأمّل الفلسفي، وإنّ ذكر المستقذرات في مقابل الطيِّبات أمرٌ مستهجن تنفر منه النُّفوس ولا ترتاح له. وهكذا.

فمن أمثلة المزدان بعنصر الجمع بين الأضداد الذي يُحدث إعجاباً وارتياحاً في النفُّوس، ولا يُحدث نفوراً ولا انزعاجاً ولا تقزّزاً، مايلي:

قول الله تعالى في سورة (النجم):

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ النجم: ٤٣ - ٤٦

وقول الله تعالى في سورة (الحج):

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4) ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الروم):

﴿ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7) ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأعلى):

﴿ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا (13) ﴾.

عاشراً – مسايرة المخاطب في تداعي أفكاره:

وقد يكون من عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام مسايرة المخاطب في تداعي أفكاره، بالمقدار الذي يُحْدِثُ الارتياح ولا يُورِث الملل.

إنَّ ممّا يُحْدِثُ المسرّة والارتياح في الكلام أنْ يُتَابِعَ الأنفس فيما تسترسل به من أفكار تداعي، ويَجْلُبُ بعضها بعضاً، ويُمَسِكُ بعضها بأعناق بعض، بشرط عدم الاسترسال المملّ. إنّ المَلَلَ متى بدأ يدبّ إلى النَّفس بالاسترسال مع أفكارها المتعانقة، كان قطع هذا الاسترسال والانتقال إلى عنصر المفاجأة هو الأرفع أدباً

والأكثر تأثيراً، لأنّه يقدّم صورة جماليّة جديدة، بشرط أن تكون المفاجأة حُلْوَةً، لطرافتها أو غرابتها أو بُعد خطورها في الأذهان، أو غير ذلك.

وكثيراً ما يكون قطع الاسترسال وترك النَّفس لتستكمل بذاتها بقيّة العناصر هو الأجمل لديها، والأحبّ لمشاعرها.

والأديب ذو الحسّ المرهف يستطيع أن يُدْرِكَ متى يحسن الاسترسال مع تداعي أفكار المخاطب أو القارئ، ومتى يحسن قطع الاسترسال، ومتى يحسن الانتقال لأمر مثير بالمفاجأة الحلوة المعجبة.

فمن أمثلة المسايرة الحلوة لتداعي الأفكار قول الله تعالى في سورة (فاطر):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ فاطر: ٢٧ - ٢٨

إنّ الحديث عن اختلاف الألوان في الثمرات يستدعي في الأفكار تصوّر اختلاف الألوان في الجبال، لأنّها هي التي تبرز في اللّوحة الفنيّة أوّلاً بعد النّظر إلى الثمار في أشجارها، فيخطر اللّون الأبيض منها على اختلاف درجاته، فالأحمر على اختلاف درجاته، ثمّ الأسود، ثمّ ينتقل الذهن بالتداعي الفكري إلى الألوان في الدوابّ والأنعام. هذا هو الأمر الغالب بالنسبة إلى واقع أحوال النّاس.

ولا يخفى أنّ متابعة الأفكار في تداعيها الذاتي كثيراً ما يكون مريحاً للنُّفوس، ومُعْجباً لها، فهو إذن من عناصر الجمال الأدبي، إذا استوفى شروطه، وخلا من المنفِّرات أو المزعجات، ولم يَطُلْ حتى يُحدِثَ المَلَلَ والسّأَم.

ومن الأمثلة أيضاً: قول الله تعالى في سورة (الغاشية):

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ الغاشية: ١٧ - ٢٠

ففي هذه الآيات تصوير للوحة فنّية متحرِّكة، تبدو بالتتابع كما هي في النَّص، بالنسبة إلى الناظر الجالس في الصحراء، إذا مرّت بعيداً عنه قافلة من الإِبل. إنّ أوّل ما يلفت نظره لدى مشاهدة هذه اللّوحة من مشاهد الطبيعة، أنّ يتركَّز انتباهه في مشاهدة قافلة الإِبل، وتكون القافلة بالنسبة إليه هي بؤرة المشهد، لأنّها هي المتحرِّك الآسر الجالب للانتباه، وتلقائيّاً ينتقل نظره بعد ذلك إلى الأفق، من مستوى نظره إلى أسنمة الجمال إلى الأفق، حتّى إذا ملأ نظره من الأفق نزل ليرى الجبال من بعيد، ثمّ بعد ذلك ينخفض نظره ليركزّ انتباهه في مشاهدة الأرض المنسطحة.

وعلى وفق هذا المشهد الذي يتكرّر لدى كثير من سكان الصحراء في خيامهم ولدى عابريها جرى تصوير الصورة الكلاميّة، وقد وافق التسلسل فيها التسلسل الذي يَحْدُثُ غالباً عند النَّاس، لدى مشاهداتهم لمثل هذه اللوحة في الصحراء. وهذا من عناصر الجمال الفنّي لا محالة.

نقل الأسماء أو الصِّفات من مواضعها الطبيعيَّة وإضفاؤها على غيرها:

* قد يكون من عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام نقل الأسماء أو الصِّفات من مواضعها الاصطلاحيّة أو الطبيعيّة وإضفاؤها على غيرها، لوجود ما يستدعي في التخيّل هذا النقل، وإن لم يكن في الواقع كذلك.

فمن ذلك نقل صفة الحالّ في الشيء وإضفاؤها على ذلك الشيء كقولنا: "جرى النهر" مع أنّ الجريان هو للماء في النّهر، ولكنّ التخيّل ربَّما أحسّ لدى مشاهدة جريان الماء في النّهر أنّ النّهر يجري أيضاً مع الماء.

ومن بديع هذا النَّقل قول الشاعر:

*وسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

فقد أضْفَى صفة السيلان على الأباطح، وهي لما يمرّ فيها، بعد أنّ أضفاها على أعناق المطيّ وهي للماء، لأنّ التخيّل يلحظ صفة سيلان الماء حينما يشاهد أعناق الإبل تتموّج وهي تسير على الأباطح.

ومن بديع هذا النَّقل أيضاً قول الله تعالى: {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} ففيه إضفاء السيلان على الأودية، وهي لماء السيول فيها، لأنَّ الأودية حينما تسيل فيها السيول العارمة تُوقِعُ في خيال المُشَاهِد المندهش أنّ الأودية والجبال أنفُسَها تسيل مع حركة المياة الجارفة فيها.

ومن بديع هذا النَّقل أيضاً قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

"ومَنْ بَطَّأ به عمله لم يُسْرِعْ به نسبه".

ففيه إضفاء صفة التبطيء على العمل، هي في الأصل صفة للكسل أو التقصير في العمل، ولكنّ التخيّل إذا رأى العامل المقصِّر الكسول تصوّر أنّ عمله هو الذي يطّأ به، إذ العمل هو الحركة المشهودة، أمّا الكسل أو التقصير فيهما لا يُشَاهَدَان نظراً، وإنّما يُدْرَكَان فكراً، وفيه إضفاء صفة الإسراع أو عدمه على النَّسب! لأنَّ النَّاس يتخيَّلون أنّ من لم ينَل السبق بعمله ربَّما ناله بنسبه، فيُعْطَى ذو النَّسب الكريم مَنْزِلَ السبق لمجرّد نسبه.

ويدخل في هذا العنصر نقل صفة الحيّ وإضفاؤُها على الذي لا حياة له، ونقل صفة الذي لا حياة له وإضفاؤها على الحيِّ، لأنَّ التخيُّل يلاحظ في المنقول إليه لمحات من صفة المنقول منه، ومن هذا استنطاق الجماد الذي لا ينطق، ومخاطبته كأنَّه ناطق يتكلّم.

البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النَّفسيّة:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النَّفسيّة والأفكار. وقد تكون هذه البراعة بتقديم الفكرة من خلال نظير حسّي، أو بالمبالغة في تصويرها، أو تصوير آثارها، أو غير ذلك.

أمثلة:

قول الله تعالىٰ بشأن المنافقين فية سورة (المنافقون):

{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ...}[الآية 4].

ففي هذا إبراز بارعٌ جدّاً، وتصويرٌ بديع لحالة الذُّعر الشديد الذي يعانون منه في داخل أنفسهم، وقد دلّ علىٰ هذه الحقيقة المبالغة، لأنّ الخائف المذعور جدّاً قد يسمع صياح المُنجِد له فيتصوّره صياحاً ضدّه.

وقول الله تعالىٰ في سورة (البقرة) يصف حال أناس داهمهم مطر شديد فيه ظلمات ورعد وبرق:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ البقرة: ١٩ ففي المبالغة بأنهم يجعلون أصابعهم في آذانهم إبرازٌ لصورة حالتهم النَّفسية، التي تدفعهم إلىٰ سدّ مسامعهم بكلّ أصابعهم، فلو أنّهم استطاعوا إدخال كلّ أصابعهم في آذانهم لفعلوا.

وقول الله تعالىٰ في سورة (مريم) حكاية لقول زكريّا عليه السلام إذ نادىٰ ربّه نداءً خفيّاً:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ مريم: ٤

ففي تصوير تساعر انتشار الشيب في رأسه حتىٰ عمّ الرأس بحالة الاشتعال الذي يسارع انتشاره في الهشيم، براعة تدلّ علىٰ الحالة النّفسية التي أخذ يعاني منها، والتي بدأت تكويه بنار اليأس التي أخذ لَهَبُهَا ينتشر شيباً في شعر رأسه. وقول الله تعالىٰ في سورة (القمر):

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ القمر: ١١ - ١٢

ففي هذا النّص تصويرٌ بارع يُبْرِزُ مشهدَ انصباب الماء من السماء، حتىٰ كأنّ أبواباً فيها هي بمثابة سُدودٍ فتحت فانصبّ الماء المنحصر وراءها. ويُبْرِزُ مشهدَ تفجُّر الماء من مواضع لا تحصىٰ من الأرض، حتّىٰ لكأنّ الناظر إلىٰ الأرض يرىٰ أنّها كلّها قد صارت عيوناً يتفجّر الماء منها تفجّراً، ليلتقي في بحرٍ طامٍ خِضَمٍّ لا يُبْقِي ولا يذر. ومن البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النّفسية، والأفكار، تجسيدُها في أمثلة حسيّة ماديّة، كتمثيل العلم بالنور، والجهل بالظلمات. وكتمثيل الكفر بالعمىٰ، والإيمان بالبصر. وكتمثيل القرآن بقلب المؤمن في هدايته بمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنّها كوكب درّي.

قال الله تعالى في سورة (النور):

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ النور: ٣٥

ففي هذه الآية ضرب الله مثلاً لنور القرآن المعنوي بمصباح أرضي من صنع النّاس، ذي نور صافٍ من أيّةِ شائبة، وهذا النّور يتلألأ كالكوكب الدرّي، والقرآن بالنسبة إلى سائر كلام الله كقطَرة من بحر، وكذلك نور المصباح بالنِّسبة إلى سائر ما خلق الله من نور في الكون الكبير.

ومن تجسيد المعاني والمشاعر والأحاسيس في أمثلة حِسّيَّة ماديَّةٍ في الاستعارات التالية: إعصار الهوىٰ. عبير الوجدان. بَرْد اليقين. نار الحب. رياح العاطفة الشجيّة. حلاوة الإيمان... إلى غير ذلك من تعبيرات.

احترام فكر المخاطب وتقديره بترك استخدام الأسلوب المباشر:

وقد يكون من عناصر الجمال الأدبي في الكلام احترامُ فكر المخاطب وتَقْدِيرُه بترك استخدام الأسلوب المباشر، اعتماداً على أنه لَمّاحٌ تكفيه الإشارة الخفيفة والخفيّة، أو بترك الإطناب والشرح، واللّجوء إلى الإيجاز والرمزية.

ويدخل في هذا الكنايات، ورموز الأقوال، والتلميحات، والمعاريض، ونحو ذلك.

ولا ريب أنّ من احترام فِكر المخاطب وتقديره الإيجازَ له في الأشياء التي يمكن أن يفهمها بنفسه، إذا كان أهلاً لذلك، ويَحْسُنُ هذا الإيجاز جدّاً إلى حدّ الرمز في مواقف خاصّة، منها أنّ يتطلب الموقف إعلام المخاطب وحده، مع إخفاء الأمر عن حاضري مجلسه.

ومن روائع التلويح إلى المعاني بالإشارات التي لا تفهم إلاّ بذكاء لمّاح، استعمال لفظة الكفّار المرادفة للفظة الزارع في قول الله تعالى في سورة (الحديد):

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ الحديد: ٢٠

فقد استعملت هذه اللّفظة "الكُفّار" المرادفة في معناها هنا اللفظة "الزرّاع" بدل استعمال لفظة "الزرّاع" تلويحاً بأنّ مقابل الزرّاع في المثل هم الكفّار في الممثَّل له، فالمعجبون بزينة الحياة الدُّنيا المغرورون بها هم الكفّار، ويقابِلُهُمْ في المثل الزرّاع الذين يعجبهم النّبات إذا نزل عليه الغيث فاخضرّ وأنبت.

ولَمّا كانت تطلق في اللّغة لفظة "الكفّار" على "الزرّاع" لأنّهم بزرعهم يدفنون الحبّ في الأرض فيسترونه، والكفر في اللّغة هو الستر، اختيرت لفظة "الكفّار" هذه

بالذّات، لتدلّ على الزرّاع في مكانها التي استعملت فيه، ولتلوِّح بأنّ مقابِلَهُمْ في الممثَّل له هم الكفّار بيوم الدين.

ويزيدنا ثقّة بأنّ اختيار هذه اللّفظة هنا كان مقصوداً، لتَحْمِل هذا التلويح الذي لا يُتَنبَّه له إلاّ بذكاء لمّاح اختيارُ كلمة "الزرّاع" في موقع آخر من القرآن، لأنّ ذلك الموقع لا حاجة فيه إلى مثل هذا التلويح، وهو ما جاء في وصف أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل، كما روت لنا سورة (الفتح) إذ قال الله تعالى فيها:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ الفتح: ٢٩

فقد استعملت هنا لفظة "الزُّرَّاع" لأنّ مقابلها في الممثّل له ليسوا بكافرين، بخلاف "أَعْجَبَ الكفَّارَ نَباتُهُ".

تقريب الصورة الغائبة بوضعها في صورة مشهودة النّظير أو مخيّلة:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام تقريب الصورة الغائبة، وذلك بوضعها في صورة مشهودة النظير، أو في صورة متخيَّلة في أذهان المخاطبين.

فمن تقريب الغائب بوضعه في صورة مشهودة النظير ما جاء في القرآن والسنّة من تمثيلٍ أو تسميةٍ لما في الدّار الآخرة من أحوال وأحداث ومكوّنات.

ففي الصحيح عن ابن عباس أنّ النّبي صلى الله عليه وسلم قال:

"لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ مِمَّا فِي الدُّنْيَا إلاَّ الأسْمَاء".

ومن تقريب الغائب بوضعه في صورة متخلية في أذهان المخاطبين، وصف طلع شجرة الزقوم بأنّه يُشْبِهُ رؤوس الشياطين، وهو ما جاء في سورة (الصافات) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾
الصافات: ٦٤ ـ ٦٥

طَلْعُها: أي ثمرها.

ففي أخيلة النّاس صورةٌ بشعة مرعبة لرؤوس الشياطين، فجاء تقريب صورة طلع هذه الشجرة الخبيثة، بأنّه أبشع وأقبح صورة تتخيّلونها، وهي رؤوس الشياطين.

الإتقان في إبراز دقائق الصورة:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام الإتقان في إبراز دقائق الصورة، ماديّةً كانت أو غير ماديّة، وذلك لدى رسمها في الصورة الكلاميّة، مع استيفاء العناصر اللازمة لإبراز الحقيقة بشكل جميل وواضح.

ويزيد الصورة جمالاً تركُ جوانب فيها يُتَابعها الفكر وحده، ويستكملها الخيال بنفسه، مع إيجاد المنافذ أو الإشارات التي يُمَكِنُ الانطلاق منها إلى هذه الجوانب المتروكة، كالرمز، والإشارة الخفيّة، وما يستتبعه الكلام باللّزوم الذهني، وغير ذلك.

ونلاحظ هذا العنصر الجمالي في قول الله تعالى في سورة (النور): ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ النور: ٣٩ - ٤٠

القيعة: كالقاع وهو ما استوىٰ من الأرض.

لجِّيّ: أي عظيم عميق.

وفي قوله تعالىٰ عقب النّص السابق بآيتين:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ النور: ٤٣

يُزْجي: يَسُوق برفق.

رُكَاماً: أي: بعضه فوق بعض.

الوَدْق: المطر.

سَنَا: ضَوْء.

أَلَسْنا نلاحظ في هذه الأمثلة الثلاثة إتقاناً عجيباً في إبراز دقائق الصورة، مع استيفاء العناصر اللازمة لإبراز الحقيقة بشكل واضح وجميل، ومع ترك جوانب في الصورة يتابعها الفكر وحده، ويستكملها الخيال بنفسه.

فالصورة في المثال الأوّل قدّمت أعمال الكافرين على شكل سراب، يراه الظمآن السائر في الصحراء وهو بعيد عنه ماءً، فيسعى إليه ليشرب من مائه، ويُطْفِىءَ ظمأه، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، لأنّه كان انعكاس أشعةٍ تُخيِّل للناظر إليه من بعد أنّه ماء.

وكذلك حال الكافر الذي يقدِّم أعمالاً يَظُنُّ أنّها تُسعدهُ في دنياه، أوتنفعه في آخرته، وما هي في الحقيقة إلاَّ بمثابة سراب، وهو إذا وصل إلى موطن المحاسبة والجزاء على الأعمال، لم يجد أعماله شيئاً، لأنّها لم تكن ثمرة إيمان بالله واليوم الآخر، بل وجد الله عنده هو الذي له الحكم والأمر، وبيده الحساب والجزاء، فوفّاه حسابه بعدله وحكمته، فحاسبه على كفره، فسقط بالمحاسبة على الكفر كلُّ عمل صالح كان قد عمله، لأنّه لم يكن قائماً على أساس مقبول عند الله.

والصورة في المثال الثاني صوّرت الحالة النفسيَّة والفكرية والقلبية للّذين كفروا، بعد أنْ تركوا نور الهداية الربّانيّة، بحالة من هو في ظلماتِ قاعِ بحرٍ عميق، فوقه أمواج في العمق تزيد الظلمة، فوقها أمواج في السطح تضاعف الظلمة، فوقها سحاب يزيد

الظلام ظلاماً، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها لشدّة الظلمة.

ومن كان كذلك فلا بدّ أن يسلك مسالك المهالك.

وكذلك حال الذين كفروا في أعمالهم، وفي تحديد الغاية من أعمالهم، وفيما يقرّرون من أسباب لذلك. إنّهم يطلبون سعادتهم في الظلمات، فقلوبُهُمْ مظلمة بالكفر، ونُفُوسُهمْ تائهة في بحر لُجيّ من ظلمات الأهواء والشهوات، وأفكارُهُمْ تسبح في ظلمات أسباب لذّات الحياة الدنيا، وإراداتُهم تتخبّط تحت كلّ هذه الظلمات. والصورة في المثال الثالث رسمت حركة السُّحب الخفيفة الموزّعة، وكيفية سوقها الرفيق، ثم رسمت التأليف بينها وتجميعها، حتّى تُغَطِّي ما فوقها من سماء، ثم رسمت تكديس بعضها على بعض حتى تتراكم وتكون كالجبال القائمة بين السماء والأرض.

ثم انتقلت الصورة إلى رسم خروج حبّات المطر من خلال السحاب المتراكم، وتركت للخيال سائر الظواهر التي تحدث، ليتمّها بنفسه من رعد وبرق ورياح. ثم انتقلت إلى ظاهرة نزول البَرَد بدل المطر، وألمحت إلى أنّ السحاب المتراكم يكون في هذه الحالة بمثابة جبالٍ من بَرَدٍ اجتمع بعضه إلى بعض، إذْ قد جمَّدت البرودة وحدات مائيّة فيها فكانت بَرَداً.

ولّما كان المطر أقرب إلى أن يكون ظاهرة رحمة، والبَرَد أقرب إلى أن يكون ظاهرة عذاب مع احتمال خلاف ذلك في كل منهما، رتّبت الآية على كُلٍّ منهما قوله تعالى:

{فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ}. أي: رحمةً كان أو عذاباً.
ثم رسمت الصورة لمحة من ظاهرة البرق، فقال تعالى:

{يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (43)}.

فكم من هذه الأمثلة من إتقان في إبراز دقائق الصورة، مع استيفاء العناصر اللاّزمة لإبراز الحقيقة بشكل واضح وجميل، ومع ترك جوانب منها يستطيع الخيال أن يستكملها بنفسه دون عناء.

* ومن ترك ما يستكمله الفكر بنفسه في الكلام، ما نلاحظه في الأمثلة القرآنية التالية:

قوله تعالى في سورة (الرعد): ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ الرعد: ٣١

أي: لكان هذا القرآن. فقد ترك في هذه الآية جواب "لو" لأنّ المخاطب أو القارئ المتدبِّر سيستكمله بنفسه، إذ يعلم أنّ هذا القرآن العظيم هو أعظم كتاب أُنزل، وقد اشتمل على كلّ فضائل الكتب السابقة.

وقول الله تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ الأنبياء: ٣٩

أي: لو يعلمون ذلك ما كفروا. فقد ترك في الكلام جواب "لو" وبقي مكانه فارغاً، ليستكمله المخاطب أو القارئ المتدبّر بنفسه.

ووصفُهم بالكفر مع تلويمهم عليه في السياق وترتيب صُوَر العقاب عليه يومئ إلى ما يملأ هذا الفراغ في الكلام بالجواب المناسب.

وقول الله تعالى في سورة (الرعد):

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ الرعد: ٣٣ أي: أفمن هو قائم على كلّ نفسٍ بما كسبت كشركائهم الذين لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ضرّاً، أو يجلبوا لأنفسهم نفعاً!

فقد تُرك التصريح بهذا، وأبقي مكانه في النّص فارغاً لأمرين.

الأوّل: ليستكمله المخاطب أو القارئ المتدبّر بنفسه.

الثاني: لعدم استحقاق شركائهم الذكر والمقارنة بالله الخالق الحكيم، الذي هو قائم على كلّ نفس بما كسبت.

لفت النّظر إلى معانٍ دقيقة لا يَتَنَبَّهُ لها الذهن العادي من أوّل وهلة:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام لفت النَّظر إلى معانٍ دقيقة لا يتنبّه لها الذهن العاديّ من أوّل وهلة، لكنّه إذا لُفِتَ نَظَرُهُ إليها، أو انتبه لها بنفسه أُعْجِبَ بها، وربّما أحسّ أنه امتلك أمراً طريفاً لم يكن يخطر على باله.

ومن أمثلة هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح:

"ومن بطّأ به عمله لم يُسرع به نسبه".

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح:

"لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ".
وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح:

"أنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً" قيل: كيف أنصره ظالماً؟ قال: "تَحْجُزُهُ عَنِ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ".

فنبّه الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الأقوال على أفكار طريفة قلّما يتنبّه لها الذهن العادي، وقلّما تَخْطُر على البال، لا سيّما ماجاء في بيان نصر الظالم، فمن المثير للاستغراب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نُصْرَةِ إخواننا الظالمين، لكن من المريح والمثير للإعجاب تفسير ذلك بَحَجْزِهِمْ عن الظلم، وكفِّهِمْ عن ممارسته والقيام به، لئلاّ يوقعهم في المهالك.

ومن الأمثلة أيضاً قول المتنبِّي:

*يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ * وِجدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ عَدَمُ*

إنّ صدر هذا البيت يشتمل على معنى مبذول، يتداوله النّاس، وتستعمله الخاصّة والعامّة.

لكن لما جاء عجز البيت: "وِجْدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدُهُمْ عَدَمُ". ارتقى الكلام ارتقاءً عالياً، إذ جعل حيازته لكل شيء بعد مفارقة ممدوحه عدماً أو بمثابة العدم، وهذا معنى دقيق قلّما يخطر على البال، فَنُدْرَةُ خُطُورِه على البال لدى معظم النّاس أَغْلَى قيمته الأدبيّة.

ونظير ذلك قوله في القصيدة نفسها:

*إِنْ كَانَ سَرّكُمُو مَا قَالَ حَاسِدُنَا * فَمَا لِجُرْحِ إِذَا أَرْضَاكُمُو أَلَمُ*

فالفكرة التي تتبادر إلى كلّ الأذهان، أن يقول المحبّ لمحبوبه: إنني أصبر على ألم الجرح الذي يَسُرُّك، لأنها هي التي تعبرّ عن واقع حال معظم المحبين الصادقين في حبهم، لكن فكرة انعدام وجود الألَمِ كُلّياً، بتأثير سرور المحبّ بما يُسَرُّ به محبوبة فكرةُ تَقِلُّ خطوراً على البال، لأنّها نادرة الوجود في الواقع، فاكتسب النّص بذلك إضافة جماليّة أَغْلَى قيمته الأدبيّة.

تصوير الواقع بالصورة المتخيّلة منه لدى مشاهدته:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام تَصْوِيرُ الواقع بالصورة المتخيَّلة منه لدىٰ مشاهدته، ولو في بعض الأحيان، أو في بعض اللّمحات.

ففي هذا التصوير عنصر المبالغة الخياليّة في الدلالة علىٰ الحقيقة.

وفيه أيضاً التأثير النفسيّ علىٰ السامع أو القارئ، إذْ يُرْسَمُ له في التعبير الكلامي مِثْلُ ما أحسّ هو به، دون أنْ يُعبِّر عنه، أو دون أن يستطيع التعبير عنه، أو جاءه أمر طريف حلوٌ كان غافلاً عنه، فلمّا نُبِّهَ عليه أعجبه فتمثّل له في الخيال، ورأىٰ أنّه كان ينبغي له أن يتخيّله.

وأستطيع أن أمثّل لهذا العنصر بما يلي:

(1) بقول الله تعالىٰ في سورة (الرعد):

{...فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...}.

(2) وبقول الشاعر:

"وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الأَبَاطِحُ".

(3) وبقول الله لنوح عليه السلام في شأن ولده الذي أَبىٰ أن يركب معه في السفينة، كما قصَّ تعالىٰ علينا في سورة (هود/ 11 مصحف/ 52 نزول):

{...إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...} [الآية 46].

فالصورة التي قد تتركزّ في الخيال لدى مشاهدة إنسان ليس له عمل صالح، أنّه كتلة من عمل غير صالح، وتنعدم الذات وسائر أعمالها، ولا يبقى في التَّخيُّل إلاّ صورة العمل غير الصالح ومن كان كذلك فهو لا يستحقّ الشفقة عليه.

(4) وبقول الله تعالى في سورة (الحج):

{...وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)}.

هامدة: أي ميّتة يابسة.

رَبَت: أي نمت وانتفخت.

بهيج: أي حسن يسرّ الناظرين.

ففي هذا النّص أسند الاهتزاز إلى الأرض مع أنّه للنبات، لأنّ الناظر إلى الأرض المنبتة إذا مرّت عليها الرياح فهزّت نباتها، قد يتخيَّل أنّ الأرض هي التي تهتزّ، مع أنّ المهتزّ هو ما نبت فيها، ورَبَا فوقها.

وكذلك "رَبَت" أي ربا النبات فيها.

حُسْنُ تركيب الجمل وانتقاءِ المفردات ذوات الدلالات الأدقّ:

ومن عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام حُسْنُ تركيب الجمل، بتنظيم مفرداتها على وفق نَسَق متلائم لا تنافر فيه ولا تشاكس، كتنظيم حبّات عقد اللُّؤلؤ من قبل منظّم

ماهر، وكتنظيم الجواهر على حلية نفيسة، من قبل صائغ بارع، مع العناية بالتزام أصول دلالات التراكيب التي نبّه عليها علماء المعاني.

وكذلك انتقاء المفردات الجميلة التي تحمل أقوى وأحلى وأدقّ دلالة على المعنى المراد، مع توافر عنصر الملاءمة بينها وبين مضمون الكلام بوجه عامّ، وحال المخاطبين به.

والقرآن الكريم كلّه هو النموذج الأعلى لذلك، ثم روائع أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، ثمّ من بعد ذلك كلام كبار البلغاء والفصحاء.

احترام المخاطب بالتأدّب معه ورعاية مشاعره:

ومن عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام احترامُ المخاطب بالتأدّب معه، ورعاية مشاعره، وذلك بالابتعاد عمّا يشمئزّ منه، وبِعَدَم مواجهته بالألفاظ الصريحة الدالّة على المستقذرات، أو المعاني التي يَجْمُل التستّر بها مع أنّها معلومة.

والأديب ذو الحسّ المرهف يُلْقِي على المعاني التي لا يجمل التصريح بها سِتْراً كلامياً، إذ يدلُّ عليها بالكنايات والإشارات والتلميحات ومعاريض الألفاظ. ومن أمثلة ذلك مايلي:

(1) قول الله تعالى في سورة (النّساء): ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ

بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ ﴾ النساء: ١٩

من الغائط: أي من المكان المنخفض الذي يذهب إليه عادةً من يريد قضاء حاجة الإنسان، والتعبير بقوله تعالى:

{أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ}. فيه كناية عن قضاء الحاجة الناقضة للوضوء. أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ: فيه كناية عن الجماع وهو عمل يجب ستره و إن كان مباحاً، فَحَسُنَ في الكلام ستره بالكناية.

ما حُكي عن أم المؤمنين عائشة عن حالها مع الرسول في عدم النَّظر إلى العورات: "ما رأيت منه ولا رأى منّي" تعني العورة المغلَّظة.

تخصيص بعض المترادفات بما فيه خَيْرٌ وبعضها بما فيه شرّ:

ومن عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام تخصيص بعض المترادفات ذات الدلالة اللّغويّة العامّة بما فيه خير ورحمة، وتخصيص بعضها الآخر بما فيه شرّ وعذاب.

وهذا من الأدب القرآني الرفيع، ومنه مايلي:

(1) قول الله تعالى في سورة (النساء):

{مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا (85)}.

ففي جانب الشفاعة الحَسَنة استعملت كلمة "نصيب" وفي جانب الشفاعة السيِّئة استعملت كلمة "كِفْل" مع أنَّ الكِفْلَ والنصيب مترادفان في اللّغة، ويستعملان في الخير والشرّ، والرحمة والعذاب، ولكنّ تباين النصيبين في الحقيقة اقتضىٰ في أدب اللّفظ التَّغَايُر في الكلمات الدّالاّت علىٰ المراد ضمن النصّ الواحد.

فالتغيير هنا جاء بتغيير اللّفظ كلّها مادّة وصيغة.

(2) وقول الله تعالىٰ في سورة (البقرة/ 2 مصحف/ 87 نزول):

{لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...} [الآية 286].

فاختار النّص كلمة "كَسَبَتْ" لجانب العمل الصالح، واختار كلمة "اكْتَسَبَتْ" لجانب العمل السيِّىء، مع أنَّ كلاًّ من اللّفظين يستعمل في كلٍّ من المعنيين، ولكنَّ لما اجتمع المعنيان في نصٍّ واحد مفرّقين في موضعين منه، دعا الجمال الأدبي أنْ يُوجَدَ تفريق في اللّفظين، ولو في الصيغة فقط مع اتحاد مادة الكلمة، يضاف إلىٰ ذلك ما في كلمة (اكتَسب) من معنىٰ التكلّف الذي يُنَاسِبُ حَمْل الوزر.

وفي آيات أخرىٰ اجتمع المعنيان، ولكن غير مفرّقين في موضعين من النّص، أو انفرد كلٌّ منهما في النّص بنفسه، فاجاء التعبير تارة بكسب في العمل الصالح والعمل السيِّىء، أو في أحدهما، وتارة بـ"اكتسب" فيهما أيضاً أو في أحدهما. والمتدبّر للقرآن عندئذٍ لا يلحظ في صيغة "اكتسب" فيهما أيضاً أو في أحدهما.

والمتدبّر للقرآن عندئذٍ لا يلحظ في صيغة "اكتسبت" أكثر من زيادة معنى التكلّف، وأنّ العمل قد كان فيه عَطَاءٌ يَزِيدُ عل العطاء في العمل العادي.

ومن ذلك ما جاء في القرآن من تخصيص لفظةم "الريح" غالباً في التي تأتي بعذاب وهلاك. وتخصيص لفظة "الرياح" في التي تأتي بنعمة ورزق وخير. فالتفريق هنا جاء بتغيير اللّفظة بين الإفراد والجمع، ومنه قول الله تعالى في سورة (الأعراف):

{وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ} [الآية 57].

وقوله تعالى في سورة (الأحقاف):

{...بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24)}.

وقد يكون للريح الواحدة أثر في التدمير والعذاب، بحسب تواترها وشدّتها، أمّا التي تأتي بُشْراً بين يدي رحمة الله، فإنّها قد تكون أنواعاً من الرياح تحمل الخير ويدفع الله شرّ بعضها ببعض. أو نقول: اختر الله عزّ وجلّ لفظ الجمع "الرياح" للتي تأتي بنعمة ورزق وخير لأنّها هي الأعظم والأكثر في واقع الحال، إذ رحمته سبحانه سبقت غضبه، واختار لفظ المفرد "الريح" للتي تأتي بعذاب، لأنها هي الأقلّ في واقع الحال، فدلّ على الكثرة بالجمع وعلى القلة بالإفراد. والله أعلم.

الفصاحة في اللّغة

الفصاحة عند أهل اللّغة: البيان، والإفصاح: الإبانة. يقال لغة: فَصُحَ الرَّجُلُ فَصَاحةً فَهُو فصيحٌ، إذا كانَ في كلامِهِ قادراً على أن يُبَيِّنَ مُرَاده بوضوحٍ دون عَجْزٍ، ولا تَلكُّؤٍ، أو تعثُّرٍ، في نُطْقِ الألْفَاظ، أو في اختيار الكلمات الدالاَّتِ على ما يُريدُ إيضاحَهُ من المعاني للْمُتَلقّين.

ويُجْمَعُ "فَصيح" على فُصحاء، وفِصاحٍ وفُصُح. والأنْثَى فصيحةٌ، وهُنَّ فَصَائح.
ويقالُ: كلامٌ فصيحٌ، إذا كان المرادُ منْهُ واضحاً.

ويقالُ: لسانٌ فصحيٌ، إذا كان طَلْقاً في نُطْقِ الْكَلاَمِ مُبيناً لاَ يَتَعَثَّر.

والرجلُ الفصيح هو المنطلق اللّسان في القولِ، الّذي يَعْرِفُ جَيِّدِ الكلام من رديئه.

ويقالُ: أفْصَحَ الصُّبْحُ إذا بَدَا ضَوْؤُهُ واستبان. وأَفْصَح المتَحَدِّثُ عن مُرادِهِ إذا بيَّنَهُ ولم يُجَمْجِمْ.

وكُلُّ ما وَضَحَ فقد أَفْصَح، وكُلُّ وَاضحٍ هو مُفْصِحٌ.

وفَصُحَ اللَّبَنُ إذا أُزيلَتِ الرَّغْوَةُ من سطحه فبانَ وظَهَرَ.

الفصاحة في اصطلاح علماء البلاغة:

ذكر علماء البلاغة أنَّ الفصاحة تأتي وصفاً للكلمة الواحدة، ووصْفاً للكلام، ووصْفاً للمتكلّم، فيقال: كلمةٌ فصيحة، وكلامٌ فصيحٌ، ومتكلّم فصيح.

فصاحة الكلمة

أمّا الكلمة الفصيحة: فهي الكلمة العربية التي تَخْلُو من أربعة عيوب وهي: التنافر، والغرابة، ومُخَالفة القياس، وكراهة السَّمع لها.

أوّلاً: شرح العيب الأوّل: وهو تنافر حروف الكلمةم. التنافر في الكلمة صفةٌ فيها تجعلها ثقيلة على اللّسان، يصعُبُ النُّطْقُ بها.

وهذا التنافُرُ مِنّهُ ما هُو شديدٌ غايةٌ في الثّقل، ومنّهُ مَا هُو دون ذلِكَ، ويُحِسُّ به الذّوق السَّليم، ومن علامات التنافر في حروف الكلمة أنْ يصعُب على معظم ألسنة الناطقين بالعربيّة النُّطقُ بها.

ومن أمثلة ما هو شديد التنافر ما يلي:

* كلمة "صَهْصَلِق" يقال لغة: رجُلٌ صَهْصَلِقُ الصَّوْتِ، إذا كان ذا صوتٍ شديد، ويقالُ: امرأةٌ صَهْصَلِق وصَهْصَلِيق، أي: شديدة الصّوتِ صَخَّابة.

* كلمة "طَسَاسِيج" جمع "طَسُّوج" اسم للناحية، واسمٌ لمقدار من الوزن يعْدِلُ رُبْعَ دانِقٍ، فالدَّانِق أربعةُ طَسَاسِيج، وهو سُدُسُ الدّرهم.

* كلمة "اطْرَغَشَّ" يقال: اطرغَشَّ المْريضُ، إذا بَرِئ من مرضه، وإذا قام وتحرّك ومشى.

ومن أمثلة ما هو غير شديد التنافر ما يلي:

* كلمة "النُّقاخ" يقال لغة: ماءٌ نُقَاخٌ، إذا كان ماءَ عذباً.

* كلمة "مُسْتَشْزِرَاتٌ" بمعنى منفتلات، وقد جاءت في شِعْر امرئ القيس، إذْ قال:

*وَفَرْعٍ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ * أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثْكِلِ*
*غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلاَ * تَضِلُّ الْمَدَارِي فِي مُثَنًّى وَمُرْسَلِ*

الْفَرْعُ: الشَّعَرُ التَّامُّ الَّذى لا نقص فيه. الْمَتْنُ: الظَّهْرُ. الفاحِمُ: الشَّدِيدُ السَّواد. الأَثِيثُ: الكثير. قِنْوُ النَّخْلة: عِذْقُها بما فيه من الرُّطب. الْمُتَعَثْكِل: الكَثِيرُ الشَّماريخ، وهي العيدان الحاملةُ للثّمر. غَدَائِرُهُ: أي: ذُؤاباتُه الْمَضْفُورة، مُفْرَدُها غديرة. مُسْتَشْزِرَات: أي: مُنْفَتِلاَتٌ، يقالُ: اسْتَشْزَرَ الحبلُ، إذا انْفتَل. تَضِلُّ الْمَدَارِي: أي: تَضِيعُ الْمَدَارِي، وهي جمعُ مِدْراة، والْمِدْراةُ ما يُعْمَلُ من حديدٍ أو خَشَبٍ على شَكلِ سِنٍّ مِنْ أَسْنَانِ الْمُشْطِ، وأطول منه، يُسَرَّحُ بها الشَّعْرُ الْمُتَلَبِّدُ. والْمُثَنَّى: الْمُنْعطِفُ بَعْضُهُ عَلى بعض. والْمُرْسَل: المتروكُ على طَبيعَتِه دُون ضَفْرٍ وَلاَ تَثْنِيَةٍ وَلاَ تَجْعِيد.

✓ كلمة "الْعَشَنْزَر" وهي بمعنى الشَّديد الْخَلْقِ العظيم من كلّ شيء، وَيقال: ضَبُعٌ عَشَنْزَرَة، أَي: سيِّئةُ الْخُلُق.

✓ كلمة "الابرِغْشَاشِ" بمعنى الْبُرْءِ من الْمَرَض.

✓ كلمة "الخَنْشَلِيل" بمعنى الْمُسِنّ من الناس والإبل، وبمعنى الجيّد الضرب بالسيف.

ثانياً: شرح العيب الثاني: "الغرابة" الغرابة في الكلمة كونُها غير ظاهرة المعنى ولا مألوفةِ الاستعمال عند فُصحاء العرب، وبلغائهم، في شعرهم ونثرهم، لاعند المولّدين ومَن بعدهم، فأكثر الكلام العربي الفصيح غريب عند غير فصحاء العرب وبلغائهم.

والغرابة إمّا تكون بسبب نُدْرة استعمال الكلمة عند العرب، وإمّا أن تكون بسبب أنّ التوصّل إلى المراد منها في الكلام يحتاج إلى تخريج مُتكَلَّف بعيد.

ومثَّلُوا للغريب النادر بما يلي:

* كلمة "مُسْحَنْفِرَة" بمعنى "متّسِعَة".

* وكلمة "بُعَاق" بمعنى "مطر".

* وكلمة "جَرْدَحْل" بمعنى "الوادي".

* وفُلانٌ جُحَيْشُ وَحْدِهِ، أي: عَيِيُّ الرَّأْيِ يَسْتَبِدُّ بِهِ، وهذا ذَمٌّ.

* وكلمة "مُشْمَخِرّ" إذا استعملتْ فِي النَّثْر، وهي بمعنى "العالي". ومثَّلُوا للغريب الذي يحتاج إلى تخريجٍ مُتكلَّف بعيدٍ لمعرفةِ المقصود به، بقول رؤبة بْنِ العجّاج يصِفُ الأنفَ بكلمة "مُسَرَّج" فقال ابْنُ دُرَيد: هو من قولِهِمْ للسُّيوف سُرَيجيّة، أي: منسوبة إلى حدّادٍ يُسَمَّى سُرَيجاً، فهو يريد تشبيه الأنْفِ في دقَّتِهِ واستوائِه بالسَّيْفِ السُّرَيجيّ، وقال ابْنُ سِيدَه، صاحبُ المحكم: هو من السِّرَاج، فهو يريد تشبيهَ الأنْفِ في بريقه ولمعانه بالسِّراج.

أقول: ويكثر هذا التكلُّفُ المجوجُ عند كثير من الشعراء والكتاب المبتدئين، فلا يُعْرَفُ المُرادُ من مفرداتهم، إلاَّ بسؤالهم عَنّ مقاصِدهم منها.

شرح العيب الثالث:

"مخالفة الكلمة للقياس" أي: سوقُ الكلمة مخالفةً للقياسِ النحويّ أو الصّرفيّ، ومن أمثلة ما هو مخالف للقياسِ من الكلمة فكُّ الحرف المضعّف في الكلمة التي يقتضي القياسُ فيها إدغامَهُما بحرفٍ مُشَدَّدٍ، نحو:

* كلمة "الأَجْلَلِ" والقياسُ أَنْ يُقَالَ فيها الأجَلّ.

ومنه قول أبي النّجم بن قُدامة:

*الْحَمْدُ للهِ الْعَلِيِّ الأَجْلَلِ * أَنْتَ مَلِيكُ النَّاسِ رباً فَاقْبَلِ*

وممّا هو مخالف للقياس جمع "فاعل" وصفاً لمذكر عاقل على "فَواعل: قالوا: ومنه استعمال الفرزدق نواكس جمعاً لناكسٍ وصفاً لمذكّر عاقل في قوله:

*وإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ * خُضُعَ الرِّقَابِ نَوَاكِسَ الأَبْصَارِ*

أقول: ما في شعر الفرزدق ليس مخالفاً للقياس، لأنه يريد أَنْ يصف الأبصار بالنواكس، أي: هي منكسرة ذليلة، لا أَنْ يصف الذكورَ العقلاء، عَلَى أن جمع ناكس على نواكس، ممّا اسْتُعْمِل شاذاً عن القياس عند العرب، كما قالُوا في فَارسٍ فوارس، وفي هالِكٍ هَوَالِكَ.

وممّا هو مخالف للقياس استعمال هَمْزَةِ القطْعِ بدلَ همزة الوصْل، واستعمال همزة الوصل بدل همزة الْقَطْعِ، ويكثُرُ مثْلُ هذَا في الشِّعْرِ لِمُرَاعَاةِ الوزن.

ومنه قول جميل:

*ألاَ لاَ أرَىٰ "إِثْنَيْنِ" أَحْسَنَ شِيمَةً * عَلَىٰ حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنِّي وَمِنْ جُمْلِ*

فقطع همزة "اثنين" مع أنّها همزة وصْل، وحدَثان الدهر نوائبه، وأراد بِكَلِمَةِ "جُمْلِ" فَرَسَهُ أو جَمَلَه.

شرح العيب الرابع:

"كون الكلمة مكروهةً في السمع" أي: كونُها مجوجةً في الأسماع، تأنف منها الطّباع، خشنَةً وَحْشِيَّةً.

ومثّلوا لهذا العيب، بنفور السمع عن كلمة "الْجِرِشَّىٰ" بمَعْنَىٰ "النفس" فعابوا علىٰ أبي الطيّبِ المتنبّي استعمالَهَا في قَوْلِهِ يمدحُ سيف الدولة:

*مُبَارَكُ الاسْمِ أغَرُّ اللَّقَبْ * كَرِيمُ الْجِرِشَّىٰ شَرِيفُ النَّسَبْ*

كَرِيمُ الجِرِشَّىٰ: أي: كريمُ النفس.

أقوال مأثورة اشتملت عليمفرداتٍ غير فصيحة لِعَيْبٍ ما فيها:

(1) كتب بعض أُمَراء بغداد رُقْعةً طرحها في المسجد الجامع حين مَرِضتْ أُمُّهُ، جاءَ فيها:

"صِينَ امْرُؤٌ وَرُعِي، دَعَا لِامْرَأةٍ إِنْقَحْلَةٍ مُقْسَئِنَّةٍ، فَقَدْ مُنِيَتْ بِأَكْلِ الطُّرْمُوخِ، فَأَصَابَهَا مِنْ أَجْلِهِ الاسْتِمْصَالُ، أَنْ يَمُنَّ اللهُ عَلَيْهَا بِالاطْرِغْشَاشِ والابْرِغْشاشِ".

إِنْقَحْلَة: أي: مُسِنَّةٌ هَرِمَةٌ يَبِسَ جِلْدُهَا وسَاءَ حَالُهَا.

مُقْسَئِنَّة: أي: كبيرة السّنّ، ليس لها قدرة على الحركة.

الطُّرْمُوخ: الخُفَّاش.

الاسْتِمْصَال: إسهالُ الطبيعة.

الاطرغْشَاش والابرغْشاش: كلاهما بمعنى البرء من المرض.

جاء في خُطْبَةٍ لابْنِ نُبَاتة، يَذْكُرُ فيها أَهْوَالَ يَوْمِ القيامة، قولُه:

"اقْمَطَرَّ وَبَالُهَا، واشْمَخَرَّ نَكَالُهَا، فَمَا سَاغَتْ وَلاَ طَابَتْ":

أَقْمَطَرَّ وَبَالُهَا: أي: اشتَدَّ وعَظُمَ ثِقَلُها.

واشْمَخَرَّ نَكَالُهَا: أي: اشْتَدَّ وارتَفَعَ وعَظُمَ عِقَابُهَا.

فَمَا سَاغَتْ وَلاَ طَابَتْ: أي فَمَا سَهُلَتْ ولاَ كانَتْ طيّبَة.

قال امرؤ القيس حين أَدْركَتْهُ المنِيَّةُ، وَكان قَدْ ذَهَبَ إلى مَلِكِ الرُّومِ يَسْتَنْجِدُهُ عَلَى قَتَلَةِ أَبيه:

"رُبَّ جَفْنَةٍ مُثْعَنْجِرَةٍ، وَطَعْنَةٍ مُسْحَنْفِرَةٍ، وَخُطْبَةٍ مُسْتَحْضَرَةٍ، وَقَصِيدَةٍ مُحَبَّرَةٍ، تَبْقَى غداً بِأَنْقِرَةٍ".

رُبَّ جَفْنَةٍ مُثْنَجِرَةٍ: أي: رَبَّ قَصْعَةِ طَعَامٍ مَلأَى.

وطَعْنَةٍ مُسْحَنْفِرَةٍ: أي: ورُبَّ طَعْنَةٍ بِرُمْحٍ في الْقِتَالِ واسِعَةٍ.

رُوي أنَّ أُمَّ الهَيْثَمِ الأَعْرَابِيَّةَ قَالت لأَبِي عُبَيْدة الرَّاوِية، حِينَ عَادَهَا فِي علَّةٍ أصابَتْها:

"كُنْتُ وَحْمَى سَدِكَةً، وَشَهِدْتُ مَأْدُبَةً، فَأَكَلْتُ جُبْجُبَةً مِنْ صَفِيفِ هِلَّعَةٍ، فَاعْتَرَتْنِي زُلَّخَةٌ".

فَقِيلَ لَهَا: أيَّ شَيْءٍ تَقُولِينَ؟

فقالَتْ: أَوَ لِلنَّاسِ كَلامَانِ، والله مَا كَلَّمْتُكُمْ إِلاَّ بالْعَرَبِيِّ الْفَصِيح. كُنْتُ وَحْمَى سَدِكَةً: وَحِمَتِ الْحُبْلَى، إذا اشْتَهَتْ شيئاً عَلَى حَبَلِهَا، فَهِي وَحْمَى. سَدِكَةً: أي: مُولَعَةً بِنَوْعِ طَعَامٍ لِوَحَمِهَا. وَشَهِدْتُ مَأْدُبَةً: الْمَأْدُبَةُ: الطَّعَامُ الَّذِي يُصْنَعُ لِدَعْوَةٍ. جُبْجُبَةً: الْجُبْجُبَةُ: الكَرِشُ يُجْعَلُ فيها اللّحم المقطَّعُ، ويُغْلَى ثُمَّ يُقَدَّدُ. من صَفِيفِ هِلَّعَة: الصَّفِيفُ: رقائقُ اللَّحم تُشْوَى. والْهِلَّعَةُ: الأنْثَى مِنْ أولاد المعز والغنم.

فاعْتَرَتْنِي زُلَّخَةٌ: الزُّلَّخَةُ: داءٌ يأخُذُ فِي الظَّهْرِ والجنب.

فصاحة الكلام

وأمَّا الكلامُ الفصيح: فهو عند علماء البلاغة ما كان سهْلَ اللفظ، واضح المعنى، جيّد السَّبكِ، متلائم الكلمات، فصيح المفردات، غير مُسْتكْرَهٍ ولا مَمْجوجٍ ولا مُتكَلَّف، ولا مخالفٍ لقواعد العرب في نحوها وصرفها، وغير خارج عن الوضْعِ العربي في مفرداته وتراكِيبِه، وليس في كلماته تنافر، وليس فيه تعقيدٌ لفظيٌّ، ولا تعقيدٌ معنويّ.

قالوا: ولا بُدَّ لكون الكلام فصيحاً من أن يكون خالياً مِنْ أربعة عيوب، مع شرط فصاحة مفرداته، وهي:

العيبُ الأول: تنافر الكلمات عند اجتماعها، ولو كانت مفرداتها فصيحة.

العيبُ الثاني: ضعف التأليف.

العيبُ الثالث: التعقيد اللفظي.

العيبُ الرابع: التعقيد المعنويّ.

أوّلاً: شرح العيب الأول: "تنافر الكلمات عند اجتماعها" وهو وصفٌ يعرض للكلام من جرّاء اجتماع كلماتٍ فيه تجعل النُّطْقَ بها ثقيلاً ممجوجاً حال اجتماعها، مع كون كلّ كلمةٍ ليّنةً سهلة النطق بها.

ويُحِسُّ بهذا الثّقَل الممجوج أصحابُ الذوق السليم في نُطْق الكلام العربي، ومن علامات التنافر في الكلام أن يَصْعُب على معظم ألسنة الناطقين العربية النُّطقُ به.
الأمثلة:

(1) من الأمثلة الّتي ذكروا أنّ فيها هذا العيب بشدّة، ما أورده عَمْرو بن بحر الجاحظ من شعر بشأن قَبْر حَرْب بن أميّة بن عبد شمس:

*وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ * وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ*

رُفع لفظ "قَفْر" مع أنه نعتٌ للفظ "مكانٍ" لضرورة الشعر، وخرّجوه على أنّه من قبيل الصفة المقطوعة عن موصوفها.

وقد جاء الثقل من تكرار الراء والباء في البيت.

(2) ومن الأمثلة الّتي ذكروا أنَّ فيها هذا العيب دون شدَّة، قولُ أبي تمّام:
*كَرِيمٌ مَتَىٰ أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ والْوَرَىٰ * مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي*

وقد جاء ثِقَلُهُ من تكرير لفظ "أَمْدَحْهُ" بما فيه من حاء وهاء.
وكذلك قول أبي الطيّب المتنبّي:

*أَتُرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ * تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فِي الْمَآقِي*

*كَيْفَ تَرْثِي الَّتِي تَرَىٰ كُلَّ جَفْنٍ * رَاءَهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَاقِي*

"راءَهَا" أي: رآها، قَدَّم وأخَّرَ لضرورة الشِّعر.

"راقِي": اسم فاعل من رَقَأَ الدَّمْعُ إذا انْقطع.

ومعنىٰ البيت الثاني: كيف تَرْحَمُ هذِهِ المَعْشُوقَةُ عَاشِقَهَا وهِي تَرَىٰ كلَّ الأَجْفَانِ باكيَةً غيْرَ جَفْنِها، فتحسبُ أَنَّ العيون تذرف الدمع بالخِلْقَةِ لاَ من العشق، لذلك فلا تُسْتثارُ فيها الرحمةُ علىٰ العشّاق.

وفي هذا البيت مع عيب الضرورة عيب تكرير الجيم والراء في كثير من كلماته، الأمر الذي أكسبَهُ بعض الثقل.

(3) ومن الأمثلة التي ذكروا فيها عيبَ التنافُرِ في الكلام، أو ثِقَلَ النُّطْقِ بِهِ، أَوْ مَجَّ الذَّوْقِ له، قول عبدالسَّلام بْنِ رُغْبَان المعروفِ بديكِ الجنّ:

أُحْلُ وامْرُرْ وضُرَّ وانْفَعْ وَلِنْ وَاخْشَنْ وَأَبْرِرْ ثُمَّ انْتَدِبْ لِلْمَعَالِي.

وعِلَّتُه تكرُّرُ أفعالِ الأَمْرِ فيهِ.

وأشدّ من هذا قول أبي الطيّب المتنبّي إذْ جَمَعَ أَفْعالَ أمْرٍ دون عاطفٍ بينها، من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة:

*أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أعِدْ * زِدْ هِشَّ بِشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ*

دفعه إلىٰ هذا ولَعُه بالإِغْرابِ والإِبداع.

أَقِلْ: فعل من الإِقالَةِ. أَنِلْ: من الإِنالَة وهي العطاء. أقْطِعْ: من الإِقْطاعِ بمَنْحِ الأرض. احْمِلْ: من قولهم: حملتُهُ علىٰ فَرَسٍ. عَلِّ: من التَّعْلِيَةِ وَالرَّفْعِ. سَلِّ: من التَّسْلِية والترويح عن النفس. أَعِدْ: من الإِعادة، أي: في العَطاء. زِدْ: من الزّيادة في العطاء الثاني. هِشَّ: من قولهم: هَشَشْتُ إلىٰ كذا أهِشُّ. بِشَّ: من البشاشة وهي

طلاقة الوجه. تَفَضَّلَ: من الإِفْضَالِ وهو عطاء الفضل. أَدْنِ: من الإِدناء وهو التقريب. سُرَّ:

أي: افعلْ ما يَسُرُّ. صِلِ: من الصِّلَةِ، وهي العطيَّة.

وهذا أشبَهُ بمنْظوماتِ مُتُونِ الْعِلْم، وعلّتُه تَكَرُّرُ أفعالٍ فيه دون حرف عطف بينَها، فزاده ثقلاً.

ومن الأمْثِلَةِ أيضاً، قول أبي الطّب المتنبّي، في قَصِيدَة يَمْدَحُ فيها عُبَيْدَ الله بْنَ خراسان الطرابلسيّ:

*دَانٍ بَعيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ * أَغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسٍ*

شَرِس: الشَّرِسُ في اللّغة الْعَسِرُ السَّيِّءُ الْخُلُق، ويريد أنّه عَسِرٌ غير ليّن بالنسبة إلى الأعداء في الحرب.

بعض هذه الصفات يُعامل بها أولياءَه، وأضدادها يعامل بها أعداءه. وعلّته إيراد صفاتٍ متعدّدات على نَسَقٍ واحدٍ.

ومن الأمثلة أيضاً، قول أبي تمّام يصِفُ مَمْدُوحَهُ:

*كَأَنَّهُ في اجْتِمَاعِ الرُّوحِ فِيهِ لَهُ * فِي كلِّ جارحَةٍ في جِسْمِهِ رُوحُ*

أي: هو يقظ دواماً بكلّ جوارحه.

وعِلَّتُه تَعَاقُبُ الأَدواتِ فيه.

ونظيره قول أبي الطيب المتنبّي يصفُ فرساً:

*وتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ * سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شواهد*

في غَمْرَةٍ: أي: في شِدَّة. سَبُوح: أي: فرسٌ شدِيد الجري. لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شواهِدُ: أي: لَهَا عَلىٰ كرمها شَوَاهِدُ مِنْ صفاتها. علىٰ أن تعاقب الأدوات قد لا يكون ثقيلاً مستكرهاً، والحَكَمُ ذوق الفصحاء.

ومن الأمثلة أيضاً قولُ ابْنِ بابك:

*حَمَامَةَ جَرْعَىٰ حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ اسْجَعِي * فَأَنْتَ بِمَرْأَىٰ مِنْ سُعَادَ ومَسْمَعِ*

يخَاطِبُ الشَّاعِرُ حَمَامَةَ جَرْعَىٰ حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، فَيَطالِبُهَا بأن تَسْجَعَ لِتَسْمَعَها مَعْشُوقَتُهُ سُعاد، والسَّجْعُ هديل الحمام.

جَرْعَىٰ: مُؤَنَّثُ أَجْرَع، وهي رَمْلَةٌ لاَ تُنْبِتُ. حَوْمَةِ: مُعْظم. الجندل: الحجارة. وَعِلَّتُه تَوالي الإِضافات، إذْ أضاف أولاً حمامة إلىٰ جَرْعَىٰ وأضاف أيضاً جَرْعَىٰ إلىٰ حَوْمَة التي أضافها إلىٰ الجندل، فتوالت الإِضافات، ومن هنا كانت علّة الاستكراه، علىٰ أن توالي الإِضافات قَدْ لا يكون مستكرهاً.

ثانياً: شرح العيب الثاني: "ضعفُ التأليف" وهو أنْ يكون تأليف الكلمات في الجمل أو إجراؤُها الإِعْرَابي علىٰ خلاف المشهور المتَّبع من قواعد النحو، او فيه لحْنٌ نحويٌّ أو صرفي، واللّحْنُ في اللّغة ليْسَ من فصيحها، بل هو من عامّيها، أو من نطق

الدخلاء على أهلها ممن ليسوا منها، أو من نطق أطفال الأمة الذين لم يتمرّسوا بقواعد لغتهم، ومن أمثلة ما فيه ضعف التأليف:

* عوْدُ الضمير علَى مُتأخِّرٍ لفظاً ورُتبةً، بينَما الأَصْلُ أن يعودَ الضميرُ علَى مُتَقَدّمٍ في اللفظ أو الرتبة.

* استعمال الضمير المنفصل مع إمكان استعمال الضمير المتّصل، واستعمال الضمير المتصّل في حالِ وُجوبِ استعمال الضمير المنفصل.

* نصْبُ الفعل المضارع أو جزمُهُ بدون ناصبٍ أو جازمٍ.

تقديم غير الأَعْرَف في الجملة الاسميّة على الأعْرَف.

* تقديم المعمول على عامله مع عدم جواز ذلك، أو مع عدم وجودٍ مقتضٍ لَهُ بلاغياً.

* مجيء الضمير المتَّصِل بعد أداةِ الاستثناء "إلاَّ".

الأمثلة:

(1) قول حسّان بن ثابتٍ يرثي مُطْعِمَ بْنَ عَدِيّ أحد رُؤساء المشركينَ، وكان يُدَافع عن الرسول صلى الله عليه وسلم:

*وَلَوْ أَنَّ مَجْداً أَخْلَدَ الدَّهْرَ وَاحِداً * مِنَ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطْعِماً*

فأعاد الضمير في "مَجْدُهُ" على متأخّرٍ لفظاً ورُتبة وهو "مُطْعِماً" على خلاف قانون التأليف المتّبع المشهور في العربيّة، وهذا من العيوب المخلّة بالفصاحة.

والمعنى: ولو أنّ مجداً مهما كان عظيماً جعل من يتّصف به يخلُد طَوال الدَّهر، لكان مَجْدُ مُطْعِم بن عديّ جعله خالداً.

(2) قول زياد بن حَمَل التميميّ:

*وَمَا أُصَاحِبُ مِنْ قَوْمٍ فَأَذْكُرَهُمْ * إلاَّ يَزِيدُهُمُو حُبّاً إِلَيَّ هُمُ*

أي: وما أصاحبُ من قومٍ بعْدَ قومي فأذكُر لهم قومي، إلاَّ بالَغُوا في الثناء عليهم حتّى يَزِيدُوهُمْ حُبّاً إِلَيّ.

فلم يأتِ بالضمير المتّصل الذي هو "واو" الجماعة في: "يَزِيدُونَهُمْ" بل فصله، وجاء به ضميراً منفصلاً في آخرِ البيت، لضرورة الشعر، وهو لفظ "هُمُ" وهذا من العيوب المخلّة بالفصاحة.

(3) قول الفرزدق:

*بِالْبَاعِثِ الْوَارِثِ الأَمْواتِ قَدْ ضَمِنَتْ * إِيَّاهُمُ الأَرْضُ في دَهْرِ الدَّهَارِيرِ*

فجاء بالضمير المنفصل "إيّاهُمْ" مع إمكان مجيء الضمير المتصل، لضرورة الشعر، وهذا من العيوب المخلّة بالفصاحة.

والمعنىٰ: أحلف بالله الباعث الوارث الأموات قد ضَمِنَتْهم، أي: احتوتْهُمُ الأرض في دهْرِ الدّهارير.

في دَهْرِ الدَّهَارير: أي: سالف الأزمان، كلمة "الدهارير" تأتي بمعنىٰ أوّل الدهر في الزمان الماضي "لا واحد لها من لفظها"

(4) قول أبي الطيّب المتنبي، يمدحُ بدر بن عمّار:

*خَلَتِ الْبِلاَدُ مِنَ الْغَزَالَةِ لَيْلَها * فَأَعَاضَهَاكَ اللهُ كَيْ لاَ تَحْزَنَا*

الغزالة: الشمس.

يقول المتنبّي لممدوحه: خَلَت البلاد من الشمس في وقْتِ لَيْلِها، فجَعَلَكَ اللهُ لها عِوَضاً عن الشَّمس، لكيلا تحزن البلاد علىٰ فراق ضوءِ الشمس.

قال النحاة: إذا اجتمع ضمير المخاطب والغائب فالواجبُ تقديم ضمير المخاطب علىٰ ضمير الغائب، وهذا ما نصّ عليه سيبويه.

وكان علىٰ المتنبيّ أن يقول: فأعاضَكَها" بدل "أعَاضَهَاكَ" ولكن ضرورة الشعر ألجأته إلىٰ ما قال.

بيد أنَّ العبّاس محمّد بن يزيد المبرَّد يجيز ما فعل المتنبّي.

(5) قول الشاعر:

*انْظُرَا قَبْلَ تَلُومَانِي إِلَىٰ * طَلَلٍ بَيْنَ النَّقَا والْمُنْحَنَىٰ*

فحَذَفَ "أن" النّاصبة لفعل "تَلُومَاني" وأبْقَى النّصْبَ في الفعل، إذْ حذف النون.

الطَّلَل: مابقيَ من آثار الدّيار.

النَّقَا – والمُنْحَنَى: اسْمانِ لِمَوْضِعَيْن.

(6) قول الشاعر:

*وَمَا نُبَالِي إِذَا مَا كُنتِ جارَتَنا * أَلاَّ يُجَاوِرَنَا إلاَّكِ دَيَّارُ*

فجاء بالضمير المتّصل بعد "إلاَّ" والأصل أن يقول: إلاَّ إِيّاك، ولكن خالف القاعدة لضرورة الشّعر.

ثالثاً: شرح العيب الثالث: "التعقيد اللفظي" ويكون بجعل الكلمات في جملة الكلام مرتَّبةً على غير الترتيب الذي يقتضيه نظام الكلام وتأليفُه في اللسان العربيّ. كتقديم الصفة على الموصوف، والصلة على الموصول، وكالتشتيت في الروابط بين عناصر الجملة الواحدة، أو بين عناصر الجُمَل في الكلام الواحد. وهذا العيب أشدّ نكارةً وبعداً عن فصيح الكلام من عيب "ضَعْفِ التَّأْليف" ولا يُغْني عن ذكره وبيانه ذكْرُ عيْبِ "ضَعْفِ التَّأْليف" وَإِنْ كان الصنفان يلتقيان في كون كُلٍّ منهما يخالِفُ نظام الكلام في اللّسان العربيّ، لأنّ ضعْف التأليف قلّما يؤدي إلى ما يُسِيءُ في الدلالة، بل هو مُجرَّد خروجٍ عن المشهور من فصِيحِ كلامِ العرب.

أمّا التعقيد اللفظيُّ ففي الغالب يؤدّي إلى الإلْغازِ ، أو الغموض، أو التشويش، أو الدلالة على معانٍ غَيْرِ مرادةٍ.

والكلام المُعَيبُ بعَيْبِ "التعقيد اللّفظي" مرفوضٌ غَيْرُ مقبولٍ عند أهل البيان، لأنّه يُفْضِي إلىٰ اختلال المعنىٰ المراد واضطرابه، وذلك مُبَاينٌ للفصاحة الّتي تقومُ علىٰ الإبانةِ وتوضيح المعاني المرادة.

قال العتّابي: "الألفاظُ أَجْسَادٌ، والمَعَانِي أرواح، وإنّما نَراها بَعَيْنِ القُلُوب، فَإِذا قَدَّمْتَ مِنْهَا مُؤَخَّراً، أَوْ أَخَّرْتَ مِنْهَا مُقَدَّماً، أَفْسَدْتَ الصُّورَةَ، وغَيَّرْتَ المَعْنَىٰ، كَمَا لَوْ حُوِّلَ رَأْسٌ إلىٰ مَوْضِعِ يَدٍ، أَوْ يَدٌ إِلَىٰ مَوْضِعِ رِجْلٍ، فإنَّ الخِلْقَةَ تَتَحَوَّلُ، والحِلْيَةَ تَتَغَيَّرُ".

قالوا: والفرزدق أكثر من استعمل التعقيد اللفظيّ في شعره، وكأنّه كان يَقْصِدُ إلىٰ ذَلِكَ، لأنّه لا يجري علىٰ لسانٍ عربي إلاّ متكلَّفاً مَصْنُوعاً، والفرزدقُ عربيٌّ أصيلٌ لا يشكو من عجمة حتّىٰ تؤثّر عليه.

الأمثلة:

(1) من أمثلة التعقيد اللّفظيّ قول الفرزدق، يمدحُ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خالَ هشام بن عبدالملك:

*وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً * أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ*

أي: وما مِثْلُ إبراهِيم في النَّاسِ حيٌّ يشبهه في فضائله غير مَلِكٍ أَبُو أُمِّهِ أبوه. أَصْلُ ترتيب الكلام: وما مثله في الناس حيٌّ يقاربُه إلاَّ مملَّكاً أَبُو أُمِّهِ أَبُوه، فقَدَّمَ وأَخَّرَ في الكلمات، فألْغَزَ إلْغازاً سَيِّئاً.

(2) وقولُ الفَرَزْدَق أيضاً يمْدَحُ الوليد بن عبدالملك:

*إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ * أَبُوهُ وَلاَ كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهُ*

يريد: إلى مَلِكٍ أبُوه ليستْ أُمُّه مِنْ مُحَارِبٍ، فقدّم وأخّر فأبْهَمَ المعنى وألْغزَ وأفْسَد.

(3) ومن أقبح أمثلة هذا التعقيد اللفظي، قول أحدهم يصِفُ دياراً درَسَتْ وعفَتْ آثارُها:

*فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطِّ بَهْجَتِهَا * كَأَنَّ قَفْراً رُسُومَهَا قَلَماً*

أي: فأصبَحَتْ بعد بَهْجَتِهَا قَفْراً، كأنَّ قَلَماً خطَّ رُسُومَها.

ويبدو أنّ هذا البيت مصنوعٌ لإبراز قباحة التعقيد اللفظي، إذْ ليس من المعقول أن يقوله ناطق عربي له فكرٌ ما.

رابعاً: شرح العيب الرابع: "التعقيد المعنوي" ويكون باستخدام لوازم فكرية بعيدة، أو خفيّةِ العلاقة، أو استخدام كنايات من الْعَسيرِ إدراكُ المراد منه، لعدم اقترانها بما يشير إلى دَلالاتها المرادة، فيَنْجُم عَنْهُ خفاءُ دلالة الكلام، وصعوبَةُ التوصُّلِ إلى معرفةِ المراد منه من قِبَلِ أهل الفكر والاستنباط، أو منْ قبَل المخاطبين به إذا كان المخاطبون به دون مستَوىٰ أهْلِ الفكر والاستنباط.

الأمثلة:

(1) ذكروا من الأمثلة على التعقيد المعنويّ قولَ العبّاسِ بن الأحنف:

*سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا * وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدا*

أي: سأطْلُبُ بُعْدَ الدّار عنكم وأتحمّلُ آلاَمَ الفراق وأصْبِرُ عليه، لأنّ عاقبة الألَم

والصبر الفرجُ، وحين يأتي الفرجُ يكون قُرْبٌ دائم، ووصلٌ مستمرٌ مصحوبٌ بسرور لا ينقطع، وقد أبعد في هذِه الكناية لكثرة لوازمها الذهنيّة التي لا تُدْرَكُ إلاَّ بإجْهادٍ ذهْنِيّ، علىٰ أنّ هذا المعنىٰ حَسنٌ طرقَهُ الشعراء والأدباء وأهل الفكر، منه ما أجاب به الربيع بن خيثم، وقد صلَّىٰ ليلةً حَتّىٰ أصْبَح، إذْ قيل له، أتْعَبْتَ نفْسَكَ. فقال: راحَتَها أطْلُبُ. أي: أطلبُ راحَتَها الدائمة يوم الدين بإتْعَابِها في العبادة في الدنيا.

ونظيره في المعنىٰ، قول أبي تمّام:

*آلِفَةَ النّحِيبِ كَمِ افْتِرَاقٍ * أَلَمَّ فَكَانَ داعِيَةَ اجْتِمَاعِ*

وقولُ عُرْوَة بن الورد:

*تَقُولُ سُلَيْمَىٰ: لَوْ أَقَمْتَ بِأَرْضِنَا * وَلَمْ تَدْرِ أَنِّي لِلْمُقَامِ أُطَوِّفِ*

لكنّ العبّاس بن أحنف عبّر بعد ذلك بجمُود الْعَيْن كنايةً عن حالَةِ السُّرُور التي سَيَنالُهَا حينما يأتي الْفَرجُ بالوصْل بَعْد كثرة البكاء، في حين أنّ جُمودَ العين يُعبَّرُ بِهِ كنايةً عن شُحِّهَا بالدُّموع عنْدَ حَاجةِ النفس إلىٰ البكاء، ليكون في البكاء تخفيفٌ مِنْ آلاَمِ النفس بالفراق، أو مِنّ الحزن والكَمَد والتَّعَبِ والنّصب، فالشُّحُّ بالدمع يزيد في

آلام النَّفس، ولَيْس من العلامات الدّالاّت علىٰ سرورهَا حتَّىٰ يُكنَّىٰ به عنه، ومن هُنا رَأَوْا أنّ في كلامِهِ تعقيداً معنويّاً.

(2) ويُمْكن أن نُمثِّل للتعقيد المعنويّ بأن نقول: فَتَح السلطانُ أَبْوابَ السُّجُون.

ونحن نقصد بهذه العبارة أنّه نَشَر جُنْدهُ لملاحقة خصومه حتىٰ يُودِعهم في السجون، مع أنّ المتبادر المتعارق في مثل هذه العبارة، أن تُقالَ لتكونَ كنايةً عن أنّه أخرج المساجين منها بإصدار عفوٍ عامٍّ عنهم، فاعتبارُهَا كنايةً عن المعنىٰ المضادّ لهذا المعنىٰ تعقيدٌ معنوي.

وقِسْ علىٰ هذا.

المتكلّم من الفصيح هو من كان كلامه فصيحاً، وكان ذا ملكةٍ يقتدر بها علىٰ التعبير عن مقصوده بكلام فصيح، دون تَلَعْثُم، ولا تلكُّؤ، فما شاء من معنىٰ استطاع التعبير عنه بيُسْرٍ وسُهولةٍ، وبكلام فصيح المفردات، وفصيح الجُمَل والتّراكيب. ومع الهبة الفطريّة لا يكون المتكلم فصيحاً في اللّسانِ العربيّ، حتّىٰ يكون مُلمّاً باللّغة العربيّة، عالماً بقواعد نحوها وصرفها، واسع الاطلاع علىٰ مفرداتها ومعانيها الدقيقة، كثير النظر في كتب الأدب، مطّلعاً علىٰ أقوال كبار الفصحاء، له درايةٌ بأساليب العرب في شعورهم ونثرهم وأمثالهم وكناياتهم ومجازاتهم، حافظاً لطائفةٍ جَمَّةٍ من عيون كلام فصائحهم وبلغائهم من أهل النثر وأهل الشعر، وأن يمارس موهِبَتَهُ بالتطبيقات العمليّة، حتَّىٰ يكتسب مهارة التعبير عن مقاصده وما يجول في نفسه من معانٍ بكلامٍ فصيح.

البلاغة في اللّغة

البلاغة عند أهل اللّغة هي حُسْنُ الكلام مع فصاحته وأدائه لغاية المعنى المراد. والرجل البليغ هو من كان فصيحاً حسَنَ الكلام يَبْلُغُ بعبارة لسانه غايةَ المعاني الّتي في نفسه، ممّا يُرِيد التعبير عنه وتوصيلَهُ لمن يُرِيد إبلاغه ما في نفسه. وأصل مادّة الكلمة في اللّغة تدور حول وُصُول الشيء إلى غايته ونهايته، أو إيصال الشيء إلى غايته ونهايته.

تقول لغةً: بلغَ الشّيءُ يَبْلُغُ بُلوغاً وبلاغاً، إذا وصل وانتهى إلى غايته. وتقول: أبلغْتُ الشيءَ إبلاغاً وبَلاَغاً، وبلَّغْتُهُ تَبْليغاً، إذا أوصلته إلى غايته ونهايته. وبَلَغَ الْغُلاَمُ وبَلغت الجارية، إذا وصَلا إلى انتهاء مرحلة ما دون التكليف، ودخلا في مرحلة التكليف، ويكون ذلك باحتلام الغلام وحيض الجارية، ويُقَال: ذكَرٌ بالغ، وأنثى بالغٌ وبالغة.

والأمر البالغ، هو الأمر الذي وصل إلى غايته فكان نافذاً.

والبلاغَةُ تكون وصفاً للكلام، ووصفاً للمتكلّم.

بلاغة الكلام في الاصطلاح:

هي مطابقة الكلام لمقتضى حَال من يُخَاطبُ به مع فصاحة مفرداته وجُمَله. فيشترط في الكلام البليغ شرطان:

الشرط الأول: أن يكون فصيح المفردات والجمل.

الشرط الثاني: أن يكون مطابقاً لمقتضى حال من يُخَاطبُ به.

ولمّا كانت أحوال المخاطبين مختلفة، وكانت كلُّ حالةٍ منها تحتاج طريقةً من الكلام تلائمها، كانت البلاغة في الكلام تستدعي انتقاء الطّريقة الأكثر ملاءمة لحالة المخاطب به، لبلُوغ الكلام من نفسه مبلغ التّأثير الأمْثل المرجوّ.

الأحوال التي تستدعي اختلافاً في طرائق الكلام وأساليبه:

أمّا الأحوال التي تستدعي اختلافاً في طرائق الكلام وأساليبه، فتكادُ لا تُحْصرُ.

* فمنها ما يستدعي من الكلام إيجازاً.

* ومنها ما يستدعي من الكلام بَسْطاً متوسّطاً.

* ومنها ما يستدعي من الكلام بَسْطاً مطوّلاً.

* ومنها ما يستدعي خطاباً بصورة مباشرة.

* ومنها ما يستدعي خطاباً بصورة غير مباشرة.

* ومنها ما يستدعي تنكيراً، أو يستدعي تعريفاً.

* ومنها ما يستدعي إطلاقاً، أو يستدعي تقييداً.

* ومنها ما يستدعي ذِكراً، أو يستدعي حذفاً.

* ومنها ما يستدعي وصلاً بحرف العطف، أو يستدعي فصلاً.

* وخطاب الذكيّ يُخَالف خطاب الغبيّ.

* وحال الوعظ يستدعي خطاباً غير حال البيان العلمي.

* وحال الدعاء والتماس مطلوب، يستدعي خطاباً غير حال التكليف من ذي سلطان.

* وخطاب أهل العلم والمعرفة يخالف خطاب الذين لا علم لديهم.

* وخطاب الملوك والأمراء والرُّؤساء يخالف خطاب العامّة

* وخطاب أهل الحضر يُخَالف خطاب أهل البداوة وأهل المدَر.

* ولكل أهل صنعة خطابٌ يُلائم صناعتهم.

* والصغارُ وأحْداثُ الأسنان لَهُم ألوان من الخطاب تلائم حداثتهم، وصِغَر أَعْمَارِهم.

* إلى غير ذلك من أصناف المخاطبين، وأحوالهم النفسيّة والاجتماعية، وأحوال المتكلّم وظروف الكلام.

واختيار الأسلوب من الكلام الملائم للمخاطب، أو الأكثر ملاءمة له يحتاج فطنةً عاليةً، وذكاءً حادّاً، وخبرات كثيرات بخطاب الناس.

ويُلْحَقُ بمطابقة الكلام لمقتضىٰ حال المخاطب وجوهٌ أُخَرُ كثيرةٌ تورثُ الكلامَ حُسْناً.

وَكُلَّما كان الكلام مع فصاحة مفرداته وجمله أكثر مطابقة لحال المخاطب وتأثيراً في نفسه، كانَ أعلىٰ حُسْناً، وأرفَعَ منزلةً في مراتب البلاغة ودرجاتِها. وتتنازلُ الدرجات وتنحطُّ بمقدار بُعْدِ الكلام عن مطابقة مقتضىٰ حال المخاطب وضَعْفِ تأثيره في نفسه.

وللكلام البليغ حدٌّ أعْلَىٰ رفيعٌ، وهو حدُّ الإِعجاز، وما يَقْربُ منه. ولَهُ حدٌّ أسْفَلُ مُنْحطٌّ إذ نزلَ عنْهُ درجَةً واحدةً الْتحقَ عند البلغاء بأصواتِ الحيوانات. وبين الحدّ الأعلىٰ والحدّ الأسفل مراتب ودرجاتٌ كثيراتٌ يتعذَّرُ علىٰ الناس إحصاؤها.

هي ملكَةٌ "أي: صفةٌ ثابتةٌ مستقرّة في ذاتِ المتكلّم" يستطيع بها تأليف كلامٍ بليغ. ولّما كان كلُّ كلام بليغ لا بدّ أن يكون فصيح المفردات والجُمَل كان كلُّ كلامٍ بليغٍ كلاماً فصيحاً، وَكان كلُّ متكلِّمٍ بليغٍ متكلّماً فصيحاً.

لكن قد يكون الكلام فصيحاً وَلا يكون بليغاً، لأنّ الفصاحة أعمُّ، والبلاغةَ أخصُّ دائماً، فكلُّ بليغٍ فصيحٌ، كلاماً أَوْ متكلّماً، ولَيْسَ كلُّ فصيحٍ بليغاً، فالكلام الفصيح لا يكون كلاماً بليغاً حتَّىٰ يكون مطابقاً لمقتضىٰ حالِ المخاطب به.

عناصر البلاغة في الاصطلاح:

ممّا سبع يتبيّن لنا أنّ البلاغة ترجع في أصولها العامة إلىٰ تحقّق العناصر السّتَّةِ التالية:

العنصر الأول: الالتزام بما ثبت في متن اللّغة وقواعد النحو والصرف، واختيار الفصيح من المفردات والجُمَل والقواعدِ.

العنصر الثاني: الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد.

العنصر الثالث: الاحتراز عن التعقيد في أداء المعاني المرادة، سواء من جهة اللّفظ أو من جهة المعنى.

العنصر الرابع: انتقاء الكلمات والعبارات الجميلة، الّتي يُدْرِكُ جمالَها الحسُّ المرهف، والذّوْقُ الرفيع لدى البلغاء.

العنصر الخامس: تصيُّد المعاني الجميلة، وتقديمها في قوالب لفظيّةٍ ذاتِ جمالٍ.
العنصر السادس: تزيين الكلام بالمحسِّنَات التي تَسْتَثِيرُ إعجاب المخاطَبين.
والمحسّنَاتُ التي تُزَيّنُ الكلامَ وتَزِيدُه جمالاً لا تُحْصَرُ، وباستطاعة الموهوبين أن يبتكروا فيها دواماً أشياء جديدةً لم يتوصَّل إليها البلغاء السّابقون من الناس.

مقدّمات حول الكلمة والجملة

النحويّ يبحث في الكلام العربي من جهة إعراب مفرداته وجُمَله، وما يجب في تراكيب الجمل البسيطة والمُركّبَةِ كجُمَلِ الشرط، وما يجوز فيها من تقديم أو تأخير، وما يجوز في الكلام من ذكر أو حذف أو نيابة، مع تحديد أصول المعاني التي تدلُّ عليها صِيَغُ الأسماء والأفعال ومشتقّاتها، ومتعلقات الفعل، وأصول المعاني التي تدلُّ عليها حروفُ المعاني.

والصَّرْفيّ يبحث في الكلمة العربيّة من جهة بنائها وضوابطه في اللّسان العربي، وفي المعاني الأصول التي وُضعت صِيغُ الكلمات للدَّلالة عليها.

ويشارِكُ النّحويُّ الصرفيَّ في بعض ما هو مختصٌّ به، وقد يشارك الصّرْفيُّ النحويّ في بعض مسائله الخاصة به.

أمّا عالِم البلاغة فيوجّه اهتمامَه حَوْلَ الكلمة والجملة العربية للمعاني التي تدلُّ عليها صِيَغُ الكلمات، وأُصُول التراكيب وفروعها، وللمعاني الّتي يَدُلُّ عليها التقديم والتأخير في مواضع الكلماتِ عمّا هو الأصْلُ في التراكيب، وللمعاني التي يَدُلُّ عليها الذّكْرُ والحذف، والاقتصارُ، وَوَضْعُ نوع من الكلام بدَلَ نوعٍ آخر، كظاهر بدل مضمر، ومُضمَرٍ بدَلَ ظاهر، واسْمِ موصول بدل اسم جنس، أو اسْمِ عَلَمٍ، وغير ذلك ممّا فيه دلالَةٌ على معنىً يمكن بحسب الاستعمال العربيّ أنْ يُدَلَّ به عليه، ممّا قَصَد به بُلَغاءُ أهل اللّسان الدلالةَ به عليه.

وقد وجّه علماء البلاغة اهتمامهم لهذه الأمور ضِمّن أمور أخرىٰ احتفلوا بها، بغية التنبيه علىٰ معالم المنهج الأمثل للناطق العربي، كَيْما يُحْسِنَ تدبُّر النصوص الرفيعة،، وفَهْمَ صُوَرِ الآداب الراقية ونقْدَها، وكيْما يتدرّبَ المؤهَّلُ للارتقاء في إنْشاء وارتجال الكلام الفصيح البليغ الراقي بعناصره الأدبيَّة، حتىٰ يكون أديباً فصيحاً بليغاً منضبطاً مع أساليب اللّسان العربيّ، في الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والإظهار والإضمار، واختيار نوع دون غيره من أنواع الكلام، وانتقاء المفردات بعناية، وتجويد التراكيب وتَحْسِينها، وتصفيف الكلمات والجُمَل بدقة، لتَبْلُغَ المُبْلَغ المطلوبَ من التأثير في الّذين يَتَلَقَّوْنَ كلامه، معَ دلالته علىٰ ما يريد من معانٍ بحسَب قواعد دلالاتها الصريحة أو الضمنيّة أو اللُّزومية، حتَّىٰ مُسْتَوىٰ الإشارَةِ والرّمْزِيّة.

ومن هذا نشأ عند البلاغيين ما يسمَّىٰ بعلم المعاني.

تعريف علم المعاني

هو علْمٌ يعرف به أحوال الكلام العربيّ التي تهدي العالِمَ بها إلىٰ اختيار ما يُطَابِقُ منها مقتضىٰ أحوال المخاطبين، رجاء أن يكون ما يُنْشِىءُ من كلامٍ أدبيٍّ بَلِيغاً.

ويدور هذا العلم حول تحليل الجملة المفيدة إلىٰ عناصرها، والبحث في أحوال كلّ عنصر منها في اللّسان العربيّ، ومواقع ذكره وحذفه، وتقديمه وتأخيره، ومواقع التعريف والتنكير، والإطلاق والتَّقْيِيد، والتأكيد وعدمه، ومواقع الْقَصرِ وعَدَمه، وحَوْلَ اقتران الجمل المفيدة ببعضها، بعطف أو بغير عطف، ومواقع كلٍّ منهما

ومقتضياته، وحول كون الجملة مساوية في ألفاظها لمعناها، أو أقلَّ منه، أو زائداً عليه، ونحو ذلك.

بناء الجملة في اللّسان العربي وتقسيمها

تعريف الجملة

الجملة المفيدة كلامٌ تامٌّ يَدُلُّ علىٰ معنىً أقلُّه نسبةُ شيءٍ إلىٰ شَيْءٍ إثباتاً أو نفياً، أو إنْشاءُ ربْطٍ بينَ شيءٍ وشيءٍ آخَرَ يكفي لإنشائِهِ الْقَوْلُ، مثل أمْر التكوين، أو الأمْرِ بفعلٍ ما.

والجملة المفيدة تسمَّىٰ عند علماء المنطق "قضيّة" وأقلُّ مَا تتألف منه الجملة عنصر أن يُعَبَّرُ عَنْهُما باللفظ، وهما:

(1) مُسْنَدٌ إليه، ويُسَمَّىٰ محكوماً عليه، ويُسمّىٰ عند علماء المنطق موضوعاً.

(2) ومُسْنَدٌ، ويُسمَّىٰ محكوماً به، ويُسمَّىٰ عند علماء المنطق محمولاً. ويلاحظ بين المسند إليه والمُسْنَدِ شيءٌ ثالثٌ هو الإِسنادُ، وهو الرابط المعنويُّ بينهما، وقد يُوجد في اللفظ ما يدلُّ عليْهِ، كحركة الإِعراب، وكضمير الفصل بين المبتدأ والخبر.

(3) ويُلْحَقُ بالجملة المفيدة توابعُ المسند إليه والمُسْنِدِ إنْ وُجِدَتْ، فمنها المفاعيل، والأدواتُ، ما يَدُلُّ عَلىٰ القيود لأرْكان الجملة، كالصفات والأحوال والقيودِ الزمانيّة والمكانيّة.

ولا تتم جملةٌ مفيدةٌ بأقَلَّ من مُسْنَدٍ إليه، وإسنادٍ يُلاحظُ ذهْنية بينهما.

تحليل بناء الجملة على اختلاف وجوهها

الجملَةُ الكلاميَّةُ بناءٌ من كلمتين فأكثر من أصول الكلمات الثلاث: "الاسم والفعل والحرف ذي المعنى".

ودلالة الكلمة في بناء الجملة تكون بواحد من الأمور التالية:
الأول: الوضع اللُّغوي الأوّل، أو الوضع الاصطلاحيّ كمصطلحات العلوم.
الثاني: ما تَطَوَّر إليه الوضع باستعمال أهل اللّغة، أو في العرف العام.

الثالث: ما يجري في الكلمات من استعارات ومجازات جرى بها أو بنظائرها لسانُ أهل اللّغة.

الرابع: ما تَحمِلُهُ الكلماتُ من دلالات لزوميّة ذهنية، تُدْركُ بالذهن من معانيها، كالأمر بالعلم الذي يستلزم ذهناً اتّخاذ وسائله.

الخامس: ما في الكلام المذكور من إشارات تدلُّ على محذوفٍ يقتضيه الكلام، كحرف عطف ليس من الكلام المذكور ما يُعْطَفُ به علَيّه.

السادس: نيابة مذكور عن محذوف، بدلالة قرينةٍ ذهنيَّةٍ أو لفظيّة، كنائب الفاعل مع قرينةِ بناء الفعل على الصيغة الخاصّة بما لم يُذْكَرَ فاعِلُه.

السابع: اقتران كلمة بكلمة مع حركة إعرابٍ ظاهرة أو مقَدَّرة، كحال المبنيّات من الأسماء، أو دون حركة إعراب كحال الحروف التي لا محلَّ لها من الإِعراب، عاملةً بغيرها أو غير عاملة.

أصول المعاني التي يُدَلُّ عليها بالألفاظ في الجملة الكلامية

بعد ملاحظة إرادة التعبير في الجملة الكلاميّة عن ربط شيءٍ بشيء لعلاقةٍ ما قامت بينهما، كالأكل والآكل، والنوم والنائم، والجمالِ و الجميل، والْقِدَم والْقَدِيمِ والحدوثِ والحادث، والوجود والموجود، والعدم والمعدوم، وأيّةِ صفةٍ والموصوف بها، وأيِّ حدثٍ ومَنْ فعله أو قام به، وزمانِ الحدث، وكانهِ، وآلته، وسببه، والباعث إليه، والغاية منه، وحُدود كلّ شيءٍ يُشار إليه بالعبارة الكلاميّة من كلّ ذلك، وقيودِهِ الوصفية الثابتة والمتحوّلة، تظهر لنا مِنْ أصول المعاني التي يرادُ الدّلالة عليها بالألفاظُ طائفة يَسْهُلُ تمييزها وإحصاؤها، وتَبْقَىٰ طائفةٌ أخرىٰ يصْعُبُ وضْعُها في مواضِعِها من الشجرة الفكريَّة لأصول المعاني.

وأكتفي هُنَا بتوجيه نظرات تحليليّة لبعض أصول هذه المعاني، وتفرُّعها عن شَجَرَتِها الفكريّة.

وأرىٰ أنّها تبدأ من تلاقي زَوْجين: الشيء الّذي يُتَصَوّرُ أنّهُ يقوم بنفسه، وهو ما يطلق عليه في اصطلاح الفلاسفة "الجوهر" والوصف الذي يُتَصَوَّرُ أنّه لاَ يقوم بنفسه، وهو ما يُطْلَق عليه في اصطلاح الفلاسفة "الْعَرَض".

وتدعو الحاجة في الكلام إلى أن يُعَبَّر به عن الشيء والوصف الذي قام به، أو عن الوصف والموصوف به، وهنا تظهر لنا أدنى النِّسبِ التي يُعَبَّر عنها بالكلام، فذكر شيء ما يستدعي ذكر الصفة الّتِي دعت إلى ذكره، وذكر وصفٍ ما يستدعي ذكر الموصوف به.

فظهر لنا بهذا عنصران أساسان هما من أصول المعاني التي يُعَبَّر عنها بالكلام.

* الشيء. "= الجوهر" وهو يشمل الفاعل والمفعول به من حيث المعنى.

* ووصفه. "= العرض".

ويتمّ ربط العلاقة بينهما بإسناد أحدهما إلى الآخر في الجملة الكلامية، وهذه هي أدنى النِّسَبِ الّتي يُعَبَّرُ عنها بالكلام.

ثمّ قد تدعو الحاجة البيانيّة إلى تحديد الشيء "= الجوهر" بالقيود الّتي تُمَيِّزُه عن غيره قَبْلَ أو مع إسناد الوصف إليه، لتُعْرَف حقيقة الموصوف، وكذلك قد تدعو الحاجة البيانية إلى تحديد الوصف "= العرض" بالقيود التي تميِّزه عن غيره. فظهر بهذا ما يُعْرَفُ بقيود المسند إليه، كالوصف، والحال، والتمييز ونحو ذلك. وظهر أيضاً ما يُعْرَفُ بقيودِ المُسْنَدِ، فعلاً كان، أو خبراً أو نحوهما، كالحال، وقيود الزمان والمكان.

ثم نلاحظ أنّ الوصف "= العرض" قد يكون ملازماً للموصوف "= الجوهر" وقد يكون حَدَثاً طارئاً، كالحركة والسكون، والحرارة والبرودة، والحدث لا بدّ له من

ظرف زمانٍ حدَث فيه، أو يَحْدُث فيه، ومفاصل الزّمن الكبرىٰ التي يُعبَّر عنها بصِيَغِ الأفعال هي: "الماضي والحاضر والمستقبل" وهنا ظهرت الحاجة في الكلام إلىٰ بيان الظرف الزماني بصيغة الكلمة، كالفعل الماضي والمضارع.

وظهرت الحاجة أيضاً للتعبير عن الزمان بمادة الكلمة، كالزمان، والحين، والدهر، والساعة، واليوم، والشهر، ونحو ذلك.

ثم نلاحظ أنَّ كل شيء من الأشياء المخلوقة ومعها أوصافُها القائمة بها، والأحداث الجارية فيها أو الصادرة عنها، لا بدّ أن تكون في ظرفٍ مكاني. وهنا ظهرت الحاجة في الكلام إلىٰ بيان الظرف المكاني.

وبالظرف الزمانيّ والظرف المكانيّ وُجد في الكلام ما يُسَّمىٰ المفعول به زماناً ومكاناً.

ثم نلاحظ أنّ إحداث الحدث قد يكون بسبب أو بآلَة، وبهذا ظهرت الحاجة في الكلام أحياناً إلىٰ بيان السبب أو الآلة، ومِن ثَمَّ جاء في الكلام ما يدلُّ علىٰ السبب والآلة.

ونلاحظ أيضاً أنّ الحدث المقصود إنّما يكون بباعثٍ ولغايَةٍ، ومن هذا ظهرت الحاجة في الكلام أحياناً إلىٰ بيان الباعثِ للحدث، والغاية منه، فجاء في الكلام مايدلُّ علىٰ ذلك، ومنه ظهَرَ في الكلام ما يسمَّىٰ "المفعولَ لأجله".

ونلاحظ أنه قد يقترن الحدث بحدث آخر، وقد تدعو الحاجة إحياناً في الكلام إلى بيان الحدث المقارن للحدث المراد بيانه أصلاً، ومن هذا ظهر في الكلام ما يُسمَّى "المفعول معه".

وتنفعل النفس الإنسانية بأحاسيس مختلفة يُرِيدُ الإنسان التعبير عنها بالكلام، فظهر في الكلام ما يدلّ على بعض هذه الأحاسيس الأصول، مثل: التَّوَجُّع، التَّفَجُّع، التَّعَجُب، المُدْح، الذَّمّ، التَّحْذِير، الإِغْراء، الاسْتِفْهَام، الإِثبات، النفي، التأكيد. إلى غير ذلك من أحاسيسَ ومعانٍ أصولٍ يرادُ التعبير عنها بصيغٍ خاصّة، أو كلماتٍ خاصّة، كعبارات التوجع والتفجُّع، وفِعْلَي التعجّب، وأفعال المدح والذّم، وصيغ التحذير و الإِغراء، وأدواتِ الاستفهام، وأدوات النفسي، والمؤكّدات.

ترتيب الجملة في اللّسان العربي

إذا أردْنا أن نصوغ جملة نبيّن فيها طلوع القمر أو عدمه، وجدنا أنفسنا أمام عَددٍ من الاحتمالات، مثبتين أو نافين:

(1) طلَعَ القمر، ما طلع القمر.

(2) القَمَرُ طَلَع، القمَرُ ما طلع.

(3) القَمَرُ طَالِعُ. القمر غير طالع. ليس القمر طالعا.

(4) ما طالعٌ القمر.

ولكن هل هذه الصيغ تقع في درجةٍ واحدةٍ من البيان، أم هي مختلفة، مع جوازها جميعاً في اللّسان العربي؟

يقول النحويّ هذه كلّها جائزة، ولكلٍّ منها عندي تخريجٌ إعرابي.

لكنّ البلاغيَّ يقول: إن صِيَغَ "طَلَعَ القمر – ما طَلَع القمر – ما طالعٌ القمر" تقال في مقام الإخبار الابتدائي الذي لا حاجة فيه إلى تأكيد، أما صِيَغ "القَمَرُ طَلَع – القمرُ ما طَلَع – ليس القمرُ طَالعاً" فتقال في مقامٍ يحتاج فيه الخبر إلى نوع تأكيد، فإذا لم تكن حال المخاطبِ تقتضي تأكيداً فلا داعي لاستخدام هذه الصّيغ، إذْ جاء فيها إسناد الطلوع إلى القمر مرّتين، فالقمر فيها مبتدأ أو أصله مبتدأ، وفعل طَلَع مُسْنَدٌ إلى ضمير يعود على المبتدأ، والجملة هي خبر المبتدأ، واسم الفاعل "طالعاً" كالفعل يحمل ضميراً يعود على القمر.

فتغيير الترتيب في أركان الجملة نَجَمَ عَنْه إضافَةُ دلالة، فَعَلَى الْبَلاَغِيّ أن يُلاحظها لدى إنشاء الكلام، ولدى فهم النصوص البليغة الرّفيعة.

ولركني الإسناد الرئيسين في الجملة الكلاميّة توابع، منها المفعول به، وموضعه الأصليّ في الجملة العربية بحسب ترتيب الكلام المعتاد يأتي بعد الفاعل، على الوجه التالي:

فعل فاعل مفعول به

مثل: أكل الذئبُ الحَمَلَ

قال النحاة: ويجوز تقديم المفعول به على الفاعل، ويجوز تقديمه أيضاً على الفعل، إلاَّ عند اللَّبس.

فيقال: أَكَلَ الحَمَلَ الذّئبُ.

ويقال: الحَمَلَ أكَلَ الذئبُ.

ويقال: رفَعَ سعيدٌ طناً من الحديد.

يقال: طناً من الحديد رفع سعيد.

لكنّ البلاغيين قالوا: إنّ مخالفة الأصل في ترتيب بناء الجملة، و استخدامَ ما يجوز فيها بحسب استعمال العرب، هو في الغالب لغرض تأدية معنىً من المعاني، لا لمجرَّدِ استخدام احتمالات جائزة، باستثناء حالة الضرورة الشعريّة، أو حاجة توازن الجمل وتناسُقِها، ومراعاةِ السَّجْع أو القوافي، ضمن أغراضٍ جماليّةٍ في الكلام.

فتقديم المفعول به عن رتبته، ولا سيّما تقديمُهُ على الفعل الذي هو صَدْرُ الجملة الفعليّة ينبغي أن يكون لغرض، وهو الدّلالة على معنًى ما، كالتخصيص، أو الحصر، أو بالغ الاهتمام، أو نحو ذلك.

ورُتَبُ عناصر الجملة تشبه رُتَب جلساء رئيس القوم، فإذا قدَّم الرئيس إلى جواره من هو في العادة يجلس بعيداً عنه بحسب رتبته، فإنما يُقَدِّمه لغاية يفهمها الفطناء، فإذا وضعه في موضع وزيره الأول، أدرك أهل الفطانة أنّه مُهْتَمٌّ به وبتكريمه، أو أنه سوف يستوزره.

معالم الترتيب في عناصر الجملة عند النحاة

قال النحويون:

الأصل في الفاعل أن يتّصل بفعله لأنه كالجزء منه، ثم يأتي بعده المفعول به، وقد يُعْكَسُ الأمر، وقد يتقدّم المفعول به على الفاعل والفعل معاً، وكلُّ ذلك: إمّا جائزٌ، وإمّا واجب، وإمّا ممتنع.

* فيجوز تقديم المفعول به على الفاعل وتأخيره عنه في نحو: "كتب زُهيرٌ الدرسَ - كتبَ الدّرْسَ زُهَيرٌ".

* ويجب تقديم أحدهما على الآخر في خمسة أحوال:

إذا خُشِي الالتباسُ والوقوعُ في الشّكّ، بسبب خفاء الإعراب، مع عدم قرينة، فلا يُعْلَم الفاعل من المفعول به، فيجب تقديم الفاعل، مثل: "علَّمَ مُوسَى عيسَى - أكْرَمَ ابني أخي - غَلَبَ هذا ذَاك".

فإذَا أُمِنَ اللَّبْس لقرينة دالّة جاز تقديمُ المفعول به، مثل: "أكْرَمَتْ مُوسَى سَلْمَى - أضْنَتْ سُعْدَى الحُمَّى".

أَنْ يتصل بالفاعل ضمير يعود على المفعول به، فيجب تأخير الفاعل وتقديم المفعول به، مثل: "أكرَمَ سعيداً غُلامُه - وإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ - يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ".

وما ورد على خلاف ذلك فضرورة شعريّة.

أن يكون الفاعل والمفعول به ضميريّن، ولا حَصْر في أحدهما، فيجب تقديم الفاعل وتأخير المفعول به، مثل: "أطعمتهُ وسقيته".

أن يكون أحدهما ضميراً متّصلاً والآخر اسماً ظاهراً، فيجب تقديم الضمير منهما.

* فيُقَدَّمُ الفاعل وُجوباً في نحو "أكرمت عليّاً".

* ويُقدَّمُ المفعول به وجوباً في نحو "أكرمَنِي عليٌّ".

أن يكون أحدهما محصوراً فيه الفعل بحرف "إلاَّ" أو بحرف "إنّما" فيجب تقديم ما حُصِر فيه الفعل، سواءٌ أكان مفعولاً به، أَمْ فاعلاً، مثل: "ما أكرمَ سعيدٌ إلاَّ خالداً – ما أكرمَ خالداً إلاَّ سيعدٌ إنَّما أكرم سعيدٌ خالداً – إنَّما أكرمَ خالداً سَعِيداً". وقال النحويون:

يجوز تقديم المفعول به على الفعل والفاعل معاً، في نحو: "عَلِيّاً أكْرَمْتُ" ومنه قول الله تعالى: {فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (87)}.

ويجب تقديمه عليهما في أربعة أحوال:

(1) أن يكون المفعول به اسمَ شرط، مثل: أَيَّهُمْ تكْرِمْ أكرم – {وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)} [الرعد:13].

أو مضافاً إلى اسم شرط، مثل: هَدْيَ مَنْ تَتْبَعْ يَتْبَعْكَ بَنُوكَ. والسبب أنّ اسم الشرط له الصدارة في الجملة.

(2) أنّ يكون المفعول به اسمَ استفهام مثل: مَنْ أكْرَمْتَ؟ - مَا فعلْتَ؟ - كَمْ كتاباً اشترَيْتَ؟ - {فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنكِرُونَ (81)} [غافر:40].

أو مضافاً لاسم استفهام مثل: كِتَابَ مَنْ أَخَذْتَ؟

والسبب أنّ اسم الاستفهام له الصدارة في الجملة.

(3) أن يكون المفعول به لفظ "كم" أو "كأيّن" الخبريّتَيْن، مثل: "كَمْ كتاب ملكتُ - كَمْ عِلْمٍ حَوَيْتُ - وكَمْ عُلَمَاءَ تخرجُوا في مَدْرَسَتِي - وكأيّنْ من قصيدَةِ شعْرٍ كَتَبْتُ".

أو مضافاً إلى "كم" الخبريّة، مثل: "ذَنْبَ كَمْ مُذْنِبٍ غَفَرْتُ"

(4) أن ينصب المفعولَ به جوابُ "أمّا" وليسَ لجوابها منصُوبٌ مُقَدَّمٌ غيْرُهُ، مثل: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ}.

وإنّما وجب تقديمُهُ في هذه الحالة ليكون فاصلاً بين "أمّا" وجوابها، فإذا وُجد فاصلٌ غيره فلا يجب تقديمه، مثل:

*لَقَدْ كُنَا نَخَافُ عَصَاكَ يَوْماً * فَأَمَّا الْيَوْمَ فَافْعَلْ مَا بَدَا لَكْ*

وقال النحويون:

إذا تعددّت المفاعيل في الكلام فَلِبَعْضِهَا الأصالة في التقدُّمِ على بعض.

* إمّا بسبب كونة مبتدأً في الأصل، كما في باب "ظنّ".

* وإمّا بسبب كونه فاعلاً في المعنى، كما في باب "أعطى".

فمفعولاً "ظنّ" وأخَوَاتِها، أصلُهُما مبتدأ وخبر، فإذا قلت مثلاً: "عَلِمْتُ اللهَ رَحيماً" فالأصل: "اللهُ رحيم".

ومفعولا "أعْطَى" وأخواتها ليس أصلها مبتدأً وخبراً، غير أن المفعول به الأول هو فاعل في المعنى، فإذا قلتَ مثلاً: "ألبَسْتُ الفقير ثوباً" فالفقير فاعلٌ في المعنى، لأنَّهُ هو الذي لَبِسَ الثوبَ، والثوبُ ملبوسٌ.

بناءً على هذا فالأصلُ تقديم ما أصله المبتدأ في باب "ظنّ" وما أصله الفاعل في باب "أعْطَى" مثل: "ظَنَنْتُ الْبَدْرَ طالعاً - أعطيت سعيداً الكتاب - كَسَوْتُ الفقِيهَ جُبَّةً".

قالوا: ويجوز العكسُ إنْ أُمِنَ اللَّبْسُ.

ويجب تقديم أحد المفعولين على الآخر في أربعة أحوال:

(1) أنْ لا يُؤْمَنَ اللَّبْسُ، فيجب تقديم ما حقُّه التقديم، وهو ما كان متبدأ أو فاعلاً في المعنى، مثل:

* "ظننتُ سعيداً خالداً" إذا كان سعيدٌ هو المظنون أنه خالد، وإلاَّ وجب تقديم خالد. "وهو من باب ظنّ".

* قول ذي السلطان: وهبتُ الأَبَ ابْنَهُ، إذا كان الابن هو مستحقّ العقاب فعفا عنه من أجل أبيه، وإذا كان الأب هو مستحقّ العقاب، قال: وهبتُ الأبْنَ أباه.

"وهو من باب أعطىٰ".

(2) أن يكون أحد المفعولين ضميراً والآخر اسماً ظاهراً، فيجبُ تقديمُ ما هو ضميرٌ وتأخيرُ ما هو ظاهر مثل: "أعطيتُكَ فرساً - فرساً أعطيتُهُ سعيداً".

(3) أن يكون أحد المفعولين محصوراً فيه الفعل، فيجب تأخير المحصور سواءٌ أكان المفعولَ الأوّلَ أم الثاني، مثل: "ما أعطيت سعيداً إلاَّ دِرْهماً - ما أعطيتُ الدِّرْهَمَ إلاَّ سعيداً".

(4) أن يكون المفعول الأوّل مشتملاً علىٰ ضميرٍ يعودُ علىٰ المفعول الثاني، فيجب تأخير الأوّل وتقديم الثاني، مثل: "أَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيَهَا".

إذْ لو قُدّم المفعول الأوّل في هذه الحالة لعاد الضمير علىٰ متأخّر لفظاً ورُتبةً، باعتبار أنّ المفعول الثاني رتبتُه التأخير عن المفعول الأول.

ولا يصحُّ في اللّسان العربي عوّدُ الضمير علىٰ متأخّر لفظاً ورتبةً معاً، إلاَّ في نحو ضمير الشأن والقصة.

هذه مقرّرات علماء النحو بالنسبة إلى ترتيب عناصر الجملة فيما يتعلّق بالفعل والفاعل والمفاعيل.

وقال النحويّون:

يجب تقديم المبتدأ في ستة أحوال:

(1) أن يكون المبتدأ من الأسماء التي لها صدْرُ الكلام، مثل:

* أسماء الشرط.

* أسماء الاستفهام.

* "ما" التعجبيّة.

* "كَمْ" الخبرية.

(2) أن يكون المبتدأُ مُشَبَّهاً باسم الشرط، مثل: "الذي يجتهد فَلَهُ جائِزَةٌ - كلُّ تلميذٍ يَجْتَهِدُ فَهُو مؤهَّلٌ للنجاح".

(3) أن يضافَ المبتدأ إلى اسم له صَدْرُ الكلام، مثل "غُلاَمُ مَنْ هُو؟ - زِمَامُ كَمْ مَدْرَسَةٍ في يَدِ وزير التربية؟".

(4) أن يكون المبتدأ مقترناً بلام التأكيد، وهي لام الابتداء، مثل: {وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ} [البقرة:2/ 221].

(5) أن يكون كلٌّ من المبتدأ والخبر معرفةً نَكِرَةً، ولا تُوجَدُ قرينة تُعَيِّنُ أَحَدَهُمَا، فيجب تقديمُ المبتدأ خشية التباس المُسْنَدِ بالمُسْنَدِ إليه، لأنّ الأصل في ترتيب المبتدأ أن يكون قبل الخبر، مثل:

* "أخوك عليٌّ" إذا أردتَ الإِخبار عن الأخ.

* "عليٌّ أخوك" إذا أردتَ الإِخبار عن عليّ.

(6) أن يكون المتبدأ محصوراً في الخبر، مثل:

* {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ...} [آل عمران:3/ 144].
{إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ (12)} [هود 11/ 12]، أي ما أَنْتَ إلاّ نَذِيرٌ.

فالمبتدأ في المثالين محصورٌ في الخبر.

وقال النحويّون:

يجب تقديم الخبر على المبتدأ في أربعة أحوال:

(1) إذا كان المبتدأُ نكرةً غير مفيدةٍ ومُخْبَراً عنها بظرْفٍ أو جارٍّ ومجْرُورٍ، مثل: "في الدار رجُلٌ - عندكَ ضيفٌ - لَدَيْنَا مَزيدٌ - على أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ".

(2) إذا كان الخبرُ اسْمَ استفهام، مثل: "كيفَ حَالُكَ؟" أو مضافاً إلى اسم استفهام، مثل: "ابنُ مَنْ أَنت؟ - صبيحةَ أيِّ يَوْمٍ سَفَرُكَ؟".

(3) إذا اتّصل بالمبتدأ ضمير يَعُودُ على شيءٍ من الخبر، مثل: "في الدار صاحبُها - مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها - أَمْ عَلَى قُلوبٍ أَقْفَالُهَا".

(4) أن يكون الخبر محصوراً في المبتدأ، مثل:

* "مَا خالقٌ إلاَّ الله".

* إنّما محمودٌ مَنْ يَجْتَهِد" أي: ما محمودٌ إلاَّ مَنْ يجتهد.

* إنّما الخالقُ الله" أي: ما الخالقُ إلاَّ الله.

هذه مقررات النحويّين بالنسبة إلى ترتيب عنصري الجملة الاسمية.

وقال النحويّون:

الأسماءُ التي لها الصدارة في الجملة، فلا يتقدَّمُها إلاَّ جارٌّ لها، أو مضافٌ إليها، أو حُروفُ العطف؛ هي:

(1) أسماء الاستفهام.

(2) أسماء الشرط.

(3) "ما" التعجبيَّة.

(4) "كم" الخبرية.

وقال النحويّون:

إذا اجتمعت التوابع في جملة واحدة قُدِّمَ منها:

(1) النعت.

(2) فعطف البيان.

(3) فالتوكيد.

(4) فالبدل.

(5) فعطف النَّسَق. وهو ما كان بحرف عطف.

مثل: "بعثَ اللهُ الرَّسُولَ العربيّ محمّداً نَفْسَه أخَا بَنِي إسْحَاقَ والرَّسُولَ والنبيّينَ مِنْ قَبْلِه".

(6) نظر الأديب البليغ حول مراعاة ترتيب عناصر الجملة

إذا كان نظر علماء النحو إلى ترتيب عناصر الجملة هو على النحو الذي سبق بيانه، فإن نظر الأديب البليغ لا يكتفي بالتقيُّد بما يجوز في التراكيب العربيّة، فيستخدمُها كيفما اتفق، بَلْ يَنْظُرُ إلى دَلالاتها، وإلى المعاني التي تُؤَدّيها مُخْتَلِفَاتُ التراتيب، والتركيبات، فيستَخْدِمُ منها ما يدُلُّ على ما يُريدُ التعبير عنه في كلامِهِ بأخْصَرِ عبارة، ويُحاوِلُ دوماً أن يطابِقَ بين اختياره منها وما يُريدُ التعبير عنه.

(7) دوائر عطاء الجملة الكلامية

الدائرة الصغرى:

أصغر دائرة عطاءٍ بيانيّ تقدّمه الجملة الكلامية يظهر بنسبة شيءٍ إلى شيءٍ.

* كنسبة الوجود إلى الأرض، فنقول: الأرض موجود، أي: لها صفة الوجود، ففي هذه الجملة نَسَبْنَا الوجود إلى الأرض.

* وكنسبة العدم إلى شريك الباري، فنقول: شريك الباري معدوم، ففي هذه الجملة نسبنا العدَمَ إلى شريك الباري.

* وكنسبة الطلوع أو الأفول إلى القمر، فنقول: طَلَع القمر - أفل القمر.

* وكنسبة الموت إلى إنسان كان حيّاً فمات، فنقول: مات فيصل.

من هذه الأمثلة نُلاحظ أنّ ركناً من رُكْنَي كُلّ جملةٍ فيها يتضمَّن معنىً هو شيءٌ منسوبٌ، وأنّ الركْنَ الآخر من ركنيها يتضمن معنىً هو شيءٌ منسوبٌ إليه معنى الركن الأول، وأن الألفاظ دوالٌّ على المعاني.

فبالتحليل يظهر لنا ثلاثة عناصر:

الْعُنْصُر الأول: مَنْسُوبٌ.

العنصُر الثاني: منسوبٌ إليه.

العنصُر الثالث: نسبةٌ بينهما ذهنية، وقد يُدَلُّ عليها بلفظ، أو بحركة، وهذه النسبة هي الرابطة بين رُكني الجملة الكلامية.

والنسبة في الجملة قد تكون بالإِثبات كالأمثلة السابقة، وقد تكون بالنفي، وذلك حين تدخل على الجملة أداةٌ من أدوات النفي، فنقول مثلاً: ما طلع القمر، وما مات إبليس، وصوت الحمار ليس جميلاً، ولاَ يَمْشِي الجماد.

وللتفريق بين رُكْنَي الجُمْلَةِ الرّئيسَيْنِ والنسبة الرابطةِ بينهما ظَهَرَتْ عدّة مصطلحات عند العلماء على اختلاف تخصُّصاتهم.

فقالوا:

(1) المسند: وهو الخبر أو ما يَسُدّ مَسَدَّه في الجمل الاسمية، والفعل في الجمل الفعلية، أو ما يَعْمَلُ عَمَلَه.

(2) المسند إليه: وهو المبتدأ في الجمل الاسمية، أو ما أصله المبتدأ، والفاعل أو ما ينوب عنه في الجمل الفعلية.

(3) الإِسناد: وهو الرابطة الذهنيّة بين المسند والمسند إليه، وقد يُدَلُّ على الرابطة بنحو ضمير الفصل وحركة الإِعراب.

الدائرة الرابعة:

وهي الجملة التي تشتمل على دائرةٍ عطاءٍ بيانيّ يظهر بنسبة شيءٍ إلى أربَعَةِ أشياء.

الأول: هو الذي اتّصَفَ بالشيءِ منْ جهة كونه مؤثراً به (أي: فاعلاً).

الثاني والثالث والرابع: هي الأشياء الّتي اتَّصَفَتْ بالشيء منْ جهة كون كلٍّ منها متأثّراً به "أي: مفعولاً به" مع اختلاف صفة التّأثُّر في كلٍّ منها.

مثل: "أَعْلَمَ اللهُ النَّاسَ مُحَمّداً رَسُولاً" فالإعلام في هذه الجملة ذو أَرْبَعِ نِسَب:

(1) نِسْبَتُهُ إلى فاعله المؤثّر به، فهو مُعْلِمٌ بكَسْرِ اللام.

(2) نسْبَتُهُ إلى الواقعِ عليه المتأثِّرِ به فهو مُعْلَمٌ بفتح اللاّم، وهذا المعلَمُ لَهُ ثلاثة جهاتٍ مختلفات:

الجهة الأولى: كَوْنُ المُعْلَمِ مُسْتَفِيداً كاسباً لِلْعِلْم.

الجهة الثانية: كَوْن المُعْلَم أَحَدَ رُكْنَي القضيّة الّتي جرى الإعلام بها، وهو فيها مُسْنَدٌ إليه، وهو: "مُحَمّداً".

الجهة الثالثة: كون المُعْلَمِ أَحَد رُكْنَي القضيّة الّتي جرى الإعلام بها، وهو فيها مُسْنَدٌ، وهو: "رَسُولاً".

وأصلُ القضيّة التي جرى الإعلام بها هي: "مُحَمّدٌ رَسُولٌ".

فظهر بهذا التحليل أنّ الإعلام ذو أربع نِسَب.

الاقتصار على بيان بعض النسب:

بعد بيان هذه الدوائر الأربع لعطاء الجملة الكلاميّة، نلاحظ أنّه قد لا يستدعي موضوع الجملة أكثر من الدائرة الأولى، وقد يستدعي موضوعُها الدائرة الثانية، أو الدائرة الثالثة، أو الدائرة الرابعة.

ومع استدعاء موضوع الجملة أكثر من الدائرة الأولى، فقد يتعلّق غرضُ المتحدّث بالاقتصار على بعض النِّسَب وإغفال بيانِ ما يتعلّق بالنِّسَبِ الأُخرى، وله ذلك متى أفاد بحديثه ما يريد إبلاغَهُ من الإسناد، وأدناه الدائرة الأولى، ويكون فيها إسنادُ شَيْءٍ إلى شيءٍ بجملةٍ تُقَدِّمُ فائدةً ما. ودون ذلك يكون الكلام ناقصاً ولَغْواً.

ولا بُدَّ من ملاحظة أنَّ المحذوف المقدَّر الذي يُمْكن إدْراكُهُ وتصوُّرُهُ ذهْناً لوجود قرينة تدلُّ عليه لفظيَّةٍ أو غير لفْظيَّة، هو كالمذكور، ولدى علماء العربية والبلاغيّين ضوابط لذلك.

نظرة حول ما يُسَمَّى فضلةً في الجملة عند النحويين

لعلّ ما يَصِفُه النحويون في الجملة الكلاميّة بأنه فضلَةٌ يقْصِدون به أنَّهُ عطاءٌ فكريٌّ زائدٌ على أصغر دوائر الجملة الكلاميّة المفيدة.

فالّذي أرَاه أنَّه لا تُوجَدُ في الجملة الكلامية كلمةٌ تُؤدّي معنىً مقصوداً بالبيان، لا تؤدّيه كلمةٌ أخرى غيرها تأدِيَةً مباشرةً، يَصِحُّ أن تُسَمَّى لدى التحقيق فضلةً في علم المعاني، لأنّ الفضلةَ يَنْبَغي أنْ تُطْلَق على ما في الكلام من ألفاظٍ تدلُّ على معنىً هو زائدٌ على المطلوب بيانُه والتَّعْريفُ به.

فإذا قال النحويُون أو البلاغيّون تبعاً للنحويّين: إنّ ما زاد على رُكْنَي الإسناد "المسند والمسند إليه" في الجملة الكلامية هو فضلة، كالمفاعيل وسائر متعلّقات الفعل، فَقَصْدُهُمْ من ذلك فيما أرى أنّ الجملة المفيدة لا بُدَّ فيها حَتْماً مِنْ رُكْنَيِ الإِسناد، وإلاَّ كان الكلام غير مفيد، فما زاد على ذلك يعتَبَرُ زائداً على أدْنَى ما يَجِبُ أَنْ تُبْنَى بِه جملةٌ كلاميّةٌ مفيدة، لا أنّه زائد على ما يَقْصِدُ المتكلِّمُ بيانه.

إذْ كُلُّ فِكْرَةٍ دلَّ عليها لفظٌ في الكلام – مهما دقَّتْ هذه الفكرة – إذا كانت مقصودة بالبيان، فإنَّه يُمْكِنُ أن تُصَاغَ لأَجْلِها جُمْلَةٌ مفيدة من "مُسْنَدٍ ومُسْنَدٍ إِلَيْه" وأن تكون هذه الجملةُ منفصلة مستقلّة، إلاَّ أنّ الاقتصادَ في التعبيرَ جعل الْجُمْلةَ تَسْتَوْعِبُ بتعلّقات الإِسناد في المفاعيل، وبقيود الإِسناد، وقيودِ المُسْنَدِ، وقيودِ المُسْنَدِ إليه عِدَّةَ جُمَلٍ، وهي لَوْ حُلِّلَتْ وَفُصِّلَتْ لكانت في بعضها جملتين، ولكانت في بعضها ثلاثَ جُمَلٍ، وفي بعضها أَرْبعَ جمل، وخَمْسَةً وسِتَّةً وأكثر من ذلك، بعَدَدِ المتعلّقاتِ والقيود. بهذا البيان التحليلي لا يصِحُّ أنْ نعتبر في مثل عبارة: "ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْراً" أنَّ "عَمْراً" فضلة، لأنّ فكرةَ وقُوع ضَرْبِ زيْدٍ على عَمْرٍو فكرةٌ مقصودةٌ بالبيان، تُصَاغُ لَهَا جُمْلَةٌ خاصَّةٌ مفيدة، نَقُولُ فيها: "ضُرِبَ عَمْروٌ" أو "عَمْروٌ مَضْرُوبٌ"، وهكذا سائرُ متعلّقاتِ الجملة الكلاميّة وقيودُها.

أمّا الفضلة الحقيقيّة فهي الكلمة التي لا تُضِيفُ إلى معنى الجملة معنىً مقصوداً بالبيان،كالمترادفات المتتابعات في الجملة، وكزوائدِ التأكيد في الجملة التي لا يُرْفَعُ بِذكْرِها تَوَهُّمُ المجاز أو الْغَلَطِ وسَبْقِ اللّسان، كأن تقول: "جاء القومُ أجمعون

أكتعون أَبْصَعُون" فالمترادفاتُ الإطنابية، المؤكّدات الإِطنابيّة زوائد لم تُضِفْ جديداً، ولم ترفَعْ توهُّماً.

(9) مشجَّرات تحليليّة للجملة الكلاميّة

(10) تقسيم الجملة إلى خبريّة وإنشائية

استقرّ رأي الحذَّاق من النحويّين وعلماء أصول الفقه وغيرهم، وعلماء البلاغة، على أنّ الكلام ينحصر في قسمين: "الخبر، والإِنشاء" وأنّه ليس له قسمٌ ثالث.

وقيل استقرار الرأي على هذا التقسيم كان للباحثين في هذا الموضوع أقوال، فقيل: أقسامُ الكلام عشرة، وقيل: تسعة، وقيل: ستّة، وقيل: خمسة، وقيل: أربعة، وقيل ثلاثة، على اختلاف وجهات أنظار أصحاب هذه الأقوال.

والدليل على انحصار الكلام المفيد في الخبر والإنشاء، أنّ الكلام:

* إمّا أن يحتمل لِذات الكلام لا لمقتضياتٍ أخرى - أن يُقالَ فيه هو مطابق للواقع أو غير مطابق للواقع، فهو الخبر.

* وإمّا أن لا يحتمل أن يقال فيه ذلك باعتبار منطوقة، لا باعتبار دلالاته اللّزُوميّة، فهو إنشاء.

فالجملة المفيدة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الجملة الخبرية، وهي الجملة الّتي اشتملت على خَبَرٍ مَا، فَمَضْمُونُها إخبارٌ عن أَمْرٍ ما، إيجاباً أَوْ سَلْباً.

والقصدُ منها الإِعْلامُ بأنَّ الْحُكْمَ الّذي اشتملت عليه له واقعٌ خارجَ العبارة الكلاميّة مطابقٌ له.

القسم الثاني: الجملة الإِنشائية، وهي الجملة الّتي لم تشتمل على خَبَرٍ، وإِنَّما أنشأ النُّطْقُ بِهَا حدَثاً ما، كإِنْشاءِ طَلَب الفعل، إذا قُلْتَ لا بْنِك: اسْقِنِي، أو قُلْتَ لَهُ: اجْتَهِدْ، أو لا تكْسَلْ، وكإِنْشاء طلَب الْفَهم، إذا قلْتَ للفقيه: هلْ يجوز أن أفعل كذا؟ أو ما حكمُ كذا شرعاً. ونحو ذلك.

فليس القصد من الجملة الإِنشائيّة الإِعلامَ نسبةٍ حكميّةٍ تحقَّقَتْ أَوْ لم تتحقَّقْ في الواقع، وإنْ كان يلزم عقلاً منْ إيراد الجملة الإِنشائية فَهْمُ قضايا وجُمَلٍ خبريَّةٍ أُخْرَىٰ لا تَدُلُّ عليها الجملة الإِنشائيَةُ بمنطُوقِها دَلالَةً مُبَاشِرة، بل تَدُلُّ عليها باللُّزوم الذهني.

كدلالة الجملة الاستفهاميّة علىٰ أنَّ المستَفْهِمَ جاهلٌ يطلبُ الفهمَ، وكدلالة جملة التَّمَنِّي علىٰ أنّ من أنشأها يتمنّىٰ في نفسه ما دَلّت عليه عبارَتُه، وكدلالة جملة المدح علىٰ أنّ المادح بها يُعَبِّرُ بصِدْقٍ عمّا في نفسه.

إلىٰ غير ذلك من دلالات خبريّة تُستفاد باللّزوم الذهني من الْجُمَلِ الإِنْشَائيّة.

تعريف الخبر:

الخبر: هو الكلام الذي يحتمل الصِّدْق والكذبَ، باعتبار كونه مجرّد كلامٍ، دون النظر إلى قائله، ودون النظر إلى كونه مقترناً بما يدُلُّ على إثباته حتماً، أو نَفْيِهِ حتماً، ومَدْلُولُه لا يتوقّف على النُّطْق به، ويدخُلُ فيه الوعْدُ والوعيد، لأنهما خبران عمّا سيفعله صاحب الوعد والوَعِيد.

مثل: طلَعتِ الشَّمْس - نَزَلَ الغيثُ - بعثَ الله محمّداً رسُولاً - سيأتي الدّجالُ في آخر الزمان - سينزل عيسَى ويَقْتُلُ الدّجال - سَنُلْقِي في قلوب الذين كفروا الرعب - وَعَدَ الله الذين آمنوا وعلموا الصالحات لَيَسْتخلفنّهم في الأرض - والكافرون لهم عذابٌ أليم.

تعريف الإِنشاء:

هوا لكلام الذي لا ينطبق عليه تعريف الخبر، ولدى تحليل حقيقته أقول: هو الكلام الذي يَتَوقَّفُ تحقُّقُ مدلوله على النُّطْقِ به، كالأمْرِ والنهي، والدّعاء، والاستفهام، والمدح والذّم، وإنشاء العقود الّتي تحقُّقُها بالنُّطق بالجُمَل الّتي تَدُلُّ عليها، مثل: بِعْتُك - اشتريتُ منك - زوَّجتُك - أنْتِ طالق - أعتقتُكَ.

هل التعجّب من الخبر أو من الإِنشاء؟

اختلفت العلماء في التعجب هل هو من أقسام الخبر أو من أقسام الإنشاء، ورجّح الكثيرون أنّه من أقسام الخبر، لأنّه إخبارٌ عن حالة التَّعجُب القائم في النفس.

والقائلون بأنّه من أقسام الإنشاء لاحظوا أنّه صيغةٌ كلاميَّةٌ يُطْلَبُ بها تعظيم الأمر في النفس السَّامع.

وللعلماء في تعريف التعجّب أقوال:

قال ابْنُ فارس: هو تفضيلُ شيءٍ على أَضْرابه.

وقال ابن الصائغ: هو استعظام صفةٍ خرج بها المتعجَّبُ منه عن نظائره.

وقال الزمخشري: معنى التعجُّب تعظيم الأمر في قلوب السامعين، لأنّ التعجُّبَ لا يكونُ إلاَّ من شيءٍ خارجٍ عن نظائره وأشكاله.

وقال الرّماني: المطلوبُ في التعجُّب الإبْهام، لأنّ من شأن الناس أن يَتَعَجَّبُوا ممّا لا يُعْرَفُ سَبَبُهُ، فكلّما اسْتَبْهَمَ السَّبَبُ كان التَّعجُّبُ أحْسَنَ... وأصْلُ التعجُّب إنّما هو للمعنَى الذي خَفِيَ سببُه، والصيغة الدّالة عليه تُسَمَّى تَعَجُّباً مجازاً... ومن أجْلِ الإبهام لم تَعْمَلْ "نِعْمَ" إلاَّ في الجِنْسِ، من أجْلِ التفخيم، ليقَعَ التَّفْسِيرُ على نَحْوِ التَّفْخِيم بالإِضْمارِ قَبْلَ الذِّكر.

والتعجُّبُ يكون بِصِيَغٍ تَدُلُّ عليه من لفظ المتعجَّب منه، وبِصِيَغٍ أُخْرَىٰ منْ غير لفظه.

فالصِّيَغُ الّتي يُتَعجَّبُ بهَا من لفظ المتعجّب منه تأتي على وِزانِ: "مَا أَفْعَلَهُ" مِثْل: ما أَكْرَمه – ما أَحْسَنَهُ – مَا أشجعَهُ. وعلى وِزان: "أَفْعِلْ به" مثل أَكْرِمْ به – أَحْسِنْ به – أَشْجِعْ به.

ومنها:

* قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ 19 مصحف/ 44 نزول):

{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا...}.

أي: ما أشدَّ سَمْعَهُمْ وما أشدَّ بَصَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ.

* قول الشاعر:

*مَا أَحْسَنَ الدِّينَ والدُّنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا * وأَقْبَحَ الْكُفْرَ والإِفْلاَسَ بِالرَّجُلِ*

* قولنا: ما أجمل الصّدق – أَكْرِمْ بالعفيفِ الشريف.

استخدام الاستفهام للتعجّب:

وقد يُسْتَخْدَمُ الاستفهامُ للتَّعَجُّبِ، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ 2 مصحف/ 87 نزول):

{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28)}؟!

أي: كُفْرُكُمْ مع هذه الأدلة الداعِيَة إلى الإيمان أَمْرٌ مستغربٌ يُنْشِىءُ التعجُّبَ مِنْهُ.

استخدام عبارات مختلفات في التعجب:

وتُسْتَخْدَم عباراتٌ أُخرىٰ في التعجّب، مثل:

"سُبْحَانَ الله – لله دَرُّ فلان – ما أَدْرَاكَ ما هِيَه".

لفظة "كَبُرَ" مثل:

* قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ 18 مصحف/ 69 نزول):

{كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً (5)}.

* وقول الله عزّ وجل في سورة (الصف/ 61 مصحف/ 109 نزول):

{كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِّ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (3)}.

وتُسْتَعْمَلُ في التعجُّب كلمةُ : "وَيْ" وهي كناية عن جُمْلَةٍ تعجُّبيَّة.

وتُسْتَعْمَل أيضاً كلمة: "واهاً" في التعجُّب من طيب الشيء، فهي بمعنى: "ما أَطْيَبه".

وتُسْتَعمل أيضاً كلمة: "هَيْتَ" في التعجب، تقول العرب: "هَيْتَ لِلْحِلْم" و"هَيْتِ لَكَ.

عبارات التعجب الواردة في كلام الله:

قال المحقّقون: إذا ورد التعجّبُ في كلام الله صُرِفَ إلى المخاطبين، ولهذا يُعَبِّر بعض العلماء بالتعجيب بدل التعجُّب، أي: هو تعجيب من الله للمخاطبين.

* قول الله عزّ وجلّ بشأن أهل النار في سورة (البقرة):

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾ البقرة: ١٧٥

أي: هؤلاء ينبَغِي أنْ تتعَجَّبُوا من شدّة صَبْرِهِمْ على عذاب النار.

* وقول الله عزّ وجلّ السابق آنفاً: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ}.

أي: تَعَجَّبُوا من شدّة سَمْعِهِمْ ومِنْ شِدَّةِ بَصَرِهِمْ.

الجملة الخبريّة وأحوالها

الصّادق والكاذب من الخَبَر والمُخْبِر به

لا بد من التفريق بين الخَبَرِ والمخْبِرِ به، من جهة الصدق والكذب، لتنحلَّ إشكالات قد تُوجَّه للتعاريف وبعض النصوص.

أولاً: الخَبَرُ الصّادِقُ: أو الخَبَرُ الصِّدْقُ، هو ما كان من الكلام مطابقاً للواقع في حقيقةِ الأَمْرِ.

ثانياً: والخَبَرُ الكاذبُ، أو الخَبَرُ الكَذِبُ، هو ما كان من الكلام غَيْرَ مطابقٍ للواقع في حقيقة الأَمْرِ.

ثالثاً: أمّا المُخْبِرُ الصّادقُ فهو المُخْبِرُ بخَبَرٍ يدّعي أنّه صادقٌ فيه، وهو يَعْتَقِد أنّه حَقٌّ وصِدْقٌ، ولَوْ كان ما أَخْبَرَ به كذباً غَيْرَ مُطابِقٍ للواقع في حقيقة الأمْر. وحين يَنْفِي الحقَّ وهو يَعْتَقِد صحَّةَ ما يقولُ فإنَّه يُسَمَّىٰ نافياً، وَلا يُسمَّىٰ جاحداً للحق، إذ هو يقول ما يعتقد.

رابعاً: وأمَّا المُخْبِرُ الكاذبُ فهو المُخْبِرُ بخبرٍ يدّعي أنّه صادقٌ فيه، وهو يَعْتَقِدُ أنّه باطلٌ وكَذِبٌ، ولو كان ما أَخْبَرَ بِهِ صدْقاً مطابقاً للواقع في حقيقة الأَمْرِ، ونفيُهُ للحقِّ يُسمَّىٰ جَحْداً وجُحُوداً، فالذي ينفي أمْراً وَهو يَرَىٰ أنه أمْرٌ ثابت هُوَ جاحد، ويقالُ له نافٍ بمقتضىٰ الإِطلاق العام.

فالمنافق الذي يقولُ بلسانه: "مُحَمَّدٌ رسولُ الله" هو كاذبٌ في قوله، لأنّه يقولُ خلافَ ما يَعْتقِد، وكلامُهُ حَقٌّ وصدْقٌ، لأنّه مطابقٌ للواقع، وقد دلَّنا الله عزَّ وجلَّ على هذا التفريق في قوله في سورة (المنافقون):

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ المنافقون: ١

وبهذا التفريق بين الخَبَر والمخبِرِ به تنحَلُّ إِشْكَالاتٌ واعتراضاتٌ مُوَجَّهةٌ على التعاريف التي ذُكِرَتْ للصّدْقِ والكذب.

وفي بيان أنّ النافيَ المستيقن من الأمر جاحِد قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل):

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ النمل: ١٣ - ١٤

ووصف الله بالجحود الذين يُذْكرون آيات الله ثم ينكرون دَلاَلاتِها الدامغات، ومن ذلك قوله تعالى في سورة (الأنعام) خطاباً لرسوله:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنعام: ٣٣

أغراض توجيه الخبر

الأصل في توجيه الكلام الذي يَتَضمَّن خبراً ما أن يكون الغرض منه الإعلام بالخبر الذي دلَّ عليه الكلام، أي: إفادة المخاطب الحكْمَ الّذِي تضمَّنَتْهُ الجملةُ أو الجُمَلُ الخبريَّة.

ويُسمَّى هذا عند عُلماء البلاغة "فَائِدَةَ الْخَبَر".

وَقَدْ يُرادُ من توجيه الكلام الّذي يتضمَّنُ خبراً مَا، إعْلاَمَ المخاطَبِ بأنّ المتكلِّمَ عالِمٌ بالحكْمِ الذي تضمَّنَتْهُ الجملةُ الخبريَّة، ولا بُدَّ عندئذٍ من أن يكون المخاطَبُ عالماً به.

ويسمَّى هذا عند علماء البلاغة "لاَزِمَ الفائدة".

وقد يُنزَّل العالِم بالخبر منزلةَ الجاهل به لأنه لا يعمَلُ بمقتضى عِلْمِه.

وقد يراد من توجيه الخبر إعلانُ الفخر بما تضمّنَه الخبر، كقول الشاعر:

*أنَا الْقَائِدُ الْحَامِي الذِّمَارَ وإنَّما * يُدافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي*

الذِّمارُ: ما تجب حمايته، كالأهل والعِرْض.

الأحْسَاب: مَا يَعُدُّهُ المرءُ من مَناقبٍ وشَرفِ الآباء.

وقد يرادُ منه المدح والثناء، مثل أن نقول: أللَّهُمّ أنْتَ خالق السماوات والأرض العليم القدير الحكيم الرحيم الغفار، ناصيتي بيدك، أنت قيّوم السماوات والأرض الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

وقد يُرادُ منه التحسُّرُ والتّأسّف، كقول الشاعر:

*ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ في أكْنَافِهِمْ * وبَقِيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ*

وقد يُرادُ منه الاسترحامُ والاستعطاف، كقول الشاعر:

*رَبِّ إِنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ اصْطِبَاراً * فَاعْفُ عَنِّي يَا مَنْ يُقِيلُ الْعِثَارَا*

وقد يرادُ منه إظهارُ الضَّعْف، كقول الشاعر:

*قَدْ كُنْتَ عُدَّتِيَ الَّتِي أَسْطُو بِها * وَيَدِي إذَا اشْتَدَّ الزَّمَانُ وسَاعِدِي*

وقَدْ يُرادُ مِنْهُ التوبيخ، كجواب المؤمنين للمنافقين في موقفِ الحشر بَعْدَ أن يُضْرَبَ بيْنَ الفريقين بسورٍ له بابٌ، باطِنُهُ فيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهره مِنْ قِبَلِهِ العَذَاب، في الحوار بَيْنَهما الذي عرضَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الحديد):

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ الحديد: ١٤

وكالمقالة الَّتي تُوجّه للذّين يكنزونَ الذّهَبَ والفِضّه حين يُعَذّبُونَ بصَفَائِحِهَا المُحَمِيَّةِ في نار جَهَنَّمَ، إذْ يُقَالُ لَهُمْ كَمَا جَاءَ في سُورَةِ (التوبة/ 9 مصحف/ 113 نزول): {...هَاذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (35)}.

وَقد يُراد منه إظهار الفرح، كقول أَهْلِ الجنَّةِ مظهرين الفرحَ من خلال ثنائِهِمْ عَلَىٰ الله بمَا آتاهُمْ مِنْ فَضله، كما جاء في سورة (الزمر):

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ الزمر: ٧٤

وقد يراد منه الوعظ، بتحريك النّفسِ من محَاوِر مطامعها ومخاوفها، كاستعراض نعيم الجنَّةِ لاستثارة مطامع النفس، واستعراض عَذَاب النار لاستثارة مخاوف النفس، حتى تلتزم صراط التقوى.

وقد يُراد منه الشتيمة، كأن يُقَال للَّقِيط: أَنْتَ وَلَدُ زِنَا.

وقد يُرادُ منه التذكير، كأن يُقَالَ عنْدَ المحتَضَر: أَشْهَدُ أنْ لا إله إلاَّ الله وأنّ محمداً رسول الله.

وقد يراد منه إعلامُ غير المخاطب، على طريقة: إيَّاكِ أخاطبُ واسْمَعي يا جَارَة.

إلى غير ذلك من أغراض.

(3) خروج الخبر عن أصل معناه للدلالة على الأمر والنهي والدّعاء

قد يَخْرُج الخبر عن أصل المعنى الذي وُضِعَتْ له صِيَغُه، فَيُدَلُّ به على الأمر والنَّهْي والدُّعَاء.

(1) فقد يُرَادُ من الخبر في الجملة الخبريّةِ الأمْرُ، ومِنْهُ:

* قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة):

{*وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ...}

[الآية:233].

أي: ولْيُرْضِعِ الوالداتُ أَوْلاَدَهُنَّ.

* وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة):

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ التوبة: ٧١

أي: ليكُن المؤمنون والمؤمناتُ أولياءَ بعضٍ... إلى آخر الآية.

* وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة)

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ... ﴾ البقرة: ٢٢٨ أي: ليتربَّصْنَ.

أقول: والسبب في دلالة الجملة الخبرية على الأمر أحياناً بمساعدة القرائن، ليس من استخدام الصيغة الخبريّة في معنى الأمر، ولكنَّ هذه الدّلالَة آتيةٌ من دلالة اللّزُومِ الفكري.

فوصف الله المؤمنين بأنّ بعضَهُمْ أولياءُ بعْضٍ، وبأنهم يأمُرونَ بالمعروف وينهون عن المنكر، إلىٰ آخر ما جاء في الآية، يدُلُّ باللُّزوم الفكريّ علىٰ أنّهم لا يَتَحَلَّون بهذه الصفاتِ إلاَّ بدافعٍ من إيمانِهِمْ وخوفهم من ربّهم، وحرصهم علىٰ طاعته فيما أمرهم به، ولو لم تكن هذه الصفاتُ ممّا أمَر الله به لَمَا كانَتْ أثراً من آثار إيمانهم الصادق.

ثم إنّ مثلَ هذه الصيغةِ الخبريَّةِ الواردة في الآية والمحفوفة بالقرائن، تدُلُّ علىٰ أنّ الأمْر بما جاء فيها من صفاتٍ للمؤمنين، قد كان أَمْراً بالِغَ الشّدَةِ والجَزْمِ، فلم يَكُنْ في وُسْعِ المؤمنين الصادقين إلاَّ الالتزامُ بطاعة اللهِ فيه.

وقد يُراد من الخبر في الجملة الخبريَّة النهيُ، ومنه:

* قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة):

{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ...} [الآية:197].

أي: فَمَنْ فَرَضَ فيهِنَّ الحجّ فَلاَ يَرْفُثْ ولاَ يَفْسُقْ ولا يُجَادِلْ في الحجّ. وأقول هنا نظير الذي قُلْتُه في دلالة الخبر علىٰ الأمر إذا حُفَّ بما يُخْرجه عن الخبريَّةِ من قرائن.

ورأىٰ ابْنُ العربي أنّ ما ذُكِرَ من خروج الخبر إلىٰ النَّهْيِ غَيْرُ مقبول، لا حتمال حَمْلِ الكلام علىٰ معنىٰ آخر غير ما ذكروا.

فقال في قوله تعالى: {فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ...} ليس نفياً لوجودِ الرَّفَثِ، بل هو نفيٌ لمشروعيَّتِه، فإنّ الرَّفث يوجَدُ من بعض الناس، وأخبارُ الله تعالى لا يجوزُ أن تقع بخلاف الواقع، وإنما يَرْجِعُ النفيُ إلى وُجوده مشروعاً، لا إلى وُجوده مَحْسُوساً، قال: وهذه هي الدفينة التي فاتت العلماء فقالوا: إنّ الخبر يكون بمعنى النهي، وما وُجد ذلك قطُّ، ولا يصحُّ أن يصحَّ أن يُوجَد، فإنَّهما مختلفات حقيقةً، ويتباينان وصفاً.

أقول: ما ذكر ابْنُ العربيّ وجْهٌ يُمْكن أنْ يُقْصَد، لكن استعمالَ النَّفي بمعنى النَّهي أمْرٌ متدَاولٌ بين الناس، ويدعو إليه عدّة دواعٍ بلاغيّة، منها التلطّفُ بالمخاطب.

وقد يراد من الخبر في الجملة الخبريّة الدعاء، وهذا كثير، منه:

* قولنا: يَرْحَمُ اللهُ موتانا ويَغْفِرُ لهم.

أي: اللّهم ارحمهم واغفرْ لهم.

وفي استخدام الخبر في الدّعاء معنى التفاؤُلِ باستجابة اللهِ الدعاء، وتحقُّقهِ في الواقع حتّى يكون خبراً.

* قولُ يوسف عليه السلام لأخوته فيما حكى الله في سورة (يوسف):

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ يوسف: ٩٢

يَغْفِرُ اللهُ لَكُم: جملةٌ خَبَرِيَّةٌ أُرِيدَ منها الدُّعَاءُ لهم بأَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُم.

وكان من دعاء الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم أصحابه: "غَفَرَ اللهُ له" بأسلوب الخبر، والمعنى: اللّهم اغفرْ له، وكان هذا الدّعاءُ مشعراً بقرب وفاة من دعَا الرَّسُولُ له به.

التأكيد وعدمه في الجملة الخبرية

الإِخبار الابتدائي:

الأصل في الجملة الخبريّة مُثْبتةً كانت أو مَنْفِيَّةً أنْ يؤتى بها خاليةً من المؤكّداتِ، حينَ لاَ يكونُ حالُ المخاطَب يَسْتَدْعِي تأكيدَ الخبر لَهُ، وذلك إِذا كان خاليَ الذّهْنِ، لَيْسَ في نفسِه ضِدَّ مُقَدِّم الخبرِ عواملُ شَكٍّ أو إحجامٍ عن قَبُولِ أخباره. ويَحْسُنُ في ابْتِدَاءِ الإِخْبار بِالْخَبَرِ إيرادُهُ غيْرَ مُقْتَرِنٍ بأَيَّةِ مؤكّداتٍ، ومن الأمثِلةِ قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِرَسُولِهِ في أوَّلِ ما أنزل علَيْه من تنزيل في سورة (العلق):

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ العلق: ١ - ٥

فالجملُ الخبريَّةُ في هذا النّصّ خاليةٌ مِنَ المؤكّداتِ، لعدم وجود الدّاعي إلى اقترانها بما يقتضي تأكيدها.

الإخبار الطّلَبي:

وحين يكونُ لدىٰ المخاطَبِ شَكٌّ في الخبر، أَوْ عواملُ شَكٍّ أَوْ إحجامٍ عن قبول الخبر، فإنّ حالَه تكونُ حالَ طالب يسأل عن صحة الخبر، فيَحْسُن أن يُؤتَىٰ لَه بالجملة الخبريَّةِ مُقْتَرِنَةً بِمَا يُؤَكِّدُ صحَّةَ مَضْمُونِ الْخَبَر، ويؤتَىٰ فيها بمقدارٍ من المؤكّدات يُلائِمُ نِسْبَةَ التَّشَكُّكِ لديه وعَوامِلِ الإِحْجَامِ عَنْ قبوله الخبر.

فإذا كانَتْ عواملُ الشَّكّ والإِحجامِ غَيْرَ قويَّةٍ حَسُنَ في الْكَلاَمِ إيرادُهُ مقترناً ببعضِ المؤكّداتِ من درجَةٍ دُنْيَا.

* وكلّما زاد الشَّكُّ وقويت عوامل رفضِ قبولِ الخبر، كان من بلاغه الكلام الخبريّ زيادَةُ المؤكّداتِ فيه، بمقدار حالة نَفْس الْمُخَاطَبِ.

وقد يُنَزَّلُ غيرُ الشَّاكّ مَنْزِلَةَ الشّاكَ إذا بدَتْ علَيْه أمارات الشّكّ منذ بداية التلويح له بالخبر.

الإِخبار الإِنكاري:

* وحين يصِلُ المخاطب إلىٰ حالة الإِنكار ورَفْض قبولِ الخبر، يكون من بلاغة الكلام الخيريّ وجوبُ اقترانِهِ بالمؤكداتِ التي تُلاَئم حالة الإِنكار والرَّفْضِ في نَفْس المخاطَبِ به ضعفاً وشدةً.

وقد يُنَزَّلُ غيرُ الْمُنْكِرِ منزلةَ المنْكِرِ إذا بدت عليه أماراتُ الإِنْكار.

أمثلة:

المثال الأول:

حذّر اللهُ عزَّ وجلَّ الّذين كفروا من أن يُنْزِلَ بهم الإِهْلاكَ الشَّامِلَ الّذي أنزلَهُ بكُفَّارِ أَهْلِ الْقُرُون الأولى، مبيّناً لَهُمْ أَنَّهُ إنّما أهلكهم ضمْن مجْرى سنَّتِهِ الثَّابِتَةِ في معاملة عباده.

* فكانَ البيان الإِخباريُّ في أوّلِ الأمْرِ بأسْلوبِ التَّساؤلِ عن إهلاك المكذّبين الأوّلين، لانتزاع الاعتراف بحصول المستَفْهَمِ عنه، فقالَ الله عزَّ جلَّ في سورة (المرسلات) ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ المرسلات: ١٦:

فإهْلاكُ المكَذِّبينَ الأولينَ لرسُلِ رَبّهم قضِيَّةٌ مَعْرُوفَةٌ لدى الناس الموجَّهِ لهم هذا السؤال، لذلك اكتفى النّص في بدْءِ الأمر بتوجيه السؤال لهم عن أهلاك الأوّلين.
* ثُمَّ جاء البيان الإِخباريُّ مقْتَرِناً بمؤكّدٍ واحدٍ ابتدائيّ، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (ق):

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً...}.
أي: هُمْ أشَدُّ بطْشاً من كُفّارِ أهْل مكَّة، كان هَذَا في الرُّبْعِ الأوّل من العهد المكّيّ من نشأة الدّعوة المحمّديّة.

فجاء في هذه الآية جَرٌّ تمييز "كم" الخبرية بحرف الجرّ "من" للتأكيد، مع أنّه يجوز مجيء هذا التمييز غير مجرور بمن.

* ثُمَّ جاء البيان الإِخباريُّ حول الموضوع نفسه مقترناً بمؤكِّدَينِ اثْنَيْن، فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (ص): ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ ص: ٣

فأضيفت في الجملة كلمة "مِنْ" داخِلَةً عَلَىٰ لفظ "قَبْلِهِمْ" مَعَ جرّ تمييز "كم" بحرف الجرّ "من" فهذه الزيادةُ في اللفظ قد جاءتْ لزيادَةِ التَّأكيد علىٰ ما جاء في سورة (قَ).

* ثم جاء البيان الإِخباريُّ حول الموضوع نَفْسِه مقترناً بتأكيد زائدٍ علىٰ النَّصَّيْنِ السَّابقين، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة (يونس):

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ...} [الآية 13].

فجاء الخبر في هذه الجملة مؤكّداً بثلاثة مؤكّدات:

(1) لام الابتداء في "لَقَدْ".

(2) حرف "قد" الذي من معانيه التحقيق، ويؤتَىٰ به للتأكيد.

(3) إدخال حرف "مِن" علىٰ لفظ "قَبْلهم" مع أنّ الكلام يتمّ بدونها.

المثال الثاني:

في سورة (يس) قصّ الله عزَّ وجلَّ قصّةَ الرُّسُل الثّلاثَةِ الّذِينَ أرسَلهم إلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ يُقالُ: إنّها إنطاكيّة، وَيقالُ: إنّ الرُّسُلَ الثّلاثَةَ هُمْ مِنَ الرُّسُلِ السَّبْعِينَ الّذين أَرْسَلَهُمْ عيَسىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إلَى الأقاليم، لِنشْرِ دينِ الله في الأَرْض.

فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾ يس: ١٣ - ١٧

* ففي ابتداءِ الأَمْرِ عَرَضَ الرَّسُولاَنِ عَلَىٰ أصحاب هذِه الْقَرْيَةِ أَنَّهما رسُولاَنِ يُبَلِّغَانِ تعاليم الدين، فكان بيانهما من قبيل الإخبار الابتدائي غَيْرِ المقرون بمؤكّداتٍ لفظيّة.

* فلمّا كذَّبَهُما القومُ عزَّزَهُما اللهُ برسولٍ ثالثٍ، وقالُوا لهم: {إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ} فجاء الإِخبارُ مؤكّداً تأكيداً متوسطاً، لأنّ إنكار القومِ كانَ في بدايته. والتأكيدُ في هذِهِ الجملة الخبريّةِ قد جاء بحرف التأكيد "إنّ" ويمكنُ أن نفهم من تقديم [إليكم] علىٰ عامله [مُرْسَلُون] تأكيداً آخر، لأنّ فيه معنىٰ القصر، أو زيادةَ الاهتمام، وكلاهُمَا يفيد تأكيداً، والمؤكد الثالث كون الجملة جُملةً اسميّة.

* ولمّا أصرّ القومُ علىٰ تكذيب الرّسُل الثلاثةن زاد الرُّسُل جملتهم الخبريّة تأكيداً، فقالوا: {رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ}.

والمؤكدات في هذه الجملة هي:

(1) {رَبُّنَا يَعْلَمُ} فهذه العبارة بمثابة القسم.

(2) "إنّ" وهو حرف تأكيد.

(3) اللاّم المزحلقة للخبر في عبارة {لَمُرْسَلُونَ}.

(4) كون الجملة جملةً اسميّة.

مخالفة مقتضىٰ الظاهر:

إذا أوردنا الخبر لخالي الذّهْنِ مجرّداً من المؤكدات، وللمتردّد الشاكّ مقروناً ببعض المؤكّدات استحساناً، وللمنكِر مقروناً بالمؤكدات بحسب درجة إنكاره وجوباً بلاغيّاً، كان إيرادُنا الخبر جارياً علىٰ مقتضىٰ الظاهر، وهذا يُسمَّىٰ "إخراج الكلام علىٰ مقتضىٰ الظاهر".

وقد تقتضي حالةُ المخاطب الخفيَّة غيرُ الظاهرة تأكيد الخبر له، مع أنّ توجيه الخبر له كان بصورة ابتدائيّة لا تستدعي بحسب الظاهر تأكيد الخبر له، فحين نُؤكِّدُ له الخبر ملاحظين حالته الخفية، فإنّا نُوجّه له الخبر مؤكَّداً علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر، وهذا يُسمَّىٰ: "إخراج الكلام علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر".

ولإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر عدّة صور:

الصورة الأولى: أن يُنَزَّل خالي الذهن منزلة المتردّد السائل الذي يَطْلُبُ تأكيد الخبر له، وذلك إذا شَعَرَ من مقدّمات الكلام بما يُشير إلى مضمون الخبر، فاستشرفت نفسه وتتطلّعَتْ تطلُّع المستغرب المتردّد في قبول الخبر، أو الطالب لما يُؤكّده له.

* فمن أمثلة هذه الصورة قول الله عزّ وجلّ بشأن نوحٍ عليه السلام، في سورة (هود):

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ هود: ٣٦ - ٣٧

من الظاهر أنّ مُقدّماتِ الكلام تُشْعِرُ بأنّ الله عزّ وجلّ قضى أنْ يُغْرِقَ مَنْ لمْ يؤمنْ مع نوحٍ مِنْ قومه، إذ الإِخبارُ بأنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِهِ إلاَّ من قدْ آمن، والأَمْرُ بصناعةِ الْفُلْك الَّتي لا تتّسع إلاَّ لِلمُؤمنين ولما يحتاجون في رحلتهم البحريّة، يدلُّ علىٰ أنّ سائر القوم مُغرقون، فاستشرفَتْ نفس نوح عليه السَّلام لطلَب تَأخيرِ إهْلاكهم إمهالاً، أوْ صَرْفِ النظر عن إهلاكهم أهْلاكاً عامّاً شاملاً، فبادره الله عزّ وجلّ بقوله: {وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ}. وَأَكّدَ لَهُ مَا قَضَاهُ سبحانه من إهلاكِهِمُ بالْغَرق، فقال له: {إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ (37)}. فاشتملت هذه الجملة على مؤكّدين: "إنّ" و"الجملة الاسمّية".

* ومن الأمثلة قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (التوبة) بشأن الّذين اعترفوا بذنوبهم خَلَطوا عمَلاً صالحاً وآخر سيّئاً:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ التوبة: ١٠٣

وصَلِّ عَلَيْهِمْ: أي: وادْعُ لهم بالرَّحْمَة، مُسْمِعاً دُعَاءَكَ لهم. بعْدَ هذا الأمر للرسول بأن يُصَلّي عليهم، استشرفَتْ نفس الرسول صلىٰ الله عليه وسلم للسؤال عن فائدة هذِهِ الصَّلاة الَّتي يُسْمِعُهُمْ إيّاها، فقال الله له مؤكِّداً: {إِنَّ صَلَاوتَك سَكَنٌ لَّهُمْ}. فاشتَمَلَتْ هذه الجملة علىٰ مؤكّدين: "إنّ" و "الجملة الاسميّة".

* ومن الأمثلة قول بشار بن بُرْد:

*بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ * إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ*

الْهَجِيرُ: نصف النهار في القيظ عِنْد شِدَّةِ الحَرّ.

لَمّا قدَّم الأمر بالتبكير كانت نفس المخاطب مستشرِفَةً للسؤال عن السَّبب، طالبةً تأكيد مضمون الجملة التعليليّةِ التي تجيب علىٰ سؤالٍ يُلاحَظُ ذهنا، فقال: "إنّ ذَاكَ النجاحَ في التكبير". فأكَّد بمؤكِّدَيْنِ: "إنّ" و "الجملة الاسمية". ونظيرهُ قول بعض العرب يستحثّ علىٰ حُدَاءِ إبله لتُسْرِعَ في السّير:

*فَغَنِّهَا وَهْيَ لَكَ الْفِدَاءُ * إِنَّ غِنَاءَ الإِبِلِ الْحُدَاءُ*

الصورة الثانية: إنْ يُنزَّلَ مَنْ لا يُنْكِرُ ما سَيُقَدَّمُ لَهُ مِنْ خَبَرٍ مَنْزِلَةَ مَنْ يُنكرُهُ، إذا ظهرت عليه بعْضُ أماراتِ الإِنْكار في داخل نفسه.

* فَمن الأمثلة التي ذكرها البلاغيون لهذه الصورة، قول "حجل بن نضلة القيسيّ" بشأن ابْنِ عَمِّهِ "شقيق":

*جَاءَ شَقِيقٌ عَارِضاً رُمْحَهُ * إِنَّ بَنِي عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحُ*

مجيء "شقيقٍ" واضعاً رُمْحَهُ عَرْضاً يُشْعِرُ بأَنَّهُ يُنَافِسُ بشجاعَتِهِ وسلاحه، فكأنّه يُنْكِرُ أَنَّ أبناء عَمِّه لديهم أسلحة وأنَّهُمْ شجعان، فاقتضَىٰ حالُهُ تأكيد الْخَبَرَ الْمُوَجّه له، فقالَ له ابْنُ عَمِّهِ مؤكّداً: "إنَّ بَني عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحٌ".

فيهم رماح: أي: في حوزتِهم وفي ملكهم رماحٌ كثيرة.

الصورة الثالثة: أَنْ يُنَزَّلَ المنكِرُ منزلةَ غَيْرِ المنكر، فَلاَ يُعْتَدَّ بإنكاره ولا يُلْتَفَتَ إليه، وذلك إذا كان لديه من الأدلّة الواضحة والبراهين القاطعة، ما يكفي لإِقناعِ أهل الفكر المنصفين الذين يَنْشُدُون الحقّ.

* فمن الأمثلة علىٰ هَذِه الصورة، أن يأتي واحدٌ من صغار الملاكمينَ فيَتَطَاوَلَ علىٰ شخْصٍ لا يَعْرفُه بذاته، ولكن يعرف اسْم الْبَطل العالمي للملاكَمَة، فَيَتَحَدَّىٰ هذا الملاكمُ الصَّغِيرُ هَذا الشخْص، فيقُولُ له: "أَنَا فُلان" دون أن يؤكّد كلامه بأَيَّةِ مؤكّدات، عندئذٍ يَنْخَلِع قلْب الملاكم المتحدّي ويَنْهَزِم.

الصورة الرابعة: أنْ يُنَزَّلَ العالِمُ بفائدةِ الخبر وبلازم فائدتِهِ منزلة الجاهل بالخبر، وذَلِكَ لأنَّهُ غَيْرُ عَامِلٍ بمقْتَضَى عِلْمِهِ، فيُقَدَّمُ له الْخَبَرُ كما يُقَدَّمُ للجاهلين به.

* فمن الأمثلة على هذه الصورة المواعظُ الَّتِي تُقَدَّمُ على أَلْسِنَةِ الوعاظ للعاملينَ بِهَا، تنزلاً لهم منزلة الجاهلين بها، لأَنَّهم لا يعملون بمقتضى ما يَعْمَلون.

ويُسمَّى هذا تذكيراً، أوْ تَنْبيهاً للمخاطَبِينَ من غفلاتهم.

مؤكّداتُ الجملةِ الخبريةِ

التوكيد:

التوكيد في اللّغة: أَصْلُهُ شدُّ السَّرْجِ على ظهر الدابَّةِ بالسُّيُور حتّى لا يسقط، وتسمّى هذه السُّيُور تواكيد وتآكيد.

ثم استعمل التوكيد في توثيق العهود.

ومن هذا المعنى اللُّغي أُخِذَ لِتَقْوِيةِ صِدْقِ الكلام الخبريّ بما يؤكّده من ألفاظٍ اسْمُ "التوكيد".

والغرضُ من توكيد المتكلّم كلامَهُ، إعْلاَمُ المخاطَبِ بأَنّه يقول كلامه جازماً، قاصداً لما يَدُلُّ عليه كلامُهُ، مُتَثَبِّتاً مِنْه، لا يقولُه عن تَوَهُّمٍ أَوْ ثَرْثَرَةٍ أَوْ تَضْلِيلٍ أو اختراعٍ أو نحو ذلك، كما يفْعَلُ صَانِعُو القِصَصِ باستعمال قُدُرَاتهم التخيُّليّة في تأليف قصصهم المخترعة.

والتوكيد في الجمل إنّما يكون للإسناد "أي: الحكم" فيها، موجبةً كانت أو سالبة.

مؤكّداتُ الإسناد الخبريّ:

لكلٍّ من الجملة الفعليّة والجملة الاسميّة موجبةً كانت أَوْ سالبةً مؤكّداتٌ تُؤكِّدُ إرادَةَ صِحّةِ وصِدْقِ الإسناد فيها، أو تُؤكِدُّ تَحقُّقَ صِدْقِ الإسْنادِ فيها موجباً كان أو سالباً.

والأصل في بناء الجملة في اللّسان العربيّ الجملةُ الفعليّة، خاليةً ممّا يدُلُّ على إرادة تأكيد النسبة فيها، مثل:

"اقترتب السّاعة – وانشقّ القمر – وأهلك اللهُ المكذبين الأوّلين – ولا تخفى عَلَى الله خافية – وما انتصر أولياءُ الشيطان عَلَى أولياء الرحمن".

ويؤكَّد الإسنادُ في الجملة الخبريَّة بمؤكدات، قد ينفرد بعضُها، وقد يجتمع مع غيره بشروط، ويختص بعضها بالجملة الفعلية، وبعضها يختصّ بالجملة الاسمية، وبعضُها يؤكَّدُ به الجملتان الفعلية والاسمية.

وفيما يلي بيانٌ لما تمَّ إحصاؤُه منها:

* المؤكّد الأول: تقديم ما هو فاعل في المعنى على فعله، مثل: {وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ – وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}.

وسبب إفادة هذا التقديم التأكيد، أنّ المُسْنَدَ إليه وهو الفاعلُ قد أُسْنِد إليه الفعلُ مَرَّتين.

الأولىٰ: تظهر حينما نقول في نحو: "خالدٌ جاهَدَ في اللهِ حقّ جهاده" خالدٌ: مبتدأ، وخبرُهُ جملة: "جَاهَدَ...".

والثانية: تظهر حينما نقول: "جاهَدَ" فعل ماضٍ، وفاعله ضمير مستتر يعود علىٰ "خالد".

فالجهادُ أُسْنِدَ إلىٰ لفظ "خالدٍ" أوّلاً، وأُسند إلىٰ ضميره ثانياً، واجتماع هذَيْنِ الإِسْنَادَينِ في الجملة هو بمثابة تكرير الجملة.

وتقديم ما هو فاعل في المعنىٰ علىٰ فعله يجعل الجملة جملةً اسمية.
* المؤكّد الثاني: اختيار الجملة الاسمية بدل الجملة الفعليّة ابتداءً، والسَّبَبُ في كون الجملة الاسمية تحمل تأكيداً لا تحمله الجملة الفعليّة، أنّ خبر الجملة الاسميّة يحمل في التقدير الذي يُلاحَظُ في ذهن العربيّ ضميراً يعودُ علىٰ المبتدأ، أوْ ما أَصْلُه المبتدأ، فيكون حالُ الجملة الاسميّةِ دواماً مثل حال تقديم ما هو فاعل في المعنىٰ علىٰ فعله، قد جرَىٰ فيها الإِسنادُ إلىٰ المسنَدِ إليه مرّتين:

الأولىٰ: إسنادُه إلىٰ الاسم الظاهر.

الثانية: إسنادُه إلىٰ ضميره.

* المؤكّد الثالث: كلمة "قَدْ الحرفية، وتختصُّ بالدّخول علىٰ الفعل المتصّرف الخبريّ المثبَتِ المجرّدِ من ناصِبٍ وجازم، ومِنْ حرف تنفيس، وتكونُ معه كالجزء منه، فلا تُفصل عنْهُ إلاّ بالْقَسَمِ أحياناً.

ولكلمة "قد" الحرفية خمسةُ معانٍ، هي: التوقُّعُ، وتقريبُ الماضي من الحال، والتقليل، والتكثير، والتحقيق.

هذا المعنى الأخير وهو التحقيق هو المقصودُ هُنا، مثل:

* ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ الشمس: ٩ أي: نُؤَكّدُ إثباتَ فلاح مَنْ زَكَّى نفسه.

* ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾ ق: ٤ أي: نُؤكّد تحقُّقَ هذا العِلْم.

* ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ الأنعام: ٣٣ أي: نُؤَكِّدُ تحقُّقَ حُصول عِلْمنا بكلّ ما يَحْزُنُكَ حِيناً بعد حينٍ ممَّا يقولُ الكافرون.

* ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ النور: ٦٣ أي: نُؤكّد تحقُّق حصول هذا العلم.

* المؤكّد الرابع: القَسَم، مثل:

* والله لَفَعَلْتُ - والضحى والليل إذا سَجَى ما وَدَّعَك رَبُّكَ وما قَلَى - أُقْسِمُ لأَفْعَلَنَّ، بالنون الخفيفة أو الثقيلة - أَحْلِفُ بالله لَفَعَلْتُ أَوْ لأَفْعَلَنَّ بالنون الخفيفة أو الثقيلة.

وقد يجتمع الْقَسَمُ وحرف "قد" مثل:

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ التين: ١ - ٤

* المؤكّد الخامس: نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة، ويؤكّدان الفعلَ المضارع، ويؤكدان فِعْلَ الأمرِ، مثل:

* {وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ} ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴿٤٠﴾ ﴾ الحج: ٤٠

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ يوسف: ٣٢ النون في "لَيُسْجَنَنَّ" هي نون التوكيد الثقيلة، وفي "لَيَكُوناً" هي نون التوكيد الخفيفة.

* المؤكّد السّادس: لاَمُ الابتداء، وهي التي تقع في صدر الجملة، وتُفِيد توكيد مضمون الجملة، وتخليص المضارع للحال، ولا تدخُل إلاّ على:

(1) الاسم، مثل: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ الحشر: ١٣

(2) الفعل المضارع، مثل: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} [82/ المائدة/ 5].

(3) الفعل الذي لا تصرَّف، مثل:

* {لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (62)} [62/ المائدة/ 5].

* {لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ} [80/ المائدة/ 5].

* {وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ} [30/ النحل/ 16].

* {فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ} [75/ الصافات/ 37].

* المؤكد السابع: اللاّم المزحْلَقَة، وهي لام الابتداء حينما تُزحْلَقُ عن صَدْرِ الجملة.

وهِيَ تُزَحْلَقُ بَعْد "إنَّ" المكسورة عن صدر الجملة، فتدخُلُ علىَ الخبر، مثل: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [39/ إبراهيم/ 14]. وتدخُل على معمول الخبر إذا كان صالحاً لدخول اللاّم عليه، مثل: إنَّ اللهَ لَكُلَّ شَيْءٍ يَعْلَمُ. وتَدْخُلُ على اسم "إنَّ" إذا كان مُتأخّراً عن خبرها، مثل: {إِنَّ فِي ذالِكَ لَعِبْرَةً} [44/ النور/ 24]. وتَدْخل على ضمير الفصل، مثل: {إِنَّ هَاذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} [62/ آل عمران/ 3].

* المؤكّد الثامن: "إنّ" و "أَنَّ" بكسر الهمزة وفتحها، وهما من الأحرف المشبّهة بالفعل، لأنَّها تَعْمَلُ فيما بَعْدَها شبيه عَمَل الْفِعل فيما بَعْدَه، وتدخلان على الْجُمَلِ الاسميّة.

وكُلٌّ منْهما ينْصِب ا لمبتدأ الذي لا يَلْزَمُ الصدارة دائماً، ويُسَمَّىٰ اسْمَها، وَيَرفَعُ الْخَبَرَ غَيْرَ الطَّلَبيّ والإِنْشائي، ويُسَمَّىٰ خَبَرَها. وتفيدان تأكيد النّسبة بيْنَ اسْمِها وخبرها، مثل:

* {﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾} [38/ الحج/ 22].

* {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا} [15/ طه/ 20].

* {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191)} [الشعراء/ 26].

* {ذالِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)} [الحج/ 22].

* المؤكد التاسع: "إنْ" المخفّفة مِنَ الثقيلة، وتَدْخُلُ على الجملتَيْنِ الفعليّةِ والاسميّة، مثل:

* {وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32)} [يس/ 36].

* {وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} [143/ البقرة/ 2].

* {وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [73/ الإسراء/ 17]

* المؤكّد العاشر: ضمير الفصل، وهو الضمير الذي لا محلّ له من الإِعراب، ويقع فصلاً بين المبتدأ والخبر، أو بين ما أصله مبتدأ وخبر، مثل:

* {إِن كَانَ هَاذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ} [32/ الأنفال/ 8]. * {فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ} [117/ المائدة/ 5].

* {وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58)} [القصص/ 28].

{إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً (39)} [الكهف/ 18].

وضمائر الفصل تُفِيد التأكيد وتفيد الاختصاص أيضاً.

* المؤكد الحادي عشر: "إنّما" و "أنّما" أصّلهما "إنّ" و "أنَّ" ضُمَّت إليهما "ما" الزائدة للتأكيد، فكفَّتْهما عن العمل، وهيَّأتْهما للدّخول على الجُمَل الفعليّة، فهما يدخلان على الجملتين الاسميّة والفعلية، ويضَمّ "ما" إليهما اجتمع في لفظيهما مؤكدان، إذْ أصلُهُما يُفيد التأكيد، وزاد التأكيد بضمّ "ما" إليهما، مثل:

{قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ} [23/ الأحقاف/ 46].

* {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5)} [الذاريات/ 51].

* {قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مُنذِرٌ} [65/ ص/ 38].

* {إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (70)} [ص/ 38].

* المؤكد الثاني عشر: كلمة "أَمَّا" الشرطيّة، وهي حرف شرطٍ وتفصيل وتوكيد. أمّا كونُها شرطيّة فيدلُّ عليه لزومُ الفاء بعدها. وأمّا كونُها تفصيليّة فهو الغالبُ من أحوالها، وأمّا كونُها مؤكّدة، فقد قال الزمخشري بشأنها كما ذكر ابن هشام: فائدةُ "أمّا" في الكلام أنْ تُعْطِيَهُ فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدتَ توكيد ذلك وأنّه لا محالة ذاهبٌ، وأنّه بصَدَدِ الذهاب، وأنّه عزيمة، قُلْتَ: أمّا زيدٌ فذاهبٌ.

ويأتي بعدها المبتدأ، أو الخبر، أو جملة شرط، أو اسم منصوبٌ بالجواب.

ومن الأمثلة قول الله تعالى في سورة (البقرة/ 2 مصحف/ 87 نزول): {إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللهُ بِهَاذَا مَثَلاً...} [الآية 26].

* المؤكّد الثالث عشر: أدوَات التنبيه، ومنها "ألا" التي تردُ للتنبيه في فاتحة الكلام، وتدخُل على الجملتين الاسميّة والفعليّة، مثل:

{أَلا؟ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (62)} [يونس/ 10].

{أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ} [8/ هود/ 11].

وقول لبيد:

ألا كلّ شيء ما خَلاَ باطل * وكلُّ نعيمٍ لا مَحَالَةَ زَائلُ*

ومنها "أما" الاستفتاحية، والتي تأتي بمعنى "حقاً" كقولِ أبي صَخْرٍ الْهُذَلي:

*أَمَا وَالَّذِي أَبْكَىٰ وَأَضْحَكَ والَّذِي * أَمَاتَ وأَحْيَا والَّذِي أَمْرُهُ الأَمْرُ*

* المؤكد الرابع عشر: تكرير النفي، مثل قول الشاعر:

*لاَ. لاَ أَبُوحُ بحُبِّ بَثْنَةَ إِنَّهَا * أَخَذَتْ عَلَيَّ مَواثِقاً وَعُهُوداً*

* المؤكد الخامس عشر: الأحرف التي تُضاف في الكلام، وتُسَمَّىٰ "زائدة" ويدخل فيها كُلُّ حرفٍ إذا حُذِفَ لم ينقص شيءٌ من المعنىٰ المراد، فإيجاده في الكلام يكون لغرض التوكيد، ومنها:

* "مَا: بعد "إذا" مثل:

{وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ} [127/ التوبة/ 9].

* "مِنْ" الجارة، مثل:

{وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94)} [الأعراف/ 7]. و {مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ} [3/ يونس/ 10].

* "الباء" الجارة، مثل:

{وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً (79)} [النساء/ 4].

و {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ} [195/ البقرة/ 2].

و {أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} [36/ الزمر/ 39].

* المؤكد السادس عشر: السينُ وسوف الداخلتان على فعل دالٍّ على وَعْدٍ أو وَعيد، مثل:

* {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (31)} [الرحمن/ 55].

* {وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ (144)} [آل عمران/ 3].

* {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ} [151/ آل عمران/ 3].

* {وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (146)} [النساء/ 4].

* {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً} [56/ النساء/ 4].

* المؤكد السابع عشر: "لَكِنَّ وهي حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر، قال ابن عصفور هي للتوكيد، ويصحَبُ التوكيد معنَى الاستدراك. وقيل: للاستدراك فقط، وقيل تَرِدُ تارةً للاستدراك وتارة للتوكيد، مثل:

{وَلَاكِنَّ اللهَّ ذُو فَضْلٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (251)} [البقرة/ 2].

{وَلَاكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهَّ يَجْحَدُونَ (33)} [الأنعام/ 6].

وقول الشاعر الحماسي:

*لَكِنَّ قَوْمي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ * لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا*

* المؤكد الثامن عشر: "لَنْ" قال علماؤنا: وَلاَ تفِيدُ تَوْكيدَ النَّفْي وَلاَ تَأْبِيدَهُ خلافاً للزمَخْشَرِي.

أقول: أمّا التَّأْبِيدُ فلا تُفِيدُه حَتْماً، وأَمّا التوكيد فالظاهر أَنَّها تُفيدُه، لأَنّ لفظ "لَنْ" زائدٌ على لفظ "لا" النافية، والزيادة في لسانِ العرب إنّما تكونُ غالباً لزيادة المعنى، وظاهر أنّ لفظ "لَنْ" مُشابِهٌ للفظ "لا" بزيادة نون ساكنٍ في آخرِه لزم من وجود حذف الألف، لأنه ساكنٌ مَدّيٌّ ليّن، والنافي ابتداءً يقول: لا أَفْعَلُ، فإذا أَلَحَّ عليه طالبُ الفعل قال: لَنْ أَفْعَلَ.

تقسيم الإِسناد في الجملة إلى حقيقي ومجازي (وهو المجاز العقلي)

الإِسناد الحقيقي:

إذا جعَلَ المتكلّمُ الإِسنادَ في جُمْلَتِهِ مبنيّاً على ما يعتقد أنّه هو له في الواقع

أمثلة:

* كقول المؤمن المسلم: الله خالق كل شيء – وهو الذي يُنْبت الزّرع – وَيُدِرُّ الضَّرْعَ – ويُحْيِي ويُميت.

* وكقول النصراني: أَحْيا عِيسَى الأموات – وخَلَقَ الطيورَ.

فإنّه يعتقد أن عيسى هو فاعل هذا الإِحياء والخَلْقِ باعتباره كما يعتقد أنّه أحد الأقانيم الثلاثة التي يتكَوَّنُ مِنها الله "الأقانيم: هي في اعتقاد النصارى أشخاصٌ متفاصلة مع أنّها إلَه واحد".

* وقول المشرك الوثني الذي لا يُلاحظُ أفعال الله فيما يجري في الكون من أحداثٍ ذواتِ أسباب، بل يرى الأسبابَ ذوات فِعْلٍ حقيقيّ في مُسَبَّباتها:

أنبتَ مَطَرُ السماء الزرعَ في الأرض - أنزلَ نَوْءُ كذا المطر - أشْعَلَتِ الرّيَاح السَّمومُ النار في الغابة فأحرقتها.

* وكقولك لفلاّح رأيتَهُ قد قام بأعماله بيديه: حَفَر بِئْرَهُ - وحَرَثَ أَرْضَهُ - وغَرَسَ شَجَرَه.

الإِسْنادُ المجازيّ:

وإذا جَعَلَ المتكلّم الإِسنادَ في جملتهِ مبنيّاً على غَيْرِ ما يَعْتَقِد أنّه هو لَهُ في الواقع، مُلاَحِظاً علاقَةَ ما أو مُلاَبَسَةً ما تَسْمَحُ لَهُ بأنْ يُسْنِدَ هذا الإِسناد، دون أَنْ يتّهِمَهُ أحَدُ بالكذِب، فهو إسنادٌ مجازيٌّ، ويُسمَّى هذا "مجازاً عقليّاً" لأنّه وقَعَ في الإِسناد، لا في المُسْنَدِ، ولا في المُسنَدِ إليه.

ويُلْحَقُ به كلُّ وَصْفٍ "صفة أو حال" إذا بنيت منه ومن الموصوف جملة مفيدة كان إسناد فيها إسناداً مجازيّاً، كما سيأتي في الأمثلة.

الأمثلة:

* كقولنا: "رَبِحَتْ تِجَارَةُ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه" ففي هذه الجملة أُسْنِدَ الرِّبْحُ إلى التجارة، مع أنّ الرابحَ هو صاحبُها: "عبدالرحمن بن عوف". وحين أسندنا الربح إلى التجارة لم نكن نعتقد أنّ التجارة هي التي ربحت، وإنّما الذي ربح هو صاحبها، ولكنْ أرَدْنَا أنْ نُعَبِّر تعبيراً مجازيّاً قائماً على ملاحظة أثَرِ الحركة

التجاريّة الحكيمة الذّكيّة التي قام بها عبدالرحمن والّتي حقّق بها الرّبح، فصحَّ في تصوُّرنا أن نُسْنِدَ الرّبحَ إلى التجارة نَفْسِها، للإِشْعَارِ بقيمة المهارة التي اشتملت عليها تجارته.

وبما أنّ التجارة هي عَمَلُ عبدالرحمن فبينها وبينه مُلابَسَةٌ قويَّةٌ، وعلاقَةٌ واضحةٌ، هي علاقة العامل بعمله، أو نقول: هي علاقة الفاعل "وهو عبد الرحمن" بالمفعول به "وهي التجارة" إذ كان المفعول به سبباً في تحقيق الربح لعبد الرحمن "الفاعل".

* وكقولنا: "قَتَلَتِ المُتَهَوِّرَ حَمَاقَتُهُ" مع أَنَّهُ قَدْ قُتِلَ بِيَدِ خصومه الّذين نازلهم في تهوُّرِه بدون أن يحسب حساباً للنتائج.

ففي هذه الجملة قد أسندنا القتل إلى الحماقة، فجعلناها هي القاتلة، مع أنّ القاتل هو البطل الخصم الذي نازله، وهو غير كفءٍ لمنازلَتِهِ.

ولكنْ أردنا أنْ نُعَبِّر تعبيراً مجازياً قائماً على ملاحظة أثر الحماقَةِ الّتي دفعت المتهور، فجعلَتْه قتيلاً بيَد قاتله البطل، فصحَّ في تصوُّرنا أن نُسْنِدَ الْقَتْلَ إلى الْحَمَاقة، للإِشعار بكونها سبباً في قتله، مع الاختصار في العبارة، وأصل الكلام: قتَلَ البطَلُ مُنَازِلَهُ الّذي تهوَّر بسبب حماقته التي دفعته إلى منازلة البطل، وهو غير كُفْءٍ لمنازلته. ونظير هذا أن نقول: قطَعَتِ السّرقةُ يَدَ السَّارق، إذْ نُسْنِد القطع إلى السّرقة، مع أنّ الّذِي قطع يد السَّارق مُنَفِّذُ حُكْمِ حدّ السّرقة.

أحوال المسند في الجملة المشتملة على مجازٍ عقلي:

المُسْنَدُ في الجملَةِ المشتملة على مجازٍ عَقْلِيٍّ قد يكون واحداً مما يلي:

* قد يكون فعلاً مَاضياً، أو فعلاً مضارعاًن أو فعل أمر، مثل: "بَنَى الأمير المدينة - يبني الأمير المدينة - يا هامانُ ابْنِ لي صَرْحاً".

* وقد يكون غَيْرَ فِعْلٍ، لكنَّهُ في معنى الفعل، وهو ستة أنواع، هي: "1- المصدر 2- اسم الفعل 3- اسم المعفول 4- الصفة المشبّهة 5- اسم التفضيل 6- الظرف والجار والمجرور".

الأمثلة:

أوّلاً - من المصدر:

* قولنا: "دوامُ الدولَةِ عَدْلُهَا" ففي هذا المثال أسندنا العدل وهو مصدر "عَدَلَ" إلى غير ما هو له، وهو دوام الدولة، فالعدلُ ليسَ هو دوامَ الدولة، لكنَّهُ سبَبٌ في دوامها.

* قول الخنساء من قصيدة ترثي بها أخاها صخراً:

*فَمَا عَجُولٌ لَدَىٰ بَوٍّ تُطِيفُ به * لَهَا حَنِينَانِ إِعْلاَنٌ وإِسْرَارُ*

*أَوْدَىٰ بِهِ الدَّهْرُ يَوْماً فَهْيَ مُرْزِمَةٌ * قَدْ سَاعَدَتْهَا عَلَىٰ التَّحْنَانِ أَظْآرُ*

*تَرْتَعُ مَا غَفَلَتْ حَتَّىٰ إِذَا ادَّكَرَتْ * فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وإِدْبَارُ*

*يَوْماً بِأَوْجَعَ مِنِّي يَوْمَ فَارَقَنِي * صَخْرٌ ولِلْعَيْشِ إِحْلاَءٌ وإِمْرَارُ*

عَجُول: أي: ثَكْلَىٰ، ومُرَادُها: ثَكْلَىٰ من النوق.

بَوّ: جِلْدُ وَلَد الناقة يُحْشَىٰ تِبْناً ويُقَرَّبُ من أمّه الثكلَىٰ لتدر عليه.

تُطِيفُ به: أي: تَدور حوله.

أَوْدَىٰ به الدّهر: أي: أهلكه.

مُرْزِمَة: يُقالُ" أَرْزَمَتِ الناقة، إذا صوّتَتْ حنيناً علىٰ ولدها.

أَظْآرُ: أي: نوقٌ تُرْضِعُ غَيْرَ أَوْلادها من حنينها علىٰ أولادها.

وللعيش إِحْلاَءٌ وإِمْرَارُ: أي: وللعيشِ أحوال يُقَدّمُ بها حلاوة، وأخرىٰ يقدّم بها مرارة.

والشاهد في قولها:

*تَرْتَعُ مَا غَفَلَتْ حَتَّىٰ إِذَا ادَّكَرَتْ * فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وإِدْبَارُ*

أي: هذه الثكْلَىٰ مِنَ النوق تَرْتَعُ (أي: ترعَىٰ) في أوقات غفلتها وسُلُوّها عن ولَدِها، حتَّىٰ إذا إذا تذَكَّرَت وَلَدَها ثار بها الحنين فصارت تُقْبِلُ وتُدْبِرُ علىٰ غير هُدىً، لكن الخنساء لم تَقُلْ هكذا، وإنما جعلَتِ الناقَةَ كُلَّها هي الإقبال والإِدْبار، فقالت: "فإنَّما هِيَ إِقْبَالٌ وإِدْبارُ

الإِقبال مصدَرُ "أقبل" والإِدْبارُ مصدر "أدْبَر" ومرادُها الإِشعارُ بأنّها صارت في التَّصَوُّر إقبالاً وإِدْباراً، لطغيان هذين الوصفين علىٰ الذات وسائر الصفات.

* قولي صانعاً مثلاً:

*يَرَى السُّخَفَاءُ المُلْكَ عَرْشاً وَتَاجَهُ * وَمَا المُلْكُ إلاَّ العَدْلُ والجُودُ والحَزْمُ*

أي: سبَبُ ظفر المَلِكِ بسُلْطانِهِ على شبعه واكتسابه المُلْكَ الحقيقي أن يقيم العدل، وتخلّق بالجود وبالحزم.

* قول الشاعر:

*سَيذْكُرُني قَوْمي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ * وفي اللّيلَةِ الظّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ*

فَنَسَبَ فعل "جَدَّ" إلى المصدر المضاف إلى ضمير قومه، أي: إذا جَدُّوا، والمرادُ الإِشعارُ بأنّ أمرهم الجدَّ إذا انْضَمّ إليه جدٌّ آخرُ فوق المعتاد فأَقْلَقَهُمْ وأَحْوَجَهُم إلى معين، فإنَّهُمْ سَيَذْكُرُونني حنيئذٍ.

ثانياً – من اسم الفاعل:

* قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ 69 مصحف/ 78 نزول) بشأن مَنْ أوتي كتابه بيمينه:

{فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22)}.

راضية: اسم فاعل، وقد جاء في هذا التعبير القرآني إسناد الرّضا في كلمة "راضية" إلى العيشة، مع أنّ الراضي هو صاحبُ العيشة، إذْ يَرْضَى عن عيشته الحسنة، فالعيشة في الحقيقة مرضيّة.

والعلاقة الّتي صحَّحَت استخدام هذا المجاز العقلي كون العيشة محيطة بحياة صاحِبِها، ورضاهُ بها يُشيع الرّضا في كلّ ما يحيط به.

والتحليل النفسيّ لهذا يكْشِفُ أنّ من كان سعيداً فإنّه يرىٰ الدنيا كلّها من حوله سعيدة، ومن كان حزيناً فإنّه يرىٰ الدُّنيا كلَّها من حوله حزينة، وهكذا.

قولهم: "طريق سائر" مع أنه مسيرٌ فيه، و"نَهْرٌ جارٍ" مع أنّه مجريٌّ فيه، للإشعار بأنّ التصوُّرَ يَرَىٰ الطريق يسير لامتلائه بمن يمشي فيه، وبأنّ حُفْرَة النَّهر تجري لامتلائها بالماء الجاري.

* قولهم: "نهارُهُ صائم" و "لَيْلُهُ قائم" فإسنادُ الصَّيام إلىٰ النهار، والقيام إلىٰ اللّيل، مع أنّ فاعل الصيام والقيام هو الرّجل المتعبّد بداهة، يَعْتَمِدُ علىٰ مَدٍّ في التصوّر للإشعار بأنّ النهارَ واللَّيْلَ يَصُومانِ ويقومان معه بمشاعره ووجدانه.

* ما جاء في دعاء الرسول صلىٰ الله عليه وسلم: "اللّهُمَّ إنّي أَحْمَدُكَ عَلَىٰ الْعِرْقِ السَّاكِنِ واللَّيْلِ النَّائم".

أي: علىٰ العاقية والنّومِ في اللَّيل، فجَاء وصف اللّيْل بالنوم مع أنه وصف لمن ينام فيه والوصف اختصار لنسبةٍ بَيْنَ رُكْنَيْ إسنادٍ في جملة مفيدة.

* قول الله عزّ وجلّ في سورة (العلق/ 96 مصحف/ 1 نزول): بشأن الذي ينهىٰ عبداً إذا صلّىٰ:

{كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16)}.

جاء في هذا النّصّ وصف الناصية باسم الفاعل: "كاذِبة وخاطئة" مع أنّ الكاذب والخاطئ هو صاحب الناصية، لكنّ الناصية جزءٌ منْهُ، فَجَذْبُهُ من ناصيته لإِذْلاله وتعذيبه يكون بسبب كونه كاذباً وخاطئاً، والملابسة والعلاقة بين الناصية وصاحِبها من الأمور الظاهرة.

والوصف كما سبق هو اختصار لنسبه بين ركني إسنادٍ في جملة تامّة، إذْ يُقالُ في هذه الجملة: "ناصيةٌ كاذبة" و "ناصِيةٌ خاطئة".

لَنَسْفَعَنَّ: أي: لَنَقْبِضَنَّ وَنَجْذِبَنَّ.

ثالثاً – من اسم المفعول:

* قولي ضارباً مثلاً:

*دَارُهُ مَهْجُورَةٌ مِنْ حِبِّه * ونَعِيمُ الْوَصْلِ لِلْكُوخِ الْبَعِيدِ*

ففي هذا إسنادُ اسم المفعول وهو "مهجورةٌ" إلى الدّار، مع أنّ المهجور صاحبها، ولكنّ الْمَشَاعِرَ النفسيّة مَدَّتْ أبْعَادَ الهجْرِ، فجعَلَتْ الدارَ كُلَّها مهجورة، مع أنّ المتكلّم يَعْلَمُ أنّ الهجْرَ هو لصاحب الدار، لا للدّار، فتجوَّزَ في التعبير لِيُشْعِرَ الآخرينَ بما شعَرَ هو به.

* وقولهم: سَيْلٌ مُفْعَمٌ، ففي هذا إسناد المفعول "مُفْعَم" إلى السيل، مع أنَّ المفعَمَ (أي: المملوءَ) هو الوادي الذي جرى فيه السي، أمّا السيل فهو "مُفْعِم" بكسر العين اسم فاعل.

* وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ 11 مصحف/ 52 نزول):
{إِنَّ فِي ذالِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذالِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (103)}.

الشهود: هو الحضور المصحوب بإدراك الحواس.

فجاء في هذا النصّ إسنادُ المشهوديّةِ للْيَوْم، مع أنَّ اليوْمَ اسْمٌ لزمَنٍ، وهو لا يُدْرَكُ بالْحَوَاسّ، لكِنّ الذي يُشْهَدُ ويُدْرَكُ بالحواسّ هو ما يَحْصُل في اليوم من أشياء وأحداثٍ تُرىٰ أو تُسْمَع أو تُلْمَسُ. ولمّا كان كلُّ شيءٍ في ذلك اليوم سيكونُ مشهوداً محضوراً غير غائب، كان إطلاق المشهوديَّةِ علىٰ اليوم دالاًّ علىٰ هذِهِ المشهوديَّة الشّاملة لكلّ ما فِيه بأخْصَرِ عبارَة، فَهُو مِنَ المجاز العقليّ.

من الصفة الْمُشَبَّهَة:

* قولنا: فلانٌ رِداؤه شَريف، وإزارُه عفيف، ففي هذا القول إسناد الشرف إلىٰ الرداء، والمراد أنه شريف الحسب والنسب، وإسناد العفّة إلىٰ الإِزار، والمراد أنّه ذو عفّةٍ في فرجه الواقع تحت الإِزار، والملابسة واضحة.

كلمتا "شريف وعفيف" هما صفتان مشبهتان، والصفة المشبّهة، هي لفظ مصوغٌ من مصدر اللازم للدلالة علىٰ الثبوت، مثل: أحمر وحمراء، وعطشان وعطشىٰ، وحسَن، وشجاع، وجبان، وفَرِح، ونَجِس، وطاهر، وبخيل، وكريم.

* وقولنا: فلانٌ سَيْفُه جبان، وصُنْدوق ماله بخيل.

ففي هاتين العبارتين إسناد الجُبْنِ إلى السيف وإسناد البخل إلى صندوق المال، والمراد صاحبُهما، والملابسةُ أو العلاقة كَوْنُ المذموم مالِكَهُما أو المتصرّفَ بهما.

* وكالوصف في: "الكتاب الحكيم" و "الأسلوب الحكيم" إذا قلنا: إن الحكمة صفة صاحب الكتاب والأسلوب.

من أفعل التفضيل:

* قولنا: إزار فلانٍ أعَفُّ من إزار فلان، وسيفُهُ أشجع من سيفه، وصندوقه أكرم من صندوقه، ودارهُ أكثر ترحيباً بالضُّيُوفِ من دارِه.

من الظرف والجار والمجرور:

* قولنا: الشُّجَاعُ حينَ المبارزة، وعند اللّقاء، وفي ساحَةِ الوغى. أي: تُعْرَفُ وتَظْهَرُ شَجَاعة الشُّجَاعِ في وقت المبارزة، ومكان اللّقاء، وفي ساحةِ الحرب.

علاقات المجاز العقلي:

أمّا المجاز العقلي فهي كلّ مُلاَبَسةٍ أو علاقة تُصَحّح التجوز في مفاهيم البلغاء والأدباء، في المجاز العقلي وفي المجاز المرسل الآتي بيانه في موضعه إن شاء الله. وقد أحصى منها علماء البلاغة وعلماء أصول الفقه زائداً على عشرين علاقة، منها: "السببّة - المسببّة - إطلاق الكلّ على البعض - إطلاق البعض على الكلّ - إطلاق اللازم وإرادة الملزوم - إطلاق الملزوم وإرادة اللازم - إطلاق المطلق وإرادة المقيّد -

إطلاق المقيد وإرادة المطلق - إطلاق العام وإرادة الخاص - إطلاق الخاص وإرادة العامّ - إطلاق الحالّ وإرادة المحل - إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ - إقامة المضاف إليه مقام المضاف - إقامة المضاف مقام المضاف إليه - علاقة الجوار - اعتبار ما كان عليه الشيء - اعتبار ما يؤول إليه الشيء - علاقة الآليّة - علاقة البدليّة والعوض - إطلاق المعرّف باللاّم وإرادة واحدٍ منكر - إطلاق النكرة في الإثبات وإرادة العموم - علاقة التضادّ" إلى غير ذلك من علاقات.

ومن هذه العلاقات ما يصلح في المجاز العقلي، ومنها ما لا يصْلُحُ، وذوق البليغ هو الذي يُحسِنُ تصيُّد العلاقة لما يصوغ من كلام يَتَجوَّزُ فيه عن ذكر الحقيقة إلى مُلابِسٍ من مُلاَبِسَاتها.

الجملة المفيدة بين الإثبات والنفي

تنقسم الجملة المفيدة من جهة الإثبات والنفي إلى قسيمن:

القسم الأول: الجملة المثبتة، وهي الجملة الّتي خلَتْ من أداةٍ من أدوات النفي، فالإسنادُ فيها بين المُسنَدِ والمُسْنَدِ إِلَيْهِ (بين المحكومِ به ولمحكُومِ عليه) إسنادٌ مُثْبَتٌ، ولول كان مضمون الجملة يمكن أنْ تُصَاغَ له جملةَ منفيّة.

مثل: "العنقاءُ طائرٌ مَعْدُومٌ".

هذه جُمْلةٌ مُثْبَتَةٌ، ويُمكن أنْ يُصاغ لمضمونها جملةٌ أخرىٰ منفيّة نقولُ فيها: "لا وُجُودَ لطائر العنقاء".

القسم الثاني: الجملة المنفيّة، وهي الجملة التي دخلتْ عليها أداةٌ من أدواتِ النفي دلّتْ على نفي نِسْبَةِ المُسْنَدِ إلى الْمُسْنَدِ إلَيْهِ فيها، ولو كان مضمون الجملة يُمْكِنُ أن تُصَاغ له جملة مثبتة.

مثل: "لا وُجود لطائر العنقاء" و "لا يعلم الكفار أنهم إلى النار صائرون". هاتان جملتان منفيتان، ويُمْكِنُ أن يُصاغ لمضمونهما جملتان أخريان مثبّتان نقول فيهما: "العنقاء طائر مَعْدُومٌ"، و "الكفارُ يَجْهَلُونَ أنَّهم إلى النار صائرون".

أدوات النفي التي تنفي الجمل:

أدوات النفي التي تنفي الجمل في اللّسان العربي ثمان، هي: "لاَ - لاتَ - لَيْسَ - مَا - إنْ - لَمْ - لَمَّا - لَنْ".

وفيما يلي بيانٌ حولَ هذه الأدوات:

شرح الأداة الأولى: كلمةُ "لاَ" وتأتي حرفَ نَفْيٍ على خمسة أوجه:

الوجه الأول: أنْ تكونَ عاملةً عملَ "إنَّ" تنصِبُ الاسْمَ وتَرْفَعُ الخبر، وذلِكَ إذا أُرِيدَ بها نفيُ الجِنْسِ على سبيل التنصيص، ومن أمثلة هذا الوجه قولُ أبي الطيّب المتنبِّي يمدح عليّ بن أحمد الخرساني:

*ولاَ ثَوْبَ مَجْدٍ غَيْرُ ثَوْبِ ٱبْنِ أَحْمَدٍ * عَلَى أَحَدٍ إلاَّ بِلُؤْمٍ مُرَقَّعُ*

الوجه الثاني: قد تكونُ بِقلَّةٍ عاملةً عَمَلَ "لَيْسَ" تَرْفَعُ الاسم وتنصبُ الخبر، ومن أمثلة هذا الوجه قولُ الشاعر:

تَعَزَّ فَلاَ شَيْءٌ عَلَى الأَرْضِ بَاقِيَا * وَلاَ وَزَرٌ مِمَّا قَضَى اللهُ واقِيَا*

وقولُ أبي الطيّب المتنبّي:

*إِذا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خَلاَصاً مِنَ الأَذَىٰ * فَلاَ الْحَمْدُ مَكْسُوباً وَلاَ الْمَالُ بَاقِيَا*

الوجه الثالث: أن تكونَ عاطفةً بشروطٍ مبيّنة عند النحويين، مثل: "جَاءَني رَجُلٌ لاَ امْرَأَة".

ومِنْ أمثلة هذا الوجه قولُ امْرِئِ الْقَيْس:

*كَأَنَّ دِثَاراً حَلَّقَتْ بِلَبُونِهِ * عُقَابُ تَنُوفَىٰ لاَ عُقَابُ الْقَوَاعِلِ*

دِثار: اسْمُ راعٍ كان يرعى الإِبل.

حَلَّقَتْ: أي: ذهبت.

بلَبُونِه: أي: بنُوقِهِ ذَواتِ اللَّبَن.

الْعُقاب: طائر من كواسر الطير قويّ المخلب، ولفظه مؤنث، ويُجْمَعُ على "أَعْقُبٍ" و"عِقْبَان".

تَنُوفَىٰ: اسم جَبَلٍ عالٍ تَأْوِي إليه العِقْبان الشديدةُ القويّة.

الْقَوَاعِل: صِغَارُ الجبال التي تأوي إليها العِقْبانُ الصّغارُ والضِّعاف.

الوجه الرابع: أن تكون جواباً مناقضاً للجواب بلفظ "نَعَمْ" وهَذِه تُحْذفُ الْجُمَلُ بَعْدَهَا بكَثْرَةٍ.

الوجه الخامس: أن تكون على خلاف ما سبق:

فإن كان ما بعدها جملةً اسميّة صَدْرُها مَعْرِفَةٌ أو نكرة ولم تَعْمَلْ فيها، أو كان ما بَعْدَها فِعْلاً ماضِياً لفظاً أَوْ تَقْدِيراً وجب تكرارها، إلاَّ في الدّعاء، وإرادةِ المستقبلِ في الفعل الماضي.

ومن أمثلة هذا الوجه:

* قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ 36 مصحف/ 41 نزول:

{لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)}.

* وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ 37 مصحف/ 56 نزول):

{يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (45) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (46) لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (47)}.

وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُون: أي: ولاَ هُمْ عَنْ شُرْبِهِم لَهَا يَسْكَرُونَ حتَّىٰ تَذْهَبُ عُقولُهُم، يُقَال لُغَةً: شَرِبَ خَمْراً فَأنْزَفَ، أي: سَكِرَ أو ذهب عقله.

* وقول الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة/ 57 مصحف/ 31 نزول) بأن الكافر:

{فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّىٰ (31) وَلَاكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (32)}.

شرح الأداة الثانية: كلمة "لاَتَ" وهي حرف نفي، قال جمهور النحويين: هي مؤلّفة من كلمتين: هما "لاَ" النافية، و"التاء" الَّتِي لتأنيث اللّفظة، كما في "ثمَّت" وَ "رُبَّت" وإنّما وجبَ تحريكُ التاء في "لاَتَ" لالْتِقاءِ السّاكنَيْن.

وقال جمهور النحويين: إنّها تَعْمَلُ عَمَل "لَيْس" وهي خاصَّةٌ بِنَفْي الْحِين، ولاَ يُذْكَرُ بَعْدَهَا إلاَّ أَحَدُ مَعْمُولَيْهَا.

ومن الأمثلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ 38 مصحف/ 38 نزول): {كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ (3)}.

شرح الأداة الثالثة: كلمة "لَيْسَ" وهي فعلٌ لاَ يَتَصَرَّف، ويدُلُّ على نَفْي الحال، ويَنْفِي غَيْرَهُ بقرينة، وهو يَرْفَعُ الاسْمَ ويَنْصِبُ الخَبَر، ومن الأمثلة:

* قول الله عزَّ وجلَّ خطاباً لرسوله بشأن الكفارين في سورة (البقرة/ 2 مصحف/ 87 نزول):

{*لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَاكِنَّ اللهَّ يَهْدِي مَن يَشَآءُ...}. [الآية 272].

* قول المتنبّي في مَدْحِ طاهِرِ بْنِ الْحُسين:

*فَشَرَّقَ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ * وغَرَّبَ حَتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبُ

شرح الأداة الرابعة: كلمة "ما" الحرفية، وتأتي حرْفَ نَفْيٍ، وتدخُلُ على الجملتَيْن الاسميّة والفعليّة:

* فإذا دَخَلَتْ على الجملة الاسمية أعملها الحجازيّون والتهاميُّونَ والنَّجْدِيُّونَ عَمَل "لَيْسَ" بشروط.

* وإذا دخلت على الجملة الفعليّة لم تَعْمَلْ.

* وهي تخلِّص الفعل المضارع إذا دخلت عليه للحال عند جمهور النحويين، ما لم تُوجَدْ قرينةٌ تدُلُّ على الاستقبال.

شرح الأداة الخامسة: كلمةُ "إِنْ" وهي حرف.

فمن وجوه هذه الكلمة أن تأتي نافية، وتَدْخُل على الجملتين الاسميّة والفعلية، ولا يشترط أن يأتي بعْدها في الجملة "إلاّ" أو "لمّا" حتَّى تكونَ نافية، وبعضهم اشترط ذلك.

ومن أمثلة استعمال "إِنْ" حرف نفي ما يلي:

* قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الملك/ 67 مصحف/ 77 نزول):

{...إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (20)}.

أي: ما الكافرون إلاَّ في غرور.

* قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطارق/ 86 مصحف/ 36 نزول):

{إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4)}.

أي: ما كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عَلَيْها حَافِظٌ.

* قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ 10 مصحف/ 51 نزول):
{قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَاذَآ أَتقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (68)}.

أي: ما عندكم من حُجَّةٍ ذَاتِ سُلْطَانٍ بهذا الذي تقولونه.

* قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ 21 مصحف/ 73 نزول) خطاباً لرسوله:

{فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِي؟ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (109)}.

أي: وما أدري أقريبٌ أمْ بعيدٌ تُوعَدُونَ.

شرح الأداة السادسة: كلمة "لم وهي حرف نفي وجزْمٍ يجزم الفعل المضارع، ويقلبُ زمَنَهُ فيجعَلُهُ ماضياً.

الأمثلة: * قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ 2 مصحف/ 87 نزول):
{وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ...} [الآية 283].
* قول الله عزّ وجلّ في سورة (البينة/ 98 مصحف/ 100 نزول):
{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1)}.
* قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ 7 مصحف/ 39 نزول):
{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (184)}.
* قول المتنبّي يمدح أبا عُبَادَة بن يحيى البحتري:

*لَمْ أُجْرِ غَايَةَ فِكْرِي مِنْكَ فِي صِفَةٍ * إِلاَّ وَجَدْتُ مَدَاهَا غَايَةَ الأَبَدِ*

شرح الأداة السابعة: كلمة "لَمَّا" وَهِي حَرْفُ نفي وجزم، يجزم الفعل المضارع، ويَقْلِبُ زمنَهُ فيجعلهُ ماضياً مثمل "لَمْ" لكنَّ "لَمَّا" تُفَارِقُ "لَمْ" في خمسة أمور:

الأمر الأول: أنّها لا تقترن بأداة شرط، بخلاف "لم".

الأمر الثاني: أنّ منفيَّها مُسْتَمِرُّ النفي إلى زمان التكلّم، بخلاف "لَمْ" فقد ينقطع نفيُها في بعض أزمان الماضي، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإِنسان/ 76 مصحف/ 98 نزول):

{هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً (1)}.

أي: ثُمَّ كان شيئاً مذكوراً في الزمانِ الماضي.

الأمر الثالث: أنّ الغالب في منفيّ "لَمَّا" أنْ يكون قريباً من الحال.

الأمر الرابع: قالوا: إنّ منفيّ "لَمَّا" متوقَّعٌ ثُبوتُهُ بخلاف منفم "لم".

أقول: هذا مُعْتَرَضٌ عليه بقول الله عزّ وجل في سورة (عبَس/ 80 مصحف/ 24 نزول):

{كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ (24)}.

إذِ الآيَةُ فيها زَجْرٌ يَوْم القيامة للعاصي الذي لَمْ يَقْضِ ما أَمَرَهُ الله به، وقد صار أمراً غير ممكن الحصول، وغير متوقّع، بعد انتهاء زمن الابتلاء.

الأمر الخامس: أنّ منفيّ "لمَّا" جائز الحذف، فتقول: أنَا قاصدٌ الحجّ إلى بيت الله الحرام ولمَّا، أي: ولمَّا أصِلْ. بخلاف "لم".

شرح الأداة الثامنة: كلمة "لَنْ" وهي حرف نفي ونَصْبٍ للفعل المضارع، واسْتِقبال.

قالوا: ولا تفيد توكيد النفي ولا تأبيده خلافاً للزمخشري.

أقول: أمّا أنّها لا تفيد التأبيد فهو حقٌّ، لأنّ في كثير من النصوص التي توجد فيها "لن" ما يدلُّ على أنّ التأبيد غير مدلولٍ عليه فيها.

وأمّا التأكيد فأرى أنّها تُفِيده، لأن مَبْنَى حرف "لن" فيه زيادة لفظية على مبنى حرف "لا" فهي آكَدُ منها.

رأيٌ لِلْحَوْفي حول أدوات النفي

قال الحَوْفي: أصل أدوات النفي "لا" و"ما" لأنّ النفي إمّا في الماضي، وإمّا في المستقبل، والاستقبال أكثر من الماضي أبداً. قال: و"لا" أخفّ من "ما" فوضعوا الأخفّ للأكثر، ثُمَّ إنّ النفي في الماضي إمّا أن يكون نفياً واحداً مستمراً، أو نفياً فيه أحكامٌ متعدّدة، وكذلك النفيُ في المستقبل، فصار النفي على أربعة أقسام، واختاروا له أرْبَعَ كلمات: "ما" و"لم" و"لن" و"لا".

وأمّا "إنْ" و"لمَّا" فليسا بأَصْلَيْن.

فـ "ما" و"لا" في الماضي والمستقبل متقابلان، و "لم" كأنَّه مأخوذٌ من "لا" و"ما" لأنّ "لم" نفي للاستقبال لفظاً، وللمضيّ معنًى، فأُخِذَ اللاّمُ مِن "لا" الّتي هي لنفي المستقبل، والميم من "ما" التي هي لنفي الماضي، وجُمِعَ بينَهُما إشارةً إلى المستقبل والماضي، وقُدِّم اللاّم على الميم إشارة إلى أَنَّ "لا" هي أصل النفي، ولهذا يُنْفَى بها في أثناء الكلام، فيُقالُ: لم يفْعَلْ زيْدٌ ولاَ عَمْرو.

وأمّا "لَمَّا" فتَرْكيبٌ بعْدَ ترْكيب، كأنّه قَالَ: "لَمْ" و"ما" لتوكيد معنى النفي في الماضي، وتفيد الاستقبال أيضاً، ولهذا تُفِيد "لمّا" الاستمرار.

أقول: كلامُ الحَوْفِي رَأيٌ في تحليل الوضع اللّغوي، إلاَّ أنّ اللّغات يَصْعُبُ الجزم بتعليل أوضاعها، إلاَّ ما كان منها متبادراً لِلْفَهْم، أو خاضعاً لمقاييس تجريبيّة.

المحتويات



دار أمجد للنشر والتوزيع

عمان - الأردن - وسط البلد- مجمع الفحيص - الطابق الثالث



جوال :
٠٠٩٦٢٧٩٦٩١٤٦٣٢ هاتف :٠٠٩٦٢٦ ٤٦٥٢٢٧٢
٠٠٩٦٢٧٩٩٢٩١٧٠٢
٠٠٩٦٢٧٩٦٨٠٣٦٧٠ فاكس:٠٠٩٦٢٦ ٤٦٥٢٢٧٢
dar.almajd@hotmail.com
dar.amjad2014dp@yahoo.com